

محمد الصراح الصديقي

تكریم العلماء و الأدباء فی العالم العربی قطیما و حسیثا

دیوان المطبوعات الجامعية

محمد الصالح الصديق

تكريم العلماء و الأدباء
في العالم العربي
قديمًا و حديثًا



كيوان المطبوعات الجامعية

انساحة المركزية . بن عكنون . الجزائر

الطبعة الأولى: 2005

الطبعة الأولى: 2005
الطبعة الثانية: 2006
الطبعة الثالثة: 2007

© ديوان المطبوعات الجامعية 09 - 2005

رقم النشر: 4.07.4761

رقم ر.د.م.ك (ISBN): 9961.0. 0865.0

رقم الإيداع القانوني: 2005/1961

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الإهداء

- إلى الذين لا ينفكون يجاهدون بالفكر والقلم: يدعون إلى الألفة التي تجمع، والوحدة التي تقوي، والقوة التي تدفع وتُدافع، والعمل الذي يغير مجرى التاريخ!!

- وإلى الذين استحقوا بأعمالهم الفكرية، كل التكريم، ولم يُكرّموا، ومع ذلك واصلوا المسيرة بكل آمالهم وآلامهم، فما وهنوا وما استكانوا!

- وإلى الذين استحقوا التكريم، وافتكّوه بجدارتهم وعصارات أمخاخهم، ومضوا في طريقهم دون أن تغريهم هتافات المعجبين وتصفيقاتهم!

إلى هؤلاء جميعا أهدي هذا الكتاب.

المؤلف

أضواء

قال الله تعالى:

«فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونَ» (البقرة / 152).

«لئن شكرتم لأزيدنكم» (إبراهيم / 07).

«ولقد كرّمنا بني آدم» (الإسراء / 70).

وقال الله تعالى:

«قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ» (عبس / 17).

«وقليل من عبادي الشّكور» (سبأ / 13).

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم:

(إذا جمع الله الخلائق يوم القيامة، قال لعبده: هل شكرت فلانا؟

فيقول: يا رب، علمت أنك المنعم فشكرتك، فيقول الله تعالى:

لم تشكرني إذا لم تشكر من أجريت ذلك على يده!)

رواه أبو القاسم حسين بن محمد الراغب الأصبهاني

في كتابه (محاضرات الأدباء) ج 1 ص 378.

المقدمة

أقامت بلدية القبة والجمعية الخيرية -مشكورين- حفلاً في أواخر شهر أكتوبر سنة 2003 لتكريم أئمة في المنطقة، وثلاثة من الأساتذة هم صديقنا الأستاذ عبد الرحمن شيبان رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ورفيق العمر الشيخ محمد نسيب، وصاحب مؤلف هذا الكتاب!

وحينما كنتُ أستمع إلى الكلمات التي كانت تُلقى بهذه المناسبة، مرَّ بذاكرتي شريط سريع لمحت فيه طائفةً من أعلام الفكر الذين كُرموا عبر عقود مضت في مختلف أصقاع الأرض بأنواع مختلفة من التكريم! ثم تركّز فكري في محطات من التكريم متنوعة، هي (أوقع في النفس، وأجدي في عالم الفكر من موضوعات شتى تُلحُّ على السّاحة اليوم، وتفرض نفسها على الفكر والقلم!

وبدأت أفكر في وضع كتاب في هذا الموضوع، ثم قطعني عن هذا التفكير توزيع الجوائز على المكرّمين!

ولكن ما إن انتهى الحفل، وخرجت من قاعة الاحتفال متجها نحو سيارتي، حتى عاودني التفكير في الموضوع بقوة وجدّية، وأخذ الموضوع هذه المرة يتضح في الذهن أكثر، وتتجلي حدوده ومعالمه، كما تتجلي أحداث الأمس وأعمال اليوم، وأخذت النفس تتبسط نحوه وتنشرح، وظلت الدوافع تتقوى وتتزاحم وتُلحُّ، فما إن عدت إلى البيت واستويت على المكتب، حتى أخذت في وضع الخطة، وتصميم الموضوع، وجمع المادة، من مكتبتي الخاصة -وهي ولله الحمد غنية- ولكني مع ذلك لا أستغني عن بعض المراجع التي لا أملكها والتي أخذت في البحث عنها!

وهكذا شرعتُ في العمل -على عاداتي- مستعينا بالله معتمدا على محصلاتي الفكرية، التي تجمعت لي في عقود غابرة من البحث والدّرس والتحصيل!

ولكن ما إن مضت ثلاثة أيام حتى أنشب المرض أظفاره في الصديق الحميم الأستاذ نسيب، وظلّ يصارعه قرابة أسبوع، ثم كانت النهاية، فلفظ روحه وتخلصت من قيدها المادي الغليظ، وصعدت إلى مصدرها الأول، فكان لهذا أثره النفسي العميق على الفكر والقلم والموضوع!

ولم تمضِ إلا أيام قليلة حتى ارتحلت عني رفيقة العمر بعد مرضٍ عضال ظلت تغالبه طوال سنتين، فغامت سماء الحياة بركام من السحائب الجوّ، وتركت فراغا موحشا، وظلاماً معتما، وحزنا عميقا ظلت أياما وليالي أغلب فيها الجزع بالإيمان، ووقع المصاب بالصبر، والفراغ الرهيب بالأنس بالله وتلاوة ذكره!

وكُلّما عدتُ إلى العمل. انقبضت عنه نفسي، وشعرت كأني غريب عنه. قد غام أفقه، وأستعصم، بعد أن كان بمثابة الروح للجسد، ومناط الحياة والأمل، ونبوع نورٍ يبدّد أمامي كل ظلمة!

ولكن الله تعالى رؤوف بعبده، رحيم بهذا الفكر والقلم، فما هي إلا أيام من الحزن والوحشة، والألم والحسرة، وحياة لا يربطها بالعالم الخارجي، الذي يعيشه الناس إلا الليل والنهار، وهذه الشمسُ الساطعة التي تضيء الأرض كلها، بينما لا تستطيع أن تضيء قلبي وأغوار نفسي-فما هي إلا هذه الأيام- حتى بدأت حياتي تنتعش، ورؤيتي تتضح، وقلبي ينشرح، والحقيقة تتجلى، والحياة تتدفق من حولي، وتحرك في الأعماق شهوة العمل، وتمعن في الإثارة والإهابة والتهيج، وتقيم الدليل من نفسها قويا باهرا على أن الحيّ يجب أن يظل حيا، بل يجب أن يكون كالجدول السلسل الرقراق يفيض على جوانبه الردي والخصب والحياة!

ويجب أن يكون شعار الحي: ماذا قدمتُ، لا ماذا أخذت! وهذا لا يكون إلا بالحركة والعمل، وبالحركة والعمل فقط! عندئذ عُدت إلى القلم، إلى هذا الكتاب لأتممه حسب التخطيط له، ورغم المعزّين الذين يتوافدون على البيت يوميًا، فإن العمل قد تواصل بجدّ، لأنهم بمواساتهم وتعاطفهم، وكشفهم عن مصائبهم وبلاياهم في هذه الحياة يهون المصاب، ويخف الألم، وتقوى الإرادة، وتنتصر الحياة على الموت!

وها هو الكتاب بين يديك -قارئ الكريم كما خططنا له وأردناه والحمد لله- رغم ما واجهنا من ظروف قاسية زلزلت حياتنا، وكان لها في الأسرة والأقارب وقع أليم، وصدى عميق.

وإننا إذ نحمد الله الكريم على توفيقه وإعانتته على إتمام هذا العمل، في وقت وجيز، وظروف متميزة، وحال نفسية لا ندّعي أن الألم فيها قد سكت نهائيا، وأن الجرح قد اندمل كليةً، لأن وهيج النار في أعماق النفس، ومثار الشجون بين حنايا الضلوع، نلاحظ أن الحياة ملأى بمتاعب مضنية، ومشاق مرهقة، ومحنٍ وبلايا، فلا ينبغي للإنسان أن يواجهها بالفشل والإحباط والاستسلام، بل عليه أن يوطن نفسه على أن الحياة هكذا: حلاوة ومرارة، ونور وظلام، وعلو وهبوط، وبهذا يُعيد إلى النفس طمأنينتها وإيمانها، ويعيد إليها رغبتها في الحياة فيمضي بقوة لا يشييه عن هدفه شيء!

ولولا هذا ما تمّ هذا الكتاب ولا رأى النور في أمد قصير! على أنه لا بدّ من إعادة هذه الملاحظة التي سبق أن أبديناها في هذا الكتاب، وهي أن التكريم تقليد قديم معروف شائع في العالمين: العربي

والغربي، منوع من حيث أسبابه، وظروفه، وأهدافه، وأنواعه، ومن هنا فإنه متشعب المناحي، لا تفي به إلا مجلدات ضخام وما عمَلْنَا هذا إلا لبنة في الصرح، وشمعة على الطريق، وبذرة في الأرض! وإذا كان الفضل للمتقدم فإنه أيضا للمتأخر الذي يضيف، واللاحق الذي يتم!

والله تعالى قد وعد بالأجر الجزيل للعاملين الذين يحملون الأمانة بالصدق، ويبلغون الرسالة وافية غير منقوصة! سدّد الله خطانا، وهدانا إلى أقوم طريق، وغلبنا على بلايا الأيام، وخطوب الدهر، إنه سميع مجيب.

محمد الصالح

القبة 1 ذي القعدة 1424هـ

25 جانفي 2004م

التكريم : معناه ومغزاه

معنى التكريم ومغزاه:

(كُرم): معناه: عَظُم، وشُرُف، وفضل.

ويتعدى إلى المفعول به بالهمزة أو التضعيف، فيقال: محمد أَكْرَمَ عمراً، ومحمد كَرَّمَ عمراً.

وقد ورد متعدياً بالهمزة أربع مرات في ثلاث آيات من القرآن الكريم، هي هذه:

في قوله تعالى من سورة يوسف: «وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لَامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ» (يوسف 21).

وفي قوله تعالى من سورة الفجر: «فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ» (الفجر 15).

وفي قوله تعالى من نفس السورة: «كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ» (الفجر 17).
وورد متعدياً بالتضعيف مرتين في آيتين اثنتين: في قوله تعالى من سورة الإسراء: «قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلِيَّ» (الإسراء 62)، وفي قوله تعالى من نفس السورة: «وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ» (الإسراء 70).

والإكرام أو التكريم: أن تفضل إنساناً وتشرفه بإيصاله بشيء لا تلحقه فيه غضاضة، وقد شاع في مختلف العصور والبلدان تكريم العلماء والأدباء والأبطال وأصحاب المواقف التاريخية المتميزة بشيء يشعرون معه بالتقدير والاحترام والوفاء لهم.

والتكريم نوعان: تكريم الأحياء، وتكريم الأموات، فتكريم الأموات يكون بالتذكير في تأبينهم بتاريخ حياتهم، وبأعمالهم، وخصالهم الحميدة، وأخلاقهم الكريمة، وسجاياهم الطيبة، حتى يقتدي الناس به وينتهجوا سبيله!

وأما تكريم الأحياء - وهو الذي يهمننا بالدرجة الأولى - فإنه يكون بطرق ووسائل مختلفة، والهدف منه الاعتراف بمقام المكرم ومكانته، والوفاء له، وتقدير مواهبه وآثاره، والتشجيع على المضي في الطريق، وحفز همم الأجيال الصاعدة للاقتداء به!

ويغلب على كل حفل ينظم للتكريم طابع علمي ووطني وأخلاقي، فالطابع العلمي يتجلى من خلال إبراز الجانب العلمي في الشخصية ومواهبها الفكرية، ومحصولها العلمي والثقافي، والطابع الوطني يتجلى من خلال التعريف بدور الشخصية في المجال الوطني من جهاد، ونضال، وتضحية، ورؤية سديدة واضحة، وغيره وطنية صادقة، أما الطابع الأخلاقي فيبرز في أن الذين يتبنون فكرة التكريم ويقومون بها إنما يريدون أن يوفوا للرجل، ويعترفوا له بالفضل، وأن يقدموا في ذلك شهادة يوثقها جمهور من هؤلاء الأوفياء، وتظل على لسان التاريخ تعكس هذا الوفاء، وتدعو الأجيال الوافدة على هذال الوجود إلى الوفاء لرجالهم، رموز النضال والعطاء والتضحية!

وهذه المنافسة التي تتجم عن تكريم الأوفياء العاملين وتترتب عليه، خلق نبيل، وفضيلة من فضائل الإسلام العظيم، وجزء من الهدى النبوي، عليه الصلاة والسلام.

وإذا كان الكثير من الناس يتنافسون في حطام هذه الدنيا وحقائرها، ويتجشمون في ذلك متاعب ومشاق مضنية، فإن النبلاء العقلاء يترفعون عن ذلك، ويتنافسون في عظام الأمور، من العلم والمعرفة، والجهاد من أجل الحرية، والنضال في سبيل ما يبقى على ما يفنى!

وعادة التكريم سنة قديمة متأصلة في نفوس العرب بالخصوص، وإذا كان تتبعها في مختلف مراحل التاريخ، ومختلف البلدان أيضا أمراً يتقاضانا مجلدا ضخما، فلا أقل في هذا العمل الوجيز من أن نتحدث عنها بإيجاز واقتضاب في العصر الجاهلي، وعصر الإسلام والعصر الحاضر:

التكريم في الجاهلية

- أسواق للتنافس في الشعر
- من التكريم في الجاهلية اختيار المعلقات
- من التكريم في الجاهلية مسح وجه الفرس والفرس

التكريم في الجاهلية:

الذي لا شك فيه هو أن العرب كانوا أقدر على البيان من غيرهم، وأنهم كانوا في مستوى مرموق من الفهم، والذكاء، وإصابة الحدس، وحدة الألمعية، وصدق الفراسة، وكان لشعرائهم مقدرة فائقة على قول الشعر، لاتساع لغتهم للقول، وملاءمة بيئتهم للخيال، وصفاء قريحتهم، وسذاجة معيشتهم وقوة عصبيتهم!

يقول أحمد أمين في كتابه «فجر الإسلام»⁽¹⁾: إن الشعراء كانوا من أرقى الطبقات عقلا بدليل ما صدر عنهم من شعر، وبدليل أحاديث مبعثرة نراها تدل على اعتداد الشعراء بأنفسهم من ناحية الرقي العقلي، كالذي جاء في سيرة ابن هشام: «إن الطفيل الدوسي قدم مكة ورسول الله بها، فحذره رجال من قريش من سماع النبي حتى لا يتأثر بقوله! قال الطفيلي: فما زالوا بي حتى أجمعت ألا أسمع منه شيئا، ثم قلت في نفسي: واثكل أمي! والله إنني لرجل لبيب شاعر، ما يخفى عليّ الحسن من القبيح، فما يمنعني من أن أسمع من هذا الرجل ما يقول؟ فإن كان الذي يأتي به حسنا قبلته وإن كان قبيحا تركته».

وقديما قالوا: «إن الشعر ديوان العرب» ويعني هذا أن الشعر سجل أخلاقهم وطباعهم، وعاداتهم وسلوكاتهم، ودياناتهم وعقليتهم، ومن هنا كان للشعر وزن كبير عندهم، كما أن للشاعر مكانة مرموقة بل متميزة في

(1) ص: 56.

تصوير جوانب الحياة، وأحداثها وألوانها، فهو الناطق بآمال قبيلته وآلامها، والمخلد لمفاخرها ومآثرها، والناضح عنها يوم حفلهم، فكانت قبيلة إذا نبغ فيها شاعر صنعت الولائم، وأقامت الأفراح، وجاءتها تهاني القبائل المختلفة.

قال ابن رشيق في كتابه «العمدة»:

«كانت القبيلة من العرب إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها؛ وصنعت الأطعمة، واجتمعت النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعن في الأعراس، ويتباشر الرجال والولدان، لأنه حماية لأعراضهم، وذب عن أحسابهم، وتخليد لمآثرهم، وإشادة بذكرهم».

ومن أجل هذه المكانة للشاعر كان الناس يتسابقون إلى إكرام الشعراء اتقاء لذمهم، أو رغبة في مدحهم، وفي التاريخ قصص كثيرة عن قبائل وأفراد خملت بهجاء الشعراء لها، وآخرين نبهوا بإشادة الشعراء بذكرهم. ومن هنا كان الفخر والاعتزاز بالشعر، وكان مثار التنافس بين الشعراء، ومطمح أنظارهم، ومهوى قلوبهم، يتبارون فيه ويتفاخرون به، ويقدرون من برز بينهم فيه، ويجلونه ويعترفون له بالفضل.

أسواق للتنافس في الشعر

وكانت للعرب أسواق كثيرة يقيمونها خلال السنة وينتقلون من بعضها إلى بعض، ويحضرها سائر العرب بما عندهم من المآثر والمفاخر وهي: «دومة الجندل» و «سوق هجر» و «سوق المشقر» و «سوق عدن ابين» و «سوق صنعاء» و «سوق حزموت» و «سوق ذي المجاز» و «سوق مجنة» و «سوق حباشة» و «سوق عكاظ».

وغايتهم عرض ما لديهم من بضائع، وشراء ما يحتاجون إليه، وتحدث فيها مصالحات ومعاهدات واحتفالات.

وكان من أشهر هذه الأسواق: ذو المجاز، ومجنة، وعكاظ. وكان الشعراء يحضرونها بأجود ما تفجرت به ينابيع شعرهم فيتبارون به، ويتنافسون، ويعرض كل واحد ما عنده على حكم يختارونه من بينهم، وقد شغل هذا المنصب النابغة الذبياني مدة من الزمن!

إلا أن عكاظ أشهر هذه الأسواق على الإطلاق في الجاهلية وأعظمها، اتخذت سوقا بعد عام الفيل بخمس عشرة سنة إلى سنة ٥٤٠م ثم بقيت في الإسلام إلى أن نهبها الخوارج الحرورية حين خرجوا بمكة مع المختار ابن عوف سنة 129هـ.

وقد شاهدت هذه الأسواق بالخصوص منافسات شعرية في أبعد حدودها، وعلى أشد ما يكون التنافس، وشاهدت قرائح الشعراء وهي تجود بروائع الشعر وحوالده، وشاهدت نقدة القريض وهم يسلطون أشعة النقد على كل كلمة، وكل تعبير، وكل معنى، وكل إشار، بلا تميز أو محاباة أو مواربة.

«ولد كان لهذه السوق العظيمة وغيرها من أسواق العرب تأثير كبير في تهذيب اللغة، فإن كل شاعر وخطيب كان يفضي بأحسن ما فتح به الله عليه من المعاني العالية، في العبارات الجزلة المنتحلة فيتلقفها السامعون ويدخلونها إلى كلامهم ويلفظون ما سواها من وحشي الكلمات ومتنافر التراكيب، وفي ذلك من أثر التهذيب اللغوي ما لا يستهان به، وكانت قريش لقربها من تلك السوق أسبق القبائل للتقاط كل معنى حسن، ولفظ جزل، وعبارة شاردة، فنسب إليها التهذيب الأخير للغة العربية،

واستأهلت الشرف العظيم بنزول القرآن الكريم بلغتها واعتبرت لهجتها
أخلص لهجات العرب من التعقيد والتنافر»⁽¹⁾.

وإذا برز شاعر بين الشعراء ونالت قصيدته الإعجاب والتقدير،
اعترفوا له بالنبوغ وكرموا، وكيفية التكريم عندهم أن تضرب قبة تكريما
له كما فعلوا بالنابغة الذبياني الذي سمي أشعر العرب فجلس في القبة
وجاءته الشعراء، كما جاءه حسان مثلاً، وعرضوا عليه أنفس أشعارهم،
وقام الحارث بن حلزة يتبختر بين الجموع تبختر الجاهلية وقال:

آذنتنا بينها أسماء ربّ ثاوٍ يمل منه الشواء
بعد عهد لنا ببرقة شما ء فأنى ديارها الخلصاء

من التكريم في الجاهلية اختيار المعلقة

ومن التكريم - في نظرنا - اختيار العرب قصائد لفحول من شعرائهم
بلغوا عندهم قمة الإجادة، وذروة الإبداع، فذهبوها على الحرير،
وعلقوها على أستار الكعبة تشريفاً لها، وتعظيماً لمقامها، واعترافاً
لأهلها بالمقدرة الشعرية حتى صاروا يترنمون بها في نواديهم
ومجالسهم، وهي القصائد المعروفة باسم «المعلقة».

واختلف أصحاب الأخبار في شأن هذه المعلقة فقال بعضهم: إن
العرب قد بلغ من تعظيمهم إياها أنهم علقوها على أستار الكعبة - كما قدمنا
- وأنكر ذلك بعضهم وأكبره، وأقدم من أنكره، أبو جعفر النحاس النحوي!
وأكثر أهل العلم يذهبون إلى أنها علقت في الكعبة. قال ابن عبد ربه
(وكان معاصراً لابن النحاس وتوفي قبله سنة 328هـ): «وقد بلغ من كلف

(1) دائرة معارف القرن العشرين للأستاذ فريد وجدي.

العرب به - بالشعر - وتفضيلها له أن عمدت إلى سبع قصائد من الشعر القديم فكتبتها بماء الذهب في القباطي المدرجة، وعلقتها بأستار الكعبة، فمنه ما يقال له «مذهبة امرئ القيس» و «مذهبة زهير» والمذهبات سبع ويقال لها «المعلقات».

وأيد أخبار تعليقها في الكعبة كثير من رجال العلم في أعصر مختلفة، منهم، ابن رشيقي، صاحب العمدة، وهو من كبار نقدة الشعر، وابن خلدون المؤرخ الشهير (انظر رجال المعلقات العشر للشيخ مصطفى الغلاييني). ومنهم من ذهب إلى أنها سميت بالمعلقات لأنها جديرة بأن تعلق في الذهن لجمالها، أو لأنها كالسموط تعلق في الجيد، وهناك آراء كثيرة لا تغني في شيء!

والخلاف في أن هذه القصائد علقت بأستار الكعبة أو لم تعلق، وفي أن الشعر الجاهلي الذي بين أيدينا هل هو مدون أم غير مدون. كل ذلك مبسط في مظانه كالمفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام للدكتور جواد علي، والفهرست لابن النديم، والعمدة لابن رشيقي.

والذي يعنيننا نحن في هذا العمل الوجيز هو أن الشعراء في الجاهلية كانوا يكرمون من نبغ فيهم.

وإذا ثبت أن المعلقات قد علقت بأستار الكعبة تقديرا لأصحابها فهذا تكريم لهم.

أما عدد أصحاب المعلقات وعددها فقد اختلف فيه الرواة، فمنهم من يرى أنها سبع وأصحابها هم هؤلاء: امرؤ القيس، وطرفة بن العبد، وزهير بن أبي سلمى، ولييد بن ربيعة، وعمرو بن كلثوم، وعنترة بن شداد، والحارث بن حلزة اليشكري.

ومنهم من رأى أنها ثمانية وهؤلاء يضيفون إلى أصحابها النابغة
الذبياني، وبعضهم يرى أنها عشرة ويضيف إليهم: الأعشى ميمونا،
وعبيد بن الأبرص!

وأما أشعر هؤلاء فمثار خلاف وجدل بين أهل الأدب أيضا، على أنهم
كادوا يتفقون جميعا على أن شعراء المعلقات أشعر شعراء الجاهلية، ثم
ذكروا أن أشعر هؤلاء ثلاثة هم : امرؤ القيس، وزهير بن أبي سلمى،
والنابغة الذبياني. قال أبو عبيدة:

«أشعر الناس أهل الوبر خاصة، وهم امرؤ القيس وزهير، والنابغة،
وفي الطبقة الثانية: الأعشى، وليد وطرفة».

واختلفوا فيمن هو أشعرهم جميعا، فقال الفرزدق: امرؤ القيس أشعر
الناس! وقال جرير: النابغة أشعر الناس، وقال ابن مقبل: طرفة أشعر
الناس! وقال ابن أحمد: زهير أشعر الناس! وقال الكميث: عمرو ابن
كلثوم أشعر الناس! وقال ذو الرمة : لبيد أشعر الناس! وقال الأخطل:
الأعشى أشعر الناس!

والراجح أن هؤلاء جميعا نبغاء الشعر في الجاهلية، ولكن أشعرهم
امرؤ القيس، ثم زهير، والنابغة، والأعشى، وليد، وعمرو بن كلثوم، وطرفة.
وهناك مقولة مشهورة يتداولها أهل الأدب وهي قولهم: «أشعر الشعراء
أربعة، زهير إذا طرب، والنابغة إذا رهب، والأعشى إذا غضب، وعنترة إذا
كلب (أي غضب).

وكل هؤلاء موضع التكريم والتقدير عند عامة أهل الأدب لنبوغهم
الشعري!

من التكريم في الجاهلية مسح وجه الفرس

ولا بأس أن نستطرد بكلمة مختصرة عن نوع آخر من التكريم في الجاهلية، وهو مسح وجه الفرس السابق ومسح وجه فارسه، رغبة في إفادة القارئ الكريم.

قال صاحب «شفاء الغليل»: إنهم كانوا يمسحون وجه السابق من خيول الحلبة تكريما، وربما مسحوا وجه فارسه.

ولقد صارت جملة «مسح الوجه» مرادفة لكلمة تكريم لأنهم تجاوزوا بالمعنى الأصلي عن كونه كريما في حلبة المجد مبرزاً على أقرانه حائزاً قصبات السبق في ميدان المكارم، ومضمار الكمال كما قال جرير:

إذا شئتم أن تمسحوا وجه سابق

جواد فمدوا في الرهان عنانيا

وقال ابن عبد ربه:

وإذا جياذ الشعر طاولها المدى

وتقطعت في شأوها المبهور

خلوا عناني في الرهان أو امسحوا

عني بغرة أبلق مشهور

التكريم في الإسلام

- تمهيد
- خير الدنيا وخير الآخرة منوطان بالعمل
- العمل مناط الحكم، وموضع التقدير
- الجزاء على قدر العمل
- صور من التكريم في الإسلام

التكريم في الإسلام

تمهيد:

نلاحظ في البداية أن الإسلام يدعو إلى العمل الصالح البناء، ويحث على المنافسة فيه، ويشجع على ذلك، ويميز بين العامل المجد النشط الذي يبذل الجهد في عمله ويحرص على إتقانه، وبين الكسول الخامل الذي يتوانى عن عمله، وإذا باشره مارسه في فتور وخمول، وإذا أداه كان عمله مثالا للرداءة والفساد!

وكل مجتمع كثر فيه العاملون المجدون الذين يحبون عملهم، ويخلصون له، ويتقنونه، ساد الرخاء وعاش في رغد من العيش، وأمن من الخوف والجوع!

وأي مجتمع يسوى بين العاملين المجددين، والكسالى الخاملين، لهو - بلا شك- مجتمع يعمل ضد نفسه وضد الكفاية، والإنتاج، وضد المصلحة والإنتاج!

خير الدنيا وخير الآخرة منوطان بالعمل الصالح:

وفي القرآن الكريم والسنة النبوية آيات وأحاديث تقرر هذه السنة الاجتماعية الدينية، الخلقية، تقديرا واضحا جليا، ولكننا نقتصر على آيتين قصيرتين في اللفظ ولكنهما كبيرتان عميقتان في الدلالة والإحاطة: إحداهما قول الله تعالى: «وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون، وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون» (التوبة 105).

تقرر الآية الكريمة أن خير الدنيا وخير الآخرة منوطان بالعمل، فلا شرف للإنسان، ولا وجود له في هذه الحياة، ولا حياة له إلا بالعمل، ولا سعادة له في الآخرة إلا بالعمل، فالعمل قوام الحياتين!

فمن تتبع القرآن الكريم وجدّه يعنى بالغ العناية بالعمل ويقرنه دائما بالإيمان، لأن الإيمان مقدمة والعمل نتيجة، فإذا لم يثمر الإيمان العمل فليس بإيمان، ولا قيمة للإيمان إذا لم يترجمه العمل إلى واقع الحياة، فكل ما يشاهد على وجه الأرض من بنايات، ومصانع، وجسور، وطرق، وسكك حديدية، وآلات، وكتب، كانت أفكارا ثم ترجمها العمل إلى الواقع، وكل الحضارات الإنسانية التي مرت بهذه الأرض والتي يعيشها الإنسان في هذا العصر كانت آراء ثم أخرجها العمل إلى حيز الوجود!

والآية تقرر أيضا أن كل عمل يقوم به الإنسان سواء كان خيرا أو شرا فالله تعالى يراه ولا يخفى عليه، ومن ثم وجب أن يراقبه في عمله، ويتذكر دائما أن الله ينظر إليه، ومن هنا وجب أن يخلص فيه ويتقنه، ويكون عمله في الخلوة كما يكون في الجلوة!

ومما تفيده الآية الكريمة أن كل عمل يقوم به الإنسان يراه الرسول والمؤمنون يوم القيامة، حيث تعرض الأعمال وتبلى السرائر، ويحصل ما في الصدور ليوزن كل عمل بميزان الإيمان المتميز بين الإخلاص والنفاق، قال تعالى: «ويومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية» (الحاقة 18).

وفي المنار: «فإذا كانت الخلائق النفسية، والأعمال السرية لا تخفى على الناس مهما يكن من محاولة صاحبها لإخفائها فماذا يقال في الأعمال التي هي مقتضى العقائد والأخلاق، وما انطبعت عليه النفوس من الملكات، ومرنت عليه من العادات؟

نرى المؤمنين الصادقين يخفون بعض أعمال البر التي يستحب إخفاؤها كالصدقة على الفقير المتعفف سترا عليه، ومبالغة في الإخلاص لله تعالى الذي ينافيه الرياء وحب السمعة، ولكنهم لا يلبثون أن يشتهروا بها، ونرى بعض المنافقين يخفون بعض أعمال النفاق خوفا من الناس لا من الله ولكنهم لا يلبثون أن يفتضحوا بها».

وأخرج أحمد وابن أبي الدنيا في الإخلاص عن أبي سعيد عن رسول الله ﷺ قال:

«لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة لأخرج الله عمله للناس كائنا ما كان».

العمل مناط الحكم، وموضع التقدير؛

وإذا كانت الآية الكريمة تقرر أن حقيقة النوايا ومخبوءات الصدور تتكشف بالعمل. ففي ضوء ذلك يلاحظ أن العمل هو مناط الحكم وموضع التقدير، ودليل إيجابية الإنسان ومحدد قيمته ومركزه في الحياة وعلى حسبه يكون (تقييمه) وتقديره وتكريمه!

وقد اشتبه هذا الذي ذكرناه على أحد المعلمين مع قوله تعالى: «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا» (الحجرات) فرأى أن الله تعالى قد قرر مبدأ المساواة في هذه الآية فلا فرق بين الناس جميعا على اختلاف أجناسهم وألوانهم وألسنتهم، ولكني بينت للمعترض الكريم، أن الله تعالى سوى بين الناس جميعا في أصل الخلقة، ووحدة الربوبية، واستواء الناس أمامها، وهذه التسوية لا تعني أبدا إلغاء الفوارق المترتبة على الصفات والمواهب والأخلاق والأعمال الصالحة، فإن إلغاء هذه الفوارق يكون تنكرا لقانون طبيعي فطري، فإن هناك فرقا واضحا بين عالم وعالم وكاتب وكاتب، وصانع وصانع، وزارع

وزارع، ومن هنا كان العمل هو ميزان التفاضل بين الناس مع قيام المساواة العامة بينهم، وعلى حسب ذلك يكون التقدير ويكون التكريم.

ومن أجل هذا جاء بعد تقرير المساواة مباشرة ما يرفع هذا الإلتباس أو الاشتباه وهو قوله تعالى: «إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ» (الحجرات). ويقول الرسول ﷺ: «لا فضل لعربي على عجمي، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى وعمل صالح».

ويعلق المرحوم العلامة الشيخ محمد محمد المدني على هذه الآية وهذا الحديث ويقول:

«والتقوى ليست كما يتصور كثير من الناس أنها المظهر الديني أو الروحي في المحافظة على الصلوات والعبادات والمناسك ولو مع القعود عن العمل، وإيثار الكسل، وارتكاب سوء والإيذاء، وإنما التقوى هي طاعة الله فيما أمر به أو نهى عنه، وذلك معنى لا يتجزأ ولا يكون في العبادات دون المعاملات ولا في المعاملات دون العبادات، ولا في المسجد دون المنزل، أو الشارع أو المصنع أو الجامعة أو المدرسة أو الوظيفة، إنه في ذلك كله فبمقدار ما يحقق المرء منه تكون له الكرامة عند الله، والتفاضل إنما هو على أساس نسبي لا على أساس نسبي⁽¹⁾.

وجماع القول أنه لا يمكن أن يتساوى المجدُّ في عمله، والمفرط المهمل فيه، ولا يمكن أن يتساوى المخلص المثابر مع صاحب النية السيئة أو اليائس المنكمش، وعلى هذا الأساس يكون التقدير والتكريم لذوي الجد والنشاط والإخلاص الذين يشرفون أممهم وأوطانهم، ويمكن أن يكونوا قدوة لغيرهم!

(1) منبر الإسلام.

الجزاء على قدر العمل:

أما الآية الثانية فهي قوله تعالى: «ولكل درجات مما عملوا، ولنوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون»⁽¹⁾، وهذه أيضا تقرر تلك السنة الاجتماعية الدينية الخلقية وهي أن الجزاء على قدر العمل، فلكل عامل في أي مجال من مجالات الحياة درجته، فعلى قدر نشاطه واجتهاده وإتقانه للعمل تكون درجته، ويكون تقديره وتكريمه، وبهذا التمييز للمجد على الكسول، وللمخلص على غير المخلص، والمثمر على غير المثمر يكون التمييز بين المواهب والكفاءات!

وليس هذا فقط بل هناك رقابة لا يغيب عنها شيء من جهود العاملين، وإخلاص المخلصين، إنها الرقابة الإلهية الدائمة التي في نظرها وتقديرها كل حركة وكل سكون وكل كبيرة وصغيرة، فإذا همش من يستحق التكريم ونسيه أو تناساه أهل الأرض فهناك رقابة الله حاضرة وافية وهناك من يكرم ويجازي الذي لا يضيع عنده شيء، قال الله تعالى: «إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا»⁽²⁾. وقال: «إني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضهم من بعض»⁽³⁾. وقال: «ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما»⁽⁴⁾. وقال: «من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون»⁽⁵⁾.

هذا هو الإطار الذي رسمه الإسلام للعاملين المجددين، وهو إطار يكفل للفرد والمجتمع الطموح إلى العلا، ويضمن التنافس في الاجتهاد والتضحية.

(2) الكهف الآية 30.

(4) طه الآية 112.

(1) الأحقاف الآية 19.

(3) آل عمران الآية 195.

(5) النحل الآية 97.

والأمة العربية الإسلامية إنما يعظم قدرها ويعلو شرفها - والأمة الجزائرية - جزء منها - يوم تعرف قدر أبنائها العاملين المجدين الذي يعملون بلا صخب أو دعاية أو تهريج فتبوءهم مكانتهم، وتقدرهم وتكرمهم، وتعرف أنهم معيار رقيها وتقدمها، وأوسمة شرفها!

أما أن يكون التقدير والتكريم لاعتبارات ومفاهيم لا تمت بصلة إلى قيمة الإنسان الذاتية وآثاره وأعماله، فهذا يحط من قيمتها ولا يدل إلا على قصر في النظر، وسوء في التصرف.

صور من التكريم في الإسلام

أدرك المسلمون من دينهم ومن واقع الحياة والتجربة أهمية التكريم وما ينجر للفرد والمجتمع من فوائد، وراء التشجيع كأسلوب من أساليب الدعوة إلى العمل والتنافس فيه، فكانوا يحتفلون بالمجدين المجيدين، ويكرمونه ولم يكن احتفاؤهم وتكريمهم مقصورا على الشعراء والأدباء فقط، بل تجاوزه إلى العلماء والفضلاء، فكانوا يقيمون الاحتفالات الحافلة لتكريمهم في حياتهم وتأبينهم بعد موتهم، وتغالوا في ذلك حتى كانوا يقيمون الحفلات عند الانتهاء من درس⁽¹⁾ وختم الكتب الهامة التي كانوا يدرسونها في معاهدهم الدينية والعلمية، وكانوا يحتفلون بالمتعلم إذا ختم القرآن الكريم أو انتهى من درس كتاب هام في الحديث أو الفقه كصحيح الإمام البخاري، أو صحيح الإمام مسلم، أو الموطأ للإمام مالك، ونحو ذلك من الكتب المعتبرة، يحتفلون به احتفالا شائقا يحضره كثير من رجال العلم والأدب والأعيان، فتلقى فيه الخطب والقصائد الشعرية، وتكون فيه المذاكرة.

(1) الهلال، ج 4 س 27 يناير 1919.

وفي كتب التاريخ حفلات التكريم التي أقيمت لهذه الأغراض، وقد حفظ لنا ما لا يحصى من الخطب والقصائد التي قيلت فيها، بل إن كتب الفقه قد أثبتت وجود هذه العادة الحميدة سواء بالنسبة إلى الأموات فتسمى «تأبيننا» تذكر فيه محاسن الميت ومآثره، أو بالنسبة إلى الأحياء فيسمى احتفاء وتكريما، وإن كان الفقهاء قد عدوا تأبين الميت من البدع واستدلوا على ذلك بما روي من الآثار المعروفة في كتب السنة.

وتكريم الأحياء - وهو الذي يعنينا هنا - كان شائعا في الإسلام شيوعا ذائعا، لتقدير المسلمين للعلم وإجلالهم لأهله، ولعلمهم أن التكريم يحفز الهمم إلى طلب العلم، ويدفع إلى الأمام في طريق تحصيله ونشره والعمل به.

فكانوا يتحينون الفرص والمناسبات للاحتفاء بمن يحوز السبق في ميدان العلم والمعرفة. أو ينجز عملا فكريا هاما. فمن ذلك الاحتفال بالعلامة ابن حجر عند فراغه من تأليف كتابه «فتح الباري في شرح البخاري» فقد احتفل به احتفالا عظيما رددت ذكره الأمصار البعيدة والقريبة وظل وسيظل أنشودة على لسان الزمان، وحضره من العلماء وأفاضل الأدباء، وأهل الفكر، ورجال الخطابة جم غفير، وكان الذين حفظ التاريخ أسماءهم من هؤلاء الأعلام ينيف عددهم على ثمانين. أما علماء الطبقة الثانية وغيرهم من الأدباء والوجهاء وما دونهم فلا يحصيهم العد. وقد أقيمت خطب وقصائد شعرية في هذا الحفل للتتويه بفضل المحتفل به. فمن ذلك قصيدة للشهاب المنوفي مطلعها:

تمنعت بدموع الصب في حجب
فانظر لشمس الضحى في حلة السحب

ومنها:

شرحت صدر البخاري مثل جامعه
فراح ينشد هذا منتهى الطلب
هذا وحقك عام الفتح حج به
ليت فضلك وفد العلم عن رغب
ومن ذلك أيضا قصيدة الصلاح الأسيوطي التي جاء فيها:
كم للبخاري من شرح وليس كما
قد جاء شرحك في فضل وتتميم
وقصيدة العالم المفسر البرهان البقاعي:
بابي الخدود نواضرا حسناتها
كنواضر الغزلان في الدينار
قصدت يكون المسك حسن ختامها
فتعلمت من ختم فتح الباري

وممن شاركوا في الحفل بالقصائد الشعرية هؤلاء العلماء الأجلاء
الذين لهم شهرتهم العلمية الواسعة أمثال: شمس الدين الدجوي،
والخطيب برهان الدين المليحي، ومحّب الدين البكري، وشرف الدين
الطنوبي وشمس الدين النواجي⁽¹⁾.

وجاء في مقال للأستاذ عبد الفتاح عبادة نشره في مجلة «الهِلال»⁽²⁾
تناول فيه عادة التكريم في العالم العربي قديما وحديثا:

(1) ذكر بعضها المقتبس (س 1، ص 344).

(2) ج 4، س 27 يناير 1919.

ولما فرق مؤلفه- المحتفل به - صرر فضة ومجامع حلوى
أنشد الدجوي:

بفتح الباري انشرح البخاري
وأحمد ختمه بالفضل جامع
ادار دراهما صررا فأنشى
وحلوى فيه تأخذ بالمجامع

ومن حفلات التكريم في الإسلام ما أتى به الجبرتي في تاريخه من
الاحتفال بتكريم اللغوي الشهير السيد مرتضى الزبيدي بعد أن أكمل
قاموسه «تاج العروس» سنة 1188 وذلك بإقامة حفل بهيج حضره علماء
ذلك العصر وكبار أدبائه، منهم هؤلاء الأعلام: الشيخ علي الصعيدي،
والدردير، والعيدروس، والأجهوري، والأمير الكبير، وعبادة العدوي، وأبو
الأنوار السادات وغيرهم كثير كما بسطه وفصله الجبرتي.

وفي سنة 300هـ - 912م احتفل أبو القاسم بن الوزير الخاقاني بدخول
ابنه الكتاب، فدعا من القواد والرؤساء جماعة بلغوا ثلاثين نفسا، وأمر
الداعي بإعطاء المعلم ألف دينار، وأكرم الناس وأكلوا. وكان يلزم
المأمون في الكتاب غلام لمعلمه فكان إذا احتاج المأمون إلى محو لوحه
بادر إليه، فأخذ اللوح من يده وغلب على غلمان المأمون فمسحه وجاء به
فوضعه على المنديل في حجره⁽¹⁾.

ولا يخفى ما في هذا من تقدير العلم وتعظيم شأنه.

(1) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، تأليف آدم متز، ج1، ص347 نقلا عن كتاب
العيون والحدائق، مخطوط برلين، ص79.

وأمثلة التكريم في عصور الحضارة الإسلامية كثيرة لا تحصى،
وهدفنا أن نقدم عينات تعكس اهتمام العرب بالعلم والعلماء.
وإذا كانت طرق التكريم وأساليبها ونظمها تختلف من عصر إلى
عصر، ومن قطر إلى قطر، فإن الهدف واحد هو تقدير أهل العلم والأدب
والاعتراف بفضلهم وخدماتهم!

التكريم في العصر الحديث

- تمهيد

- التكريم في المشرق العربي

- تكريم سليمان البستاني
- تكريم حافظ إبراهيم
- تكريم خليل مطران
- تكريم أحمد فتحي زغلول
- تكريم واصف غالي
- تكريم الشيخ طاهر الجزائري
- تكريم أحمد شوقي
- تكريم الفضيل الورتلاني
- تكريم جمع من أهل العلم والأدب بمصر

التكريم في العصر الحديث

تمهيد:

تتووع أسلوب التكريم في العصر الحاضر، وشاع وذاع وأصبح عادة تتنافس فيها الجمعيات والمنظمات المختلفة بالخصوص، فهناك التكريم بإقامة حفل يحضره غالبا العلماء والأدباء والأعيان وعامة الناس، إذا كان المحتفل به عالما أو أدبيا، ويحضره رؤساء الأحزاب والمنظمات ورجال السياسة إذا كان المحتفل به سياسيا أو رجل حرب!

وهناك التكريم بإقامة التماثيل، أو بمنح الجوائز الأدبية، وهناك وسائل أخرى كثيرة يعبر بها عن التقدير والتكريم.

وسنتحدث في هذا الموضوع عن التكريم في المشرق العربي والمغرب العربي، أي في مصر وسوريا وتونس، والجزائر والمغرب، أولهما: لوجود المراجع، وإن كانت قليلة، ثانيهما: لأن غرضنا أن نقدم للقارئ الكريم عينات من هنا وهناك، ولأن توسيع النطاق يخرج بهذا العمل عن التخطيط له، والتسهيل في طبعه، لأن دور النشر - مع الأسف - تزهد في الكتب المطولة!

التكريم في المشرق العربي

■ تكريم سليمان البستاني

من حفلات التكريم الشهيرة حفلة سليمان البستاني عند ظهور ترجمته الشعرية لإلياذة هوميروس عقدت في فندق شبرد سنة 1904م حضرها جمهور غفير من أهل العلم والأدب، وألقيت خطب وقصائد في التتويه بالمحتفل به .

• لمحات من حياته:

إنه كاتب، وشاعر، وسياسي، ولد في "بكشتين" ببلدان سنة 1856، ودرس ببيروت، ورحل إلى العراق ومصر والأستانة. تولى مناصب كبيرة في الدولة العثمانية وأقام في سويسرا في أثناء الحرب العالمية الأولى، وبعد انتهائها قدم إلى مصر، ثم سافر إلى أمريكا فمات بها سنة 1925 ونقل جثمانه إلى بيروت، وكان يجيد عدة لغات!

■ تكريم حافظ إبراهيم

اشترك جمع من فضلاء السوريين وعلمائهم وأدبائهم في تكريم شاعر النيل حافظ إبراهيم اعترافا بما في شعره ونثره من حسن الظن بالسوريين، فأقاموا له حفلا كبيرا بهيجا بفندق «شبرد» مساء يوم 24 مارس سنة 1908 وكان الذي اقترح فكرة التكريم الأديب سركيس، وأراد بذلك التقريب بين المصريين والسوريين، وقد صرح بهذا في دعوته حيث قال:

«إن الغرض الأصلي من هذا الاحتفال إكرام الأمة المصرية جميعها في شخص شاعرها وأحد أبنائها وإزالة ما علو مض الأذهان من سوء التفاهم».

وكان الحفل شائقا بهيجا حضره علماء وأدباء وطلبة، والأعيان والوجهاء، وألقيت خطب وقصائد كلها ترمي إلى توطيد عرى المودة بين مصر وسوريا، وكان من الخطباء والشعراء: سليمان البستاني، ونقولا رزق الله، وسليم بك باخوس، والأمير شكيب أرسلان، وإسماعيل عاصم، واميل أفندي البستاني، ورفيق العظم، والدكتور شدودي، وغيرهم كثير! وفي أثناء ذلك قدموا لحافظ قلما ريشته من ذهب ودواة من فضة جميلة الصنع، وأخيرا انبرى حافظ وأنشد قصيدة نظمها لهذا الاحتفال نثت منها بعضها:

• لقطات من قصيدة المحتفى به:

يقول رحمه الله:

لمصر أم لربوع الشام تنتسب
هنا العلى وهناك المجد والحسب
ركنان للشرق لازالت ربوعهما
قلب الهلال عليها خافق يجب
خدران (للضاد) لم تهتك ستورهما
ولا تحول عن مغناهما الأدب
أم اللغات غداة الفخر أمهما
وإن سألت عن الأباء فالعرب

ومنها:

إذا ألمّت بواد النيل نازلة
باتت لها راسيات الشام تضطرب
وإن دعى في ثرى الأهرام ذو ألم
أجابه في ذرى لبنان منتحب
لو أخلص النيل والأردن ودّهما
تصافحت منهما الأمواء والعشب
بالوادين يمشي الفخر مشيته
يحف ناحيته الجود والدأب
إلى أن يقول:

ما عابهم أنهم في الأرض قد نشروا
فالشهب منثورة مذ كانت الشهب
ولم يضرهم سراء في مناكبها
فكل حي له في الكون مضطرب
رادوا المناهل في الدنيا ولو وجدوا
إلى المجرة ركبا صاعدا ركبوا
أو قيل في الشمس للراجين منتجع
مدوا لها سببا في الجو وانتدبوا
وختم القصيدة بقوله:

إن يكتبوا لي ذنبا في مودتهم
فإنما الفخر في الذنب الذي كتبوا

• لمحات من حياته:

شاعر عربي مصري يعد من أبرز شعراء النهضة الحديثة، ولد سنة 1871 وتوفي سنة 1932.

تميز شعره بجزالة اللفظ، وإشراق الديباجة، وبتجويد العبارة وتهذيبها، وقد برع في الرثاء، وشكوى الزمان، وكان في كثير من قصائده ضمير الشعب، وصوته المعبر عن آمانيه وتطلعاته. اتصل بكثير من الزعماء في ميادين السياسة والفكر والاجتماع، وخاصة الإمام محمد عبده!

طبع ديوانه في حياته في ثلاثة أجزاء صغيرة (1901 – 1922) ثم طبع بعد وفاته شاملا لكثير من شعره الذي لم ينشر في الطبعة الأولى!

■ تكريم خليل مطران

في أبريل سنة 1913 أقيمت حفلة تكريمية في الجامعة المصرية لتكريم الشاعر خليل مطران بمناسبة الإنعام عليه بالوسام المجيدي الثالث، وحضر الحفل علماء وأدباء وشعراء، وكان شعره ومواهبه وأخلاقه مثار التنويه والإشادة.

• لمحات من حياته:

ولد بمدينة «بعلبك» بلبنان سنة 1872، وتلقى علومه في ربوعه، ثم هاجر منه إلى وادي النيل واتخذ وطنه الدائم، واشتغل فيه بالصحافة والأدب، ثم تفرغ للفن الشعري، فأظهر فيه براعة وتجديدا، وأطلق عليه الأدباء لقب شاعر القطرين (المصري واللبناني)، وله ديوان يعد طبعه حينما طبع حادثا يذكر في عالم الأدب، قال في مقدمته:

«و غاية ما أتمناه لدى القراء... أن يشاركوني في وجداني أثناء مطالعتهم لهذا الكتاب، فيرضوا عن الفضيلة كما رضيت، ويأسوا من الرذيلة كما أسيت، وأن يستفيدوا من مناصحاتي ويتخذوا أدوية لجراحاتهم من جراحاتي!».»

ووافته المنية ليلة اليوم الأول من يوليو سنة 1949 وعمره نحو ستة وسبعين عاما.

■ تكريم أحمد فتحي زغلول

وفي يوم 27 يونيو 1913 أقيم حفل كبير في دار الجامعة المصرية لتكريم العالم العامل، رجل القضاء الشهير بمصر الأستاذ فتحي زغلول باشا، اشترك نخبة من العلماء والأدباء ورجال القضاء وألقيت خطبة وقصائد في الإشادة بمواهب الرجل ومميزاته الشخصية وعلمه الواسع، وعمله الجاد المثمر، وكان من الخطباء الأستاذ أحمد لطفي السيد، ولما توفي فتحي بعد سنة من تكريمه كتب عنه السيد يقول:

«لقد كنت في الربيع الماضي على المنابر والصحف نكرم ذاتك ونتوج مؤلفاتك ونعلن فضلك فما دار حول حتى جئنا ننعي وفاءك وأنت في الحالين كبير، إن مظاهر الاعتراف بفضلك التي شهدتها بنظرك ليست بأكبر مظاهر الجلال التي قام بها من يكونك لمقامك العلمي والعملية»⁽¹⁾.

(1) الجريدة 28 مارس سنة 1914 العدد 2143.

• لمحات من حياته:

أحمد فتحي زغلول هو شقيق الزعيم المصري المعروف سعد باشا زغلول، وُلد في 4 ربيع الأول سنة 1279 هـ، تعلم في كتّاب البلد ثم في مدرسة رشيد ثم في المدرسة التجهيزية، ثم في مدرسة الألسن، وفي سنة 1884م أرسلته نظارة المعارف إلى فرنسا لدرس الحقوق فحصل على شهادة الليسانس ورجع سنة 1887، وظف بقلم قضايا الحكومة ثم رئيسا لنيابة أسيوط، ثم رئيسا لنيابة الإسكندرية، ثم مفتشا بلجنة المراقبة، فرئيسا لمحكمة الزقازيق، ثم رئيسا لمحكمة مصر، ثم وكيلًا لنظارة الحقانية، واشتهر بحسن الإخلاص، والتفاني في العمل، وقوة الذكاء، وعمق الإيمان، قال عنه السيد لطفي السيد في حفل تأبينه: «إن صورة فتحي التي اشترك في رسمها جميع خطباء هذه الحفلة الممثلين للمعاني والطبقات المتباينة صورة ندخرها عند الزمان على أنها طليعة النهضة العلمية وأثر من آثار المجد المصري العظيم»⁽¹⁾.

■ تكريم واصف غالي:

وفي سنة 1914 أقيمت حفلة تكريمية في فندق (شبرد) لتكريم واصف بك غالي لمحاضرات قيّمة ألقاها في باريس عن العرب كانت مثار التقدير والإعجاب من مختلف الطبقات العلمية، ولكتاب ثمين ألفه عن شعرهم ورقّيتهم وحضارتهم باللغة الفرنسية سماه (حديقة الأزهار)، فكانت الحفلة شيقة زاهرة تبارى فيها كبار الشعراء، ومشاهير الخطباء، بروائع الشعر ونفائس الخطب، فمما قاله الشاعر الكبير إسماعيل باشا صبري:

(1) تأملات في الفلسفة والأدب والسياسة والاجتماع، ص123.

«أيّ صوت حيته بالأمم — س باريس مقرّ العلوم والعلماء
يا سجل الخلود أفسح مجالا لاسمه في صحيفة الفضلاء
إن من طيب الثناء لزهرًا تجتنيه مسامع الأكفاء
أما أمير الشعراء، أحمد شوقي فإنه هزّ الحاضرين، هو الآخر بمعانيه
الكريمة، ومما جاء في قصيدته قوله:

غالٍ في قيمة ابن بطرس غالي
علم الله ليس في الحق غالي
نحتفي بالأديب والحق يقضي
وجلال الأخلاق والأعمال
يظهر المدح رونق الرجل الما
جد كالسيف يزدهي بالصقال
رُبَّ مدح أذاع في الناس فضلا
وأتاهم بقدوة ومثال
إنما يقدر الكرام كريم
ويقيم الرجال وزن الرجال
وإذا أعظم البلاد بنوها
أنزلتهم منازل الإجلال

• لمحات من حياته:

قبطي، ولد سنة 1878م تولّى وزارة الخارجية المصرية، وسافر مع الوفد إلى لندن لمفاوضة الحكومة الأنجليزية للمرة الأولى في سبيل الاستقلال سنة 1920، وهو من مشاهير شعراء مصر في العصر الحديث، نال بشعره جاها عريضا، وسمعة ذائعة، وخدم به قضايا وطنه وقضايا الأمة العربية، والشعر إذا لم يكن حفزا للهمم، وفتحاً للقلوب، وإضاءة للطريق، وإيقاظاً للعقول، ودعوة إلى بناء الحياة العزيزة الكريمة، وإطفاء للفتن، وتبصيرا بدسائس الاستعمار ومكائده، فليس بشعر.

ومما يحضرنا من مواقفه أنه عندما قتل رئيس وزراء مصر (بطرس باشا غالي) في يوم 20 فبراير سنة 1910م بيد شاب مسلم اسمه إبراهيم ناصف الورداني أطلق عليه أربع رصاصات من مسدسه في باحة نظارة الخارجية⁽¹⁾ ثارت ثائرة القبط، وعقدت الاجتماعات من الأقباط في أسيوط، ومن المسلمين في مصر الجديدة، وكادت الفتنة تعم البلاد، كتب الشاعر واصف غالي رسالة إلى الشاعر الكبير إسماعيل صبري يرجوه فيها أن يسهم في إطفاء الفتنة، وجاء في رسالته مايلي:

(قيل إن الشعراء أنبياء، إذ هم ساسة الأفكار، وقادة الشعوب، فعسى أن يتبعك شعب مصر فيسلك مسلك الحق والشرف)⁽²⁾ فاستجاب إسماعيل صبري لهذه الرغبة وأنشأ قصيدة من واحد وعشرين بيتا ومطلعها:

(1) الهلال ج6 س 18 - 1 مارس 1910م.

(2) أصداء الدين للأستاذ سعد الدين محمد الجيزاري ج 1 ص 266.

■ تكريم العلامة الشيخ طاهر الجزائري⁽¹⁾

• تمهيد:

أما علامة الجزائر والأمة العربية قاطبة الشيخ طاهر الجزائري فإنه كرم بإقامة حفلة تذكارية سنة 1923 في دمشق عقدها المجمع العلمي، وحضرها أعلام الفكر، وأبناء المنابر ورجال الصحافة، وأعيان البلد، وألقيت خطب وقصائد شعرية، في التتويه بعلم الرجل وأفقه الواسع في مختلف العلوم والمعارف العقلية والنقلية.

• بعض ما قيل فيه:

وفيما يلي قصيدة الشاعر الكبير حليم دموس، نشبتها برمتها لأهميتها التاريخية :

مشى وكان «صغيرا» لاعبا مرحا
ما بين شيب وشبان وأطفال
وإذ تدرج في عهد «الشباب» مضى
إلى معاهد إرشاد وتسأل
وبات في القوم «كهلا» زاخرا أدبا
يُحيي المكاتب تنويرا لجهال
وعاش ما عاش «شيخا» حجة علما
مؤلفا بين أسحار وآصال
* * *

(1) أوردناه مع المشاركة، وإن كان جزائريا لأنه وُلد في المشرق، وعاش وكرّم فيه.

رأيت في ربوع «الشام» منصرفا
إلى مذاكرة الأصحاب والآل
رأيت في ضفاف «النيل» مبتدرا
إلى مجالس آداب وإقبال
رأيت في بلاد «الغرب» مكتشفا
سر ارتقاء شعوب ذات أفعال
رأيت في بلاد «الشرق» محترما
«مقاصد الشرع» في تفسير أمثال⁽¹⁾
حرا جريئا أبيا زاهدا ورعا
وعالما غير قوال ومختال
مشجعا كل بحاث أخي أدب
مواصل الدرس في حل وترحال
يطوي الحياة بعيدا عن زخارفها
كأنها في يديه بعض أسمال
ويستشير كنوزا من دفائنها
من معدن العلم لا من معدن المال
فقلت للنفس: حيّ الشيخ خاشعة
فإنه بطل بل شيخ أبطال

(1) مقاصد الشرع، والتفسير، والأمثال: إشارة إلى ثلاثة كتب مشهورة من مؤلفات الشيخ طاهر رحمه الله.

وقفت في سفح «قيسون»⁽¹⁾ فنبهني
في «الصالحية» ليلا هاتف عال
كأنما «طاهر» وافى يذكرنا
من الضريح بعهد غابر حال
وهذه روحه تدعو بني وطني
إلى مناهج تحسين وإكمال
شبية العصر، هلا يقظة فانا
عن ذكركم لست بالساهي ولا السالي
دعوا المظاهر حيناً إنها عرض
والسر في النفس لا في الهيكل البالي
وكرموا العلم إجلالاً لدولته
إن رمت اليوم تكريمي وإجلالي
وصارعوا الجهل، إن الجهل مدرجة
لموت شعب يناجي مجده الخالي
فتلك آثار أجداد لكم درجوا
أدالها الدهر من حال إلى حال
وذي مدارسكم فاسقوا حدائقها
بمنهل من صحيح العلم سلسال

(1) دفن الشيخ بحسب وصيته في الصالحية في سفح جبل قيسون المجاور لدمشق، ولهذا الجبل ذكر مشهور في التاريخ وهو مأوى الأنبياء والعلماء والصالحين.

وذي مكاتبكم في الشام فاحتفظوا
بها ولا تتركوها رهن إهمال
صونوا بها اللغة الفصحى فإن لها
ذكرا جرى بين أعصار وأجيال
توحدوا في هوى الأوطان واتحدوا
يا رب تجزئة جاءت بزلزال
أعيدكم من جمود في الحياة ومن
إضاعة الوقت في قيل وفي قال
قد عشت في وطني ما بينكم ردحا
فحققوا بعض أحلامي وآمالي
تململ الشرق.. والأحفاد ترمقكم
وأنتم بين حساد وعدال
والناس تجري إلى العلياء طائفة
وأنتم قد رضيتم راحة البال
والدهر يرقب والأوقات مسرعة
وكل حي لميت لاحق تال..»

• لمحات من حياته:

أصله من سمعون إحدى القرى القبائلية بوادي الساحل بالقرب من
القصر، ووادي أميزور على بعد 60 كلم من بجاية، هاجر والده السيد
محمد الصالح إلى دمشق سنة (1263هـ / 1846م) وهناك ولد الشيخ
طاهر ليلة الأربعاء في 20 من ربيع الأول عام (1268هـ / 1852م).

شب محبا للعلم والمعرفة، ولوعا بالمطالعة، فتضلع فيهما وصار موسوعة يتندر بها. وألف عشرات الكتب في مختلف المجالات، كما أشرف على طبع عديد من الكتب القيمة، واشتهر بثلاثة مؤلفات هي «مقاصد الشرع»، و «التفسير الكبير»، و «الأمثال»، ومن أخلاقه وعاداته المميزة، أنه يحب العمل، ويستغل الوقت، وله عزيمة ماضية لا يبالى بالعوائق والعقبات، وشعاره قول الرسول ﷺ: «من أبطأ به عمله، لم يسرع به نسبه».

وفي سنة 1905 هاجر إلى مصر، وفي سنة 1914 ذهب إلى بيروت ودمشق، ولكنه لم يلبث أن عاد إلى مصر وظل بالقاهرة إلى سنة 1919، ثم عاد إلى دمشق ومرض الربو يضايقه، ولم تمض إلا أشهر حتى عين مديرا للمكتبة الظاهرية، ثم عين عضوا في المجمع العلمي، ولم يلبث أن اشتد به المرض فالتحق بالرفيق الأعلى في 5 يناير سنة 1920م، رحمه الله!

تكريم أحمد شوقي

يكاد النقاد يجمعون على أن شوقي كان تعويضا عادلا عن عشرة قرون خلت من تاريخ العرب بعد المتنبى، لم يظهر فيها شاعر موهوب يصل ما انقطع من وحي الشعر، ويجدد ما اندرس من نهج الأدب⁽¹⁾ كان شوقي أشعر شعراء العصر الحديث، يحسن التحدث في مختلف المجالات، ويعبر عن مآسي القلوب، وخلجات النفوس، وجمال الطبيعة، وعَبَث الزمان، وتقلب الأيام، وأطياف الماضي، وصحائف الآثار، تعبيراً

(1) تاريخ الأدب العربي للأستاذ أحمد حسن الزيات، ص 580.

يهزك من الأعماق، ويأسر مشاعرك وأحاسيسك، ويُريك رأي العين أنك أمام الملموس المشاهد!

إن شوقي شاعرٌ متفوق في كلِّ شعر أبدعه، وإن كان هذا القول على إطلاقه هذا لا يُرضي أعداءه ومعارضيه، بل يثير غضبهم وسخطهم لو كانوا على قيد الحياة، ولكنها الحقيقة التي تفرض نفسها، والتي جعلت أدباء من مصر والشام، يفكرون في السعي إلى ترشيحه لجائزة نوبل، ولكنه لم يُعرَ لذلك أيُّ اهتمام، وكأنني به يرى نفسه فوق ذلك، أو رأى ما يحيط بهذه الجائزة أحيانا من غيوم فتجاهلها! ⁽¹⁾.

إن شوقي تقرأ له فتحس بشعور الانفصال من حدود هذه الأرض الضيقة، والانطلاق في جوٍّ فسيح طلق، فإذا القلب خافق صريع بسحر الجمال الشعري، وإذا الروح في الأفق الرحيب تستجلي آيات الجمال والجلال!

إن شوقي قد احتلَّ مكانةً فذةً بين شعراء العصر، بل بين شعراء القرون العشرة الماضية، ولم يكن شاعرَ مصر وحدها، بل هو شاعر العرب جميعاً، وبهذا أجمع على تقديمه وتفضيله غالبية أهل الأدب والرأي في البلاد العربية، وأثمر إجماعهم هذا أشهى ثمراته لشوقي، حين تألّفت بمصر لجنة من أهل العلم والأدب تحت رئاسة أحمد شفيق باشا الوزير سابقا، لإقامة حفلة لتكريم شوقي في يوم 23 شعبان عام 1345هـ الموافق لـ 25 فيفري سنة 1927م، ونشرت نداءً عاما على العالم العربي، تستهض فيه همم الشعراء والأدباء، للاشتراك بإبداعاتهم في هذا الحفل التكريمي، وما إن حلَّ هذا التاريخ حتى توافد على القاهرة أدباء وشعراء من العراق، وفلسطين، ولبنان، وسوريا، والبحرين، وكان

(1) هو أول شاعر عربي فكر الأدباء في ترشيحه لهذه الجائزة.

اليوم مشهوداً تبارى فيه الخطباء والشعراء، كلُّ يريد أن يكون الفارسَ
المجلّى في الحلبة، وأن يستقطب القلوب والمشاعر والأحاسيس نحو
المبتكر من معانيه، فكان ما جادت به قرائحهم، أنماطاً من القول البديع،
والمعنى الرائع، يظلّ عبر التاريخ شهادة ناطقة، ووثيقة صادقة على أن
شوقي (كان تعويضاً عادلاً عن عشرة قرون خلت من تاريخ العرب بعد
المتنبى لم يظهر فيها شاعر موهوب يصل ما انقطع من وحي الشعر) كما
قال منصفوه⁽¹⁾.

• بعض ما قيل في حفل التكريم:

وإذا كان عرض كلِّ ما قيل في حفل تكريم شوقي متعذراً، لكثرتة، فلا
أقلُّ من عرض القليل منه جرياً على منهاجنا في هذا الكتاب، رغبة في
الإيجاز والاختصار ما أمكن!!

قال شاعر النيل حافظ إبراهيم:

بلا بل وادي النيل بالمشرق اسجعي

بشعر أمير (الدولتين) ورجعي⁽²⁾

أعيدي على الأسماع ما غرّدت به

يراعة شوقي في ابتداءٍ ومقطع⁽³⁾

(1) كان لشوقي مناوئون يكتبون عنه ما هو قريب من النكير، وأدنى إلى الجرح، وكان ممن

أنصفوه صاحب (الرسالة) الأستاذ أحمد حسن الزيات، ومقاله في مجلة (السياسة

الأسبوعية) بعنوان (ما لشوقي وما عليه) شاهد على ذلك!

(2) يريد بالدولتين، النظم والنثر، والترجيع: ترديد الصوت بالغناء.

(3) في ابتداء ومقطع: أي في أول القصيدة وآخرها.

- بَرَاهَا لَهُ الْبَارِي فَلَمْ يَنْبُ سُنُّهَا
إِذَا مَا نَبَا الْعَسَّالُ فِي كَفِّ أُرْوَع⁽¹⁾
مَوَاقِعُهَا فِي الشَّرْقِ وَالشَّرْقُ مُجْدِبٌ
مَوَاقِعُ صَيْبِ الْغَيْثِ فِي كُلِّ بَلْقَعِ⁽²⁾
لَدَيْهَا وَفُودُ اللَّفْظِ تَنْسَاقُ خَلْفَهَا
وَفُودُ الْمَعَانِي خُشَعًا عِنْدَ خُشَعِ⁽³⁾
إِذَا رَضِيَتْ جَاءَتْ بِأَنْفَاسٍ رَوْضَةٍ
وَإِنْ غَضِبَتْ جَاءَتْ بِنَكْبَاءٍ زَعَزَعِ⁽⁴⁾
أَحْنٌ عَلَى الْمَكْدُودِ مِنْ ظِلِّ دَوْحَةٍ
وَأَحْنَى عَلَى الْمَوْلُودِ مِنْ ثَدْيِ مُرْضِعِ⁽⁵⁾
عَلَى سُنِّهَا رَفَقٌ يَسِيلُ وَرَحْمَةٌ
وَرَوْحٌ لِمَنْ يَأْسَى وَذِكْرٌ لِمَنْ يَعِي⁽⁶⁾

(1) نبا ينبو: كل وارتد. والعسال: الرمح يهتز لدينا. والأروع: الشجاع الشهم.
(2) صيب (بتسكين الياء) أصلها صيب (بتشديدها)، وهو المطر المنهمر المنصب. والبلقع: الأرض القفر لا نبات بها. بقول: إن آثار قلمه تفعل في نفوس الشرقيين الظامئة ما تفعل السحب في الأرض المجدبة.
(3) بقول: إن براعة هذا الشاعر قد ملكت ناصيتي الألفاظ والمعاني لا يستعصى عليها منهما شيء.
(4) النكباء: الريح تنحرف عن مهب الرياح، وتقع بين ريحين. والززع: الشديد العصف.
(5) المكدود: من أضناه الكد والمشقة. والدوحة: الشجرة العظيمة المتسعة الظل.
(6) الروح: الراحة والرحمة. ويأسى: يحزن. ويعي: يحفظ.

تَسَابِقُ فَوْقَ الطَّرْسِ أَفْكَارُ رَبِّهَا

(1) سَبَاقُ جِيَادٍ فِي مَجَالٍ مُرَبَّعٍ

تَطِيرُ بَرْوقُ الْفِكْرِ خَلْفَ بَرْوقِهَا

(2) تَنَاشِدُهَا بِاللَّهِ لَا تَتَسَرَّعِي

تُحَاوِلُ فَوْتَ الْفِكْرِ لَوْ لَمْ تَكُفِّهَا

(3) أَنَامِلُهُ كَفَّ الْجَمُوحِ الْمُرُوعِ

أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَا بِذُخْرِي نَبَاغَةَ

(4) نُفَاحِرُ أَهْلِ الشَّرْقِ فِي أَيِّ مَجْمَعٍ

نُفَاحِرُ مِنْ (شَوْقِينَا) بِيرَاعَةَ

(5) وَنَزْدَادُ فَخْرًا مِنْ (عَلِيٍّ) بِمِبْضَعٍ

فَذَاكَ شِفَاءُ الْجِسْمِ تَدْمِي جِرَاحِهِ

(6) وَتِلْكَ شِفَاءُ الْوَالِدِ الْمُتَوَجِّعِ

نَمَتِكَ ظِلَالٌ وَارِفَاتٌ وَأَنْعَمُ

(7) وَلَيْنَ عَيْشٍ فِي مَصِيفٍ وَمَرَبَعٍ

(1) تسابق: أي تتسابق. والطرس: الصحيفة يكتب فيها. والمجال: حيث تجول الجياد، أي تجري.

(2) بروق الفكر: أي بروق فكر الشاعر. والضمير في "بروقها" يعود على "اليراعة" المتقدمة. شبه فكر الشاعر ويراعته في سرعتيهما بالبروق، وجعل برق يراعه أسرع من برق فكره.

(3) الجموح: الفرس الذي يركب رأسه لا يثنيه شيء. والمروع: المفزع. يقول: إن يراعه تسبق أفكاره لولا أن أنامله تردها وتكبحها.

(4) بذخري: متعلق، بقوله: "نفاحر". والنباغة: النبوغ، فعلها من باب كرم.

(5) يريد "بعلي": على إبراهيم باشا الجراح المعروف. والمبضع: المشرط.

(6) ذاك: أي المبضع. وتلك: أي اليراعة.

(7) نمتك: أي تعهدتك بالتربية والنماء. والوارفات: المتسعة الممتدة. والمربع: المكان يقام به في فصل الربيع.

وَمَنْ كَانَ فِي بَيْتِ الْمُلُوكِ ثَوَاؤُهُ
(1) يُنْشَأُ عَلَى النُّعْمَى وَيَمْرَحُ وَيَرْتَعُ
لَنْ عَجِبُوا أَنْ شَابَ (شَوْقِي) وَلَمْ يَزَلْ
(2) فَتَى الْهَوَى وَالْقَلْبِ جَمَّ التَّمَتُّعِ
لَقَدْ شَابَ مِنْ هَوْلِ الْقَوَافِي وَوَقَعَهَا
وَإِتْيَانِهِ بِالْمُعْجِزِ الْمُتَمَنِّعِ
كَمَا شَيَّبَتْ هُودٌ ذُوَابَةَ أَحْمَدَ
(3) وَشَيَّبَتْ الْهَيْجَاءُ رَأْسَ الْمُدْرَعِ
وَمَا شَابَ رَأْسِي مِنْ سَنِينَ تَتَابَعَتْ
(4) وَمَا ذَاكَ عَنْ عِيٍّ بِهِ أَوْ تَرْفَعِ
وَمَا كَانَ عَابًا أَنْ يَجِيءَ بِمُنْشَدٍ
(5) لآيَاتِهِ أَوْ أَنْ يَجِيءَ بِمُسْمَعِ
فَهَذَا (كَلِيمُ اللَّهِ) قَدْ جَاءَ قَبْلَهُ
(بَهَارُونَ) مَا يَأْمُرُهُ بِالْوَحْيِ يَصْدَعُ (6)

(1) الثَّوَاءُ: الإِقَامَةُ.

(2) فَتَى الْهَوَى: جَدِيدُهُ. يَرِيدُ أَنْ عَوَاطِفَ قَلْبِهِ لَمْ يَطْفَأْهَا الْمَشْيِبُ.

(3) يُشِيرُ بِالشَّطْرِ الْأَوَّلِ إِلَى قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ: «شَيَّبَتْنِي هُودٌ وَأَخَوَاتُهَا» أَيِ سُورَةِ هُودٍ، لَمَّا فِيهَا مِنْ آيَاتِ الْوَعِيدِ. وَالذُّوَابَةُ مِنَ الشَّعْرِ: الضَّفِيرَةُ. وَالْهَيْجَاءُ: الْحَرْبُ. وَيُشِيرُ بِالشَّطْرِ الثَّانِي إِلَى قَوْلِ الشَّاعِرِ:

يَعْيِبُونَ (شَوْقِي) أَنْ يُرَى غَيْرَ مُنْشَدٍ عَلِيٍّ وَلَكِنْ شَيَّبَتْنِي الْوَقَائِعُ

(4) الْعِيُّ: عَدَمُ الْقُدْرَةِ عَلَى الْكَلَامِ. وَالتَّرْفَعُ: الْكِبَرُ. وَيُشِيرُ إِلَى أَنْ شَوْقِيَا كَانَ فِي الْحَفَلَاتِ لَا يَنْشُدُ قِصَائِدَهُ بِنَفْسِهِ كَمَا يَفْعَلُ غَيْرُهُ مِنَ الشُّعْرَاءِ، بَلْ كَانَ يَنْيِبُ عَنْهُ فِي كُلِّ مَجْتَمَعٍ مِنْ يَنْشُدُ قِصَائِدَهُ.

(5) الْعَابُ وَالْعَيْبُ: كِلَاهُمَا بِمَعْنَى وَاحِدٍ.

(6) كَلِيمُ اللَّهِ: نَبِيُّهُ مُوسَى. وَصَدَعَ بِالْأَمْرِ: جَاهَرَ بِهِ مَصْرَحًا. وَيُشِيرُ إِلَى مَا وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ حِكَايَةً عَنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِ هَارُونَ أَخِي أَشَدَّ بِهِ أَزْرِي» الْآيَاتِ.

بَلَغْتَ بَوْصَفِ النَّيْلِ مِنْ وَصْفِكَ الْمَدَى
(1) وَأَيَّامَ (فِرْعَوْنَ) وَمَعْبُودِهِ (رَع)
وَمَا سُقْتَ مِنْ عَادِ الْبِلَادِ وَأَهْلِهَا
(2) وَمَا قُلْتَ فِي أَهْرَامِ (خُوفُو) وَ(خَفْرَع)
فَأُطْلَعَتْهَا شَوْقِيَّةٌ لَوْ تَنْسَقَّتْ
(3) مَعَ النَّيِّرَاتِ الزُّهْرِ خُصَّتْ بِمَطْلَعِ
أَ (مَنْ أَيُّ عَهْدٍ فِي الْقُرَى) قَدْ تَفَجَّرَتْ
(4) يَنَابِيعُ هَذَا الْفِكْرِ أَمْ (أَخْتُ يَوْشَعَ)؟
ويشير إلى قصيدة لشوقي في توت عنخ آمون، أولها:
قفي يا أخت يوشع خبرينا
أحاديث القرون الغابرينا
وفي (توت) ما أعيا ابتكار موفّق
وفي (ناشئ في الورد) إلهام مُبدع⁽⁵⁾

-
- (1) المدى: الغاية. ويشير بهذا البيت إلى قصيدة لشوقي في النيل وتاريخ من ملكه من الفراعنة بعث بها إلى مرجليوث المستشرق المعروف في سنة 1914م. وأولها:
من أي عهد في القرى تتدفق وبأي كف في البرية تغدق
وَرَع: اسم للشمس عند قدماء المصريين، وهو من معبوداتهم.
- (2) العاد: جمع عادة؛ يريد عادات قدماء المصريين. وخوفو وخفرع: ملكان معروفان من ملوك مصر الفراعنة.
- (3) تنسقت: انتظمت. والنيرات الزهر: النجوم.
- (4) مَنْ أَيُّ عَهْدٍ فِي الْقُرَى: مطلع القصيدة السابق ذكرها في الحاشية رقم 4 من هذه الصفحة. وأخت يوشع: الشمس؛ وأطلق عليها ذلك لما روى من أنها تأخرت عن المغيب لأجل يوشع.
- (5) يشير بقوله: «وفي توت» إلى قصيدة لشوقي في توت عنخ آمون، أولها:
درجت على الكنز القرون وأتت على الدن السنون
وبقوله: «ناشئ في الورد» إلى قصيدة له في المنتحرين لرسوبهم في الامتحانات، أولها:
ناشئ في الورد من أيامه حسبه الله أبالورد عشر

أَسَأَلْتُ (سَلَا قَلْبِي) شُؤُونِي تَذَكُّرًا
(1) كَمَا نَثَرْتُ (رِيمٌ عَلَى الْقَاعِ) أَدْمُعِي
وَ(سَلٌ يَلْدِزًا) إِنِّي رَأَيْتُ جَمَالَهَا
(2) عَلَى الدَّهْرِ قَدْ أُنْسِيَ جَمَالَ (المُقَنَّعِ)
أَطَلَّتْ عَلَيْنَا (أَخْتُ أُنْدُلُسَ) بِمَا
(3) أَطَلَّتْ فَكَانَتْ لِلنَّهْيِ خَيْرَ مَشْرَعٍ
وَفِي نَسْجٍ (صَدَّاحٍ) أَتَيْتَ بَايَةَ
(4) مِنَ السَّهْلِ لَا تَنْقَادُ (لَا بَنِ الْمُقَنَّعِ)

(1) يشير بقوله: «سلا قلبي» إلى قصيدة لشوقي قالها في استقباله لمصر عند عودته من منفاه بالأندلس، أولها:

سلا قلبي غداة سلا وتابا لعل على الجمال له عتابا
وبقوله: «ريم القاع» إلى قصيدة له في مدح النبي صلى الله عليه وسلم سماها: نهج البردة، وأولها:
ريم على القاع بين البان والعلم أحل سفك دمي في الأشهر الحرم
والشؤون: الدموع.

(2) يشير إلى قصيدة للممدوح في خلع السلطان عبد الحميد سماها: (عبرة الدهر)، أولها:
سل بلدزا ذات القصور هل جاءها نبا البدور
ويريد بالمقنع: المقنع الكندي، وهو لقب غلب عليه، لأنه كان أحسن الناس وجها، وأمدهم قامة،
وأكملهم خلقة، فيرون أنه كان إذا سفر اللثام أصابته أعين الناس فيمرض ويلحقه عنت، فكان
لا يمشي إلا مقنعا؛ واسمه محمد بن ظفر ابن عمير، وهو شاعر مقل من شعراء الدولة الأموية،
وكان ذا منزلة وشرف بين قومه.

(3) أطلت علينا: أي ظهرت لنا من أعلى. ويشير إلى قصيدة لشوقي في رثاء مدينة أدرنة، وهي
من أمهات مدن الدولة العثمانية، وكانت قد سقطت في يد البلغار في الحرب البلقانية،
وأول القصيدة:

يا أخت أندلس عليك سلام هوت الخلافة عنك والإسلام

والمشرع: المورد الذي يستقى منه.

(4) يشير إلى قصيدة لشوقي في تفضيل حجاب المرأة على سفورها، يخاطب بها المرحومة
باحثة البادية، أولها:

صداح يا ملك الكنا رويا أمير البلبل

وابن المقفع: هو عبد الله بن المقفع الكاتب المعروف.

ورائع وصف في (أبي الهول) سقته
(1) كبستان نور قبل رعيك ما رعي
خرجت به عن طوق كل مصور
(2) يجيد دقيق الفن في جوف مصنع
وفي (انظر إلى الأقمار) زفرة واجد
(3) وأنة مقروح الفؤاد موزع
بكت على سر السماء وطهرها
وما ابتدلوا من خدرها المترفع
شياطين إنس تسرق السمع خلصة
(4) ولا تحذر المخبوء للمتسمع
وسينية (للبحثري) نسختها
(5) بسينية قد أخرست كل مدعي

-
- (1) الرائع: ما أعجب الناس بحسنه. ويشير إلى قصيدة لشوقي في وصف أبي الهول، أولها:
أبا الهول طال عليك العصر وبلغت في الأرض أقصى العمر
والنور (بفتح النون): زهر النبات.
- (2) الطوق: الجهد والطاقة.
- (3) يشير إلى قصيدة لشوقي في رثاء فتحي ونوري الطيارين العثمانيين، وكانا قد سقطت بهما طائرتهما في أثناء رحلتها إلى مصر قبل نشوب الحرب العظمى، وأولها:
انظر إلى الأقمار كيف تزول وإلى الوجوه السعد كيف تحول
والواجد: ذو الوجد. والفؤاد الموزع: المفرق مما اختلف عليه من الشجون.
- (4) يريد بشياطين الإنس: الطيارين. ويريد «بالمخبوء للمتسمع»: الشهب التي يرمم بها من الشياطين من يسترق السمع من السماء.
- (5) يشير بهذا البيت إلى قصيدة لأبي عبادة البحتري على قافية السين في وصف إيوان كسرى، أولها:
صنت نفسي عما يدنس نفسي وترفعت عن جدا كل حبس
وقصيدة لشوقي يعارضه بها، يذكر فيها بعده عن بلاده في منفاه، ويرثي فيها الأندلس، وأولها:
اختلاف النهار والليل ينسي اذكرا لي الصبا وأيام أنسي

أتى لك فيها طائعا كل ما عصي
(1) على كل جبار القريحة ألمعي
شجا (البحتري) إيوان (كسرى) وهاجه
(2) وهاجت بك (الحمراء) أشجان موجه
وقفت بها تبكي الربوع كما بكى
فيا لكم ما من واقفين بأربع
فنسجك كالديباج حلاه وشيه
(3) وفي النسيج ما يأتي بثوب مرقع
وشعرك ماء النهر يجري مجددا
(4) وشعر سواد الناس ماء بمنقع
أ (أفضى إلى ختم الزمان ففضه)
(5) من الوحي والإلهام أم قول لودعي؟
و (قلبي اذكرت اليوم غير موفق)
(6) رقى السحر أم أنات أسوان مولع؟

-
- (1) الألمعى (بتشديد الياء وخففت للشعر): الذكي المتوقد.
(2) البحتري: هو أبو عبادة الوليد بن عبيد الله الطائي، الشاعر المعروف. والحمراء: قصر
بغرناطة بالأندلس، بنى في عهد دولة بني الأحمر، ولا تزال آثاره ماثلة حتى اليوم.
(3) الوشي: النقش. وشبهه في الشطر الثاني الشعر الذي لا تستوفى أجزاؤه في الحسن وضده
بالثوب المرقع.
(4) سواد الناس: عامتهم. والمنقع: الموضع يستنقع فيه الماء.
(5) يشير إلى قول شوقي في رثاء (اللورد) كارنارفون الذي كشف عن قبر توت عنخ أمون:
أفضى إلى ختم الزمان ففضه وحبا إلى التاريخ في محرابه.
واللودعي: الذكي الذهن.
(6) الأسوان: الحزين. والرقى: جمع رقية، وهي العوذة يتعوذ بها من العلل والآفات.

تَمَلَّكَتْ مِنْ مُلْكِ الْقَرِيضِ فَسِيحَهُ
فَلَمْ تَبْقِ يَا (شَوْقِي) لَنَا قَيْدَ إِصْبَعِ
فَبِاللَّهِ دَعُ لِلنَّائِثِرِينَ وَسِيلَةً
تُفِيءُ عَلَيْهِمْ وَاتَّقِ اللَّهَ وَاقْنَعِ⁽¹⁾
عَمِلْتَ عَلَى نَيْلِ الْخُلُودِ فَنَلْتَهُ
فَقُلْ فِي مَقَامِ الشُّكْرِ يَا رَبُّ أَوْزِعِ⁽²⁾
جَلَّ شَعْرُهُ لِلنَّاسِ مِرَآةَ عَصْرِهِ
وَمِرَآةَ عَهْدِ الشُّعْرِ مِنْ عَهْدِ (تُبَّعِ)⁽³⁾
يَجِيءُ لَنَا أَنَا (بِأَحْمَدِ) مِثْلًا
وَأَوْنَةً (بِالْبَحْثَرِيِّ) الْمُرْصَعِ⁽⁴⁾
وَيَشْتَوَا رُقَى (هُوجُو) وَيَأْتِي نَسِيبَهُ
لَنَا مِنْ لِيَالِي (أَلْفَرِيدِ) بِأَرْبَعِ⁽⁵⁾

-
- (1) تفيء عليهم: أي تعود عليهم بالخير والرزق.
(2) أوزعه الله الشكر: ألهمه إياه. ويشير إلى قوله تعالى في حكاية سليمان بن داود عليهما السلام في سورة النمل: «فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك» الآية.
(3) تبع: لقب لملوك حمير. ويريد بهذا البيت أن شعر الممدوح قد صور القديم والجديد.
(4) يريد «بأحمد» أبا الطيب أحمد بن الحسين المتنبي الكوفي الكندي الشاعر المعروف.
(5) يشتوا، يسبق. رقى هوجو، أي أشعاره التي تشبه رقى السحر. وفكتور هوجو، هو شاعر فرنسا المعروف. والنسيب: التشبيب بالنساء وذكر محاسنهن في الشعر. وألفريد: هو ألفريد ديموسيه من كبار شعراء فرنسا، ولد بباريس سنة 1810م، وتوفي بها سنة 1857م، وكان ممتازا في شعره بالركة ولطف الصياغة، وهو صاحب الليالي الأربع المشار إليها في هذا البيت في الحب والشك والسلوان، وهي ليلة من (آيار) وليلة من (كانون أول)، وليلة من (آب) وليلة من (تشرين أول). وفي كل ليلة من هذه الليالي الأربع يشرح حالا من أحواله المتعلقة بالحب؛ وهذه الليالي هي التي رفعت إلى الطبقة الأولى بين شعراء فرنسا.

- وإن خَظَرْتُ ذَكَرِي الْفُحُولِ بِفَارِسٍ
(1) وما خَلَّفُوا فِي الْقَوْلِ مِنْ كُلِّ مُشْبِعٍ
أَتَانَا بِرَوْضٍ مُزْدَهَرٍ مِنْ رِيَاضِهِمْ
(2) وَ(حَافِظُهُمْ) فِيهِ يُغْنِي وَيَرْتَعِي
فَقُلْ لِلَّذِي يَبْغِي مَدَاهُ مُنَافِسًا
(3) طَمَعْتُ لَعَمْرُ اللَّهِ فِي غَيْرِ مَطْمَعٍ
فَذَلِكَ سَيْفٌ سَلَّاهُ اللَّهُ قَاطِعٌ
(4) فَأَيَّانَ يَضْرِبُ يَفْرُ دِرْعًا وَيَقْطَعُ
وَهَلْ تَدْفَعُ الدَّرْعُ الْمَنِيعَةَ صَارِمًا
(5) بِهِ يَضْرِبُ الْمَقْدَارُ فِي كَفِّ سَلْفَعٍ
نُفَيْتَ فَلَمْ تَجْزَعْ وَلَمْ تَكُ ضَارِعًا
(6) وَمَنْ تَرَمَهُ الْأَيَّامُ يَجْزَعْ وَيَضْرَعُ
وَأَخْصَبْتَ فِي الْمَنْفَى وَمَا كُنْتَ مُجْدِبًا
(7) وَفِي النَّفْيِ خِصْبُ الْعَبْقَرِيِّ السَّمِيدِ

- (1) بفارس: يريد أمة الفرس، وقد عرف شعراؤها بالإبداع في المعاني، وفي هذا يقول حافظ من قصيدة له في مدح البارودي: ومَرَّ كُلُّ مَعْنَى فَارِسِي بِطَاعَتِي وكل نفور منه أن يتوددا
(2) يريد «بحافظ»: شمس الدين محمد الشيرازي الشاعر الغنائي المعروف، ولد بشيراز في مستهل القرن الهجري، وتوفي سنة 793هـ. يقول في هذا البيت والذي قبله: إنه إذا ذكر الفحول من شعراء الفرس وما أبدعوا فيه من المعاني وأجادوا، نمق شوقي من رياض أشعاره ما يحكي رياض أشعارهم حتى إن شاعرهم الكبير حافظا الشيرازي ليتغنى ويرتعي في رياض ذلك الشاعر العربي (شوقي).
(3) المدى: الغاية.
(4) يفري: يشق.
(5) المقدار: القدر. والسلفع: الجريء الشجاع.
(6) يضرع: يذل.
(7) يريد بقوله: «أخصبت في المنفى»: أن شعره جاد وحسن في النفي، وما كان مجدبا من قبل. والسמיד: السيد الكريم.

لقد زادَ (هُوجُو) فيه خصبَ قريحة
(1) وآبَ إلى أوطانه جَدَّ مُمرِعٍ
وأدركَ (سامي) بالجزيرة غايَةً
(2) إليها ملوكُ القولِ لم تَطَّلِعْ
تذكرتَ عذبَ النيلِ والنَّفسُ صَبَّةً
(3) إلى نهلةٍ من كُوبِ ماءٍ مُشعَّشِعٍ
وأرسلتَ تستسقي بني مصرَ شربةً
(4) فقطعتَ أحشائي وأضرمتَ أضلعي
أنروى ولا تروى وأنتَ أحقُّنا
بريًّا فيا قلبَ النبوغِ تقطِّعِ
وإن شئتَ عنا يا سماءُ فأقلعي
(5) ويا ماءها فاكفِّ ويا أرضُ فابلعي
حرامٌ علينا أن نلذَّ بنهلةٍ
وأنتَ تُنادينا ونحنُ بمسمعٍ

(1) «فيه» أي في المنفى. والممرع: المخصب، شبه شوقيا (بهوجو) كلاهما زاده النفي خصبا في قريحته ونضجا في شاعريته.

(2) ملوك القول: فحول الشعراء. ويشير إلى نفي المرحوم محمود باشا سامي البارودي إلى جزيرة سيلان عقب الثورة العرابية، وما قاله في أثناء النفي من الشعر.

(3) النهلة: السقية. والمشعشع: الممزوج. يشير بهذا البيت وما بعده إلى الأبيات التي بعث بها شوقي وهو في منفاه إلى حافظ، وهي:

يا ساكني مصر إنا لا نزال على عهد الوفاء وإن غبنا مقيمينا (الأبيات)
(4) أضرمت: ألهمت.

(5) أقلعت السماء: كفت عن المطر. ويشير إلى قوله تعالى في سورة هود: «وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي».

أَبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يَرُدَّكَ سَالِمًا
وَمَنْ يَرَعَهُ يَسْلَمُ وَيَغْنَمُ وَيَرْجِعُ
وَعُدَّتْ فَقَرَّتْ عَيْنُ مِصْرٍ وَأَصْبَحَتْ
(1) رِيَاضُ الْقَوَافِي فِي رَبِيعٍ مُوشَّعٍ
وَأَدْرَكْتَ مَا تَبْغِي وَشَيْدَتْ آيَةً
(2) عَلَى الشَّاطِئِ الْغَرْبِيِّ فِي خَيْرِ مَوَاقِعِ
يَحْفُ بِهَا رَوْضٌ يَحْيِي بُدُورَهَا
(3) بُكُورًا بَرِيًّا عَرَفَهُ الْمُتَضَوِّعُ
حَمَى يَتَهَادَى النَّيْلُ تَحْتَ ظِلَالِهِ
(4) تَهَادَى خَوْدٌ فِي رِداءٍ مُجَزَّعٍ
لَقَدْ كُنْتَ تَرْجُو مِنْهُ بِالْأَمْسِ قَطْرَةً
(5) فَدُونَكَ فَا بَرْدٌ غَلِيلُكَ وَانْقَعَ
أَمِيرُ الْقَوَافِي قَدْ أَتَيْتُ مُبَايَعًا
وَهَذِي وَفُودُ الشَّرْقِ قَدْ بَايَعَتْ مَعِي
فَغَنِّ رُبُوعَ النَّيْلِ وَأَعْطِفْ بِنَظْرَةٍ
(6) عَلَى سَاكِنِي النَّهْرَيْنِ وَاصْدَحْ وَأَبْدَعْ

-
- (1) الربيع الموضع الموشى بألوان الزهر والنبات
(2) يشير إلى قصر شوقي الذي بناه على الشاطئ الغربي للنيل بالجيزة.
(3) الريا والعرف: الرائحة الطيبة. وبكورا: أي في بكرة الصباح. والمتضوع: المنتشر الرائحة.
(4) يتهادى: يمشي في لين وخفة. والخود: الشابة الحسنة. والمجزع: المختلف الألوان.
(5) نقع ظمأه بالماء: أرواه.
(6) يريد بساكني النهرين: أهل العراق. والنهران: دجلة والفرات. وأصدح: أي غن بالشعر.

ولا تنسَ (نجداً) إنها منبتُ الهوى
ومرعى المَها من سَاحاتٍ ورَّتَعِ⁽¹⁾
وحيِّ ذُراً (لُبَّنان) واجعل (لِتُونُسِ)
نصيباً من السَّلوَى وقسم ووزع
ففي الشَّعرِ حثُّ الطامحين إلى العُلا
وفي الشَّعرِ زهدُ النَّاسِكِ المورعِ
وفي الشَّعرِ ما يُغني عن السِّيفِ وقَّعه
كما روعَ الأعداءَ بيتُ (لأشجع)⁽²⁾
وفي الشَّعرِ إحياءُ النفوسِ وريُّها
وأنتَ لريِّ النَّفسِ أعذبُ منبَعِ
فنبهَ عُقُولاً طالَ عهدُ رُقادها
وأفئدةً شُدَّتْ إليها بأنسُعِ⁽³⁾
فقد غمرتها محنةٌ فوقَ محنة
وأنتَ لها يا شاعرَ الشَّرقِ فادْفَعِ
وأنتَ بحمدِ اللَّهِ ما زِلْتَ قَادرًا
على النَّفعِ فاستنهِضْ بيانَكَ وانفَعِ

(1) المَها: بقر الوحش، الواحدة مَهاة؛ يريد النساء اللاتي يشبهنها في سعة العيون وجمالها: ويطلب إلى الشاعر أن يغني نجداً بشعره، كما يغني أهل مصر.

(2) يشير إلى بيت لأشجع بن عمرو السلمي الشاعر العباسي المعروف من قصيدة يمدح بها الرشيد:
وعلى عدوك يا بن عم محمد وصدان ضوء الصبح والإظلام
فإذا تنبه رعته وإذا غفا سلت عليه سيوفك الأحلام
والمقصود هنا البيت الثاني.

(3) الأنسع: جمع نسع (بكسر النون) وهو سير من جلد تشد به الرحال. يريد وصف الأفئدة بالتقيد والأمر في أغلال العادات القديمة.

خُذْ بِزِمَامِ الْقَوْمِ وَانْزِعْ بِأَهْلِهِ
إِلَى الْمَجْدِ وَالْعِلْيَاءِ أَكْرَمَ مَنْزَعٍ⁽¹⁾
وَقَفْنَا عَلَى النَّهْجِ الْقَوِيمِ فَإِنَّا
سَلَكْنَا طَرِيقًا لِلْهُدَى غَيْرَ مَهْيَعٍ⁽²⁾
مَلَأْنَا طَبَاقَ الْأَرْضِ وَجَدًّا وَلَوْعَةً
بِهَنْدٍ وَدَعْدٍ وَالرَّبَّابِ وَبَوَزَعٍ
وَمَلَّتْ بَنَاتُ الشُّعْرِ مِنَّا مَوَاقِفًا
بِقِسْطِ اللَّوَى (وَالرَّقْمَتَيْنِ) (وَلَعَلَعٍ)⁽³⁾
وَأَقْوَامُنَا فِي الشَّرْقِ قَدْ طَالَ نَوْمُهُمْ
وَمَا كَانَ نَوْمُ الشُّعْرِ بِالْمُتَوَقِّعِ
تَغَيَّرَتِ الدُّنْيَا وَقَدْ كَانَ أَهْلُهَا
يَرَوْنَ مُتُونِ الْعَيْسِ أَلَيْنَ مَضْجَعٍ⁽⁴⁾
وَكَانَ بَرِيدُ الْعِلْمِ عَيْرًا وَأَيْنُقًا
مَتَى يُعِيهَا الْإِيجَافُ فِي الْبِيدِ تَظْلَعُ⁽⁵⁾

(1) وانزع بأهله: أي قد أهل الشرق وسر بهم.

(2) قفا على النهج القويم: أي أرشدنا إلى الطريق المستقيم في أغراض الشعر. والمهيعة: الطريق الواضح البين.

(3) بنات الشعر: أي معانيه وأغراضه. و«سقط اللوى» إلخ: أسماء مواضع في بلاد العرب وردت في شعر القدماء.

(4) متون العيس: ظهور الإبل.

(5) العير: القافلة. والإيجاف: الإسراع. والبيد: جمع بيدا. وتطلع: تعرج في مشيتها. يقول: كانت وسائل العلم فيما مضى السفر على ظهور الإبل التي تسعف راكبيها.

فأصبح لا يرضى البخار مطيئة
ولا السلك في تياره المتدفع
وقد كان كل الأمر تصويب نبلة
فأصبح بعض الأمر تصويب مدفع
ونحن كما غنى الأوائل لم نزل
نغني بأرماح وبيض وأدع⁽¹⁾
عرفنا مدى الشيء القديم فهل مدى
لشيء جديد حاضر النفع ممتع
لدى كل شعب في الحوادث عدة
وعدتنا ندب التراث المضيع⁽²⁾
فيا ضيعة الأقاليم إن لم نقم بها
دعامة ركن المشرق المتزعزع⁽³⁾
أتمشي به شم الأنوف عدائه
ورب الحمى يمشي بأنف مجدع⁽⁴⁾

(1) يريد بالبيض: السيوف.

(2) ندب التراث المضيع: أي البكاء على ما خلفته العرب والأقدمون من مآثر ومفاخر.

(3) الدعامة: عماد البيت. والمتزعزع: المضطرب.

(4) شم الأنوف: وصف يقال للسادة الأعزاء. والمجدع: المقطوع. ويقال ذلك للذليل. يقول: أعداء الشرق والطامعون فيه قد عزوا به وسادوا، وأهله ذلوا به واستكانوا. ويشير بذلك إلى ما جنته الامتيازات على الشرق.

عَزِيزٌ عَلَيْهِ يَا بَنِي الشَّرْقِ أَنْ تُرَى
كَوَاكِبُهُ فِي أَفْقِهِ غَيْرَ طُلُعَ
وَأَعْلَامُهُ مِنْ فَوْقِهِ غَيْرَ خُفِّقِ
وَأَقْلَامُهُ مِنْ تَحْتِهَا غَيْرَ شُرْعِ⁽¹⁾
وَكَيْفَ يُوقَى الشَّرُّ أَوْ يَبْلُغُ الْمُنَى
عَلَى مَا نَرَى مِنْ شَمْلِهِ الْمُتَصَدِّعِ؟
فَإِنْ كُنْتَ قَوَّالًا كَرِيمًا مَقَالَهُ
فَقُلْ فِي سَبِيلِ النَّيْلِ وَالشَّرْقِ أَوْدَعِ⁽²⁾

وقال الشاعر المسيحي اللبناني شبلي بك ملاط:

من للزمان بمثل فضل محمد	وعدالة كعدالة الخطاب
رفع الرسول عماد أمة يعرب	وأعزها بالآل والأصحاب
غشت الفتوح وشفقت راياتها	في الشرق فوق أباطح وهضاب
وتغلغلت في الغرب طائفة على	أكتاف صقر جارح وعقاب
لولا تجلد (شارل مارتل) خيمت	في قلبه بسرادق وقباب ⁽³⁾
ولكان حارب الغرب أندلساً به	شوقي يقول سواحر وسوابي

* * *

(1) الشرع: المسددة المصوبة إلى الغرض.

(2) عن ديوان حافظ إبراهيم.

(3) يشير إلى الملحمة الكبرى بين العرب والإفرنج في معركة (بواتي) بفرنسا، وقد أراد الله أن يقطع (شارل مارتل) على العرب خط تبسطهم بالفتح الإسلامي في أوروبا، بما أبداه من تجلد وصبر، ويعد بعض المنصفين من الإفرنج انكسار العرب يومئذ نكبة على الحضارة، ولو انتصروا لجاءت الحضارة الحالية بمائتي سنة قبل أوانها وكانت بأسلوب أفضل وأسعد!

حي الجزيرة في مسارحها وما
واسمع فديتك قصةً مصريةً
واستنجد القرآن قوماً جودوا
واقراً به فصحي اللغات مدلة
أخذت قريش بحزلها وبكت بها
لولا يد الإسلام لم تسلم بما
ولو ارعوى من صد عنها زاهدا
لأريته عند العلياء خطاءه
من لم يصن لغة الجدود فليس من
• قصيدة المحتفل به:

وبعد أن بويع شوقي من مختلف الأدباء والشعراء بالإمارة، ألقى
قصيدة رائعة -كعادته- استهلها بقوله:

مرحباً بالربيع في ريعانه وبأنواره وطيب زمانه
رقت الأرض في مواكب آذا ر وشب الزمان في مهرجانه

وبعد أن أبدع في وصف الربيع وجماله، وحلّق بخياله الواسع في
فضاءات الطبيعة الساحرة وما حباها الله به من روائع الحسن وآيات
الجمال قال:

ظللتنى عناية من (فؤاد) ظلل الله عرشه بأمانه⁽¹⁾
ورعاني رعى الإله له الفارو ق طفلا ويوم مرجو شأنه

(1) أقيم المهرجان التكريمي برعاية الملك فؤاد الأول.

ملك النيل من مصبيّه بالشّط إلى منبعيّه من سودانه
هو في الملك بدره المتجلى حَفّ بالهالتين من (برلمانّه)
زاده الله بالنيابة عَزَا فوق عزّ الجلال من سلطانّه
* * *

منبرُ الحق في أمانة (سعد) وقوام الأمور في ميزانه
لم ير الشرقُ داعيا مثل سعد رجّه من بطاحه ورعانه⁽¹⁾
ذكرته عقيدة الناس فيه كيف كان الدخول في أديانه⁽²⁾
نهضة من فتى الشيوخ وروح سريّا كالشباب في عنفوانه
حرّكا الشرق من سكونٍ إلى القيد وثارا به على أرسانه
وإذا النفسُ أنهضت من مريض درج البرء في قوى جثمانه
ثم تخلص إلى مهرجان التكريم، وعكاظ المبايعة بالإمارة الشعرية وقال:
يا عكاظا تألف الشرق فيه من فلسطينه إلى بغدانه
افتقدنا الحجاز فيه فلم نعثر على قسّه ولا سحبانّه
حملت مصر دونه هيكلا الدّين وروح البيان من فرقانه
وطّدت فيك من دعائمها الفصحى وشدّ البيان من أركانه
إنما أنت حلبة لم يسخرّ مثلها للكلام يوم رهانّه
تبارى أصائل الشام فيها والمذاكي العتاق من لبنانه
قلدتني الملوكة من لؤلؤ البحر من آلاءها ومن مرجانّه

(1) الرعان: رؤوس الجبال.

(2) الضمير في قوله (ذكرته) يعود على الشرق.

من بداواته ومن عمرانـه
فاتح الغرب من بني مروانـه
أفرغ الود فيه من عقيانـه
في ذرا الخلق أو وراء ضمانـه
يفرق المستبد من ثعبانـه
كالحواري في مدى إيمانـه
أو لئيم اللجاج في عدوانـه
في ثراه وهز من حسانـه
ق نجوم البيان من أعيانـه
واستبنا الكتاب من عنوانـه
منحوني جزاء ما لم أعانـه
أنا أسمو إلى نباهة شأنـه
لو جرى الحظ في سواء عنانـه
وأذاعوا الجميل من إحسانـه
مي وإن عشت طائفاً بدنانه
أين فضل الحمام في تحنانه؟
من يد في صفائه وليانـه

* * *

نخلة لا تزال في الشرق معني
حن للشام حبة وإليها
وحتني بمباي فيها يراعـا
ليس تلقى يراعها الهند إلا
أنتضيه انتضاء موسى عصاه
يلتقي الوحي من عقيدة حر
غير باغ إذا تطلب حقا
موكب الشعر حرك المتنبي
شرفت مصر بالشموس من الشرق
قد عرفنا بنجمه كل أفق
لست أنسى يدا لإخوان صدق
رب سامي البيان نبه شأنـي
كان بالسبق والميادين أولى
إنما أظهروا يد الله عندي
ما الرحيق الذي يذوقون من كر
وهبوني الحمام لذة سجع
وتر في اللهاة⁽¹⁾ ما للمغني

(1) اللهاة: اللحمـة المشرفة على الحلق في أقصى الفم.

رَبِّ جَارٍ تَلَفَّتْ مِصْرُ تَوَلَّى
بَعَثَنِي مَعَزِيًّا بِمَا قَسِي
كَانَ شَعْرِي الْغَنَاءَ فِي فَرْحِ الشَّرِّ
قَدْ قَضَى اللَّهُ أَنْ يُؤَلَّفَنَا الْجَرَّ
كَلِمَا أَنْ بِالْعِرَاقِ جَرِيحٌ
وَعَلَيْنَا كَمَا عَلَيْكُمْ حَدِيدٌ
نَحْنُ فِي الْفَقْهِ بِالْأَيَّامِ سَوَاءٌ
سَأَلَ الْكَرِيمَ عَنْ جِيرَانِهِ
وَطَنِي أَوْ بِلْسَانِهِ
قَدْ كَانَ الْعَزَاءُ فِي أَحْزَانِهِ
حُ وَأَنْ نَلْتَقِيَ عَلَى أَشْجَانِهِ
لَمَسَ الشَّرْقُ جَنْبَهُ فِي عَمَانِهِ
تَتَنَزَّى اللَّيْثُ فِي قُضْبَانِهِ
كُلُّنَا مَشْفِقٌ عَلَى أَوْطَانِهِ

• لمحات من حياته:

ولد أحمد شوقي بن أحمد شوقي سنة 1868م بالقاهرة ونشأ بها، وهو من أسرة ذات جاهٍ امتزجت فيها الدماء العربية والتركية، والكردية واليونانية⁽¹⁾.

تحدث عن نفسه في مقدمة الطبعة الأولى لديوانه (الشوقيات) قال: «سمعت أبي يردُّ أصلنا إلى الأكراد فالعرب، ويقول إن والده قدم هذه الديار يافعاً يحمل وصاة من أحمد باشا الجزار إليّ وإلى مصر محمد علي باشا... فأدخله الوالي في معيته، ثم تداولت الأيام، وتعاقب الولاة الفخام، وهو يتقلد المراتب العالية ويتقلب في المناصب السامية إلى أن أقامه سعيد باشا أميناً للجمارك المصرية⁽²⁾. ثم ذكر طرفاً عن سيرة جده لوالدته إلى أن قال عن نفسه: «أنا إذن عربي، تركي، يوناني، جركسي».

(1) تاريخ الأدب العربي للزيات.

(2) المفصل في تاريخ الأدب العربي لأحمد أمين وعلي الجارمي وغيرهما ج 2 ص 280.

ولما بلغ الرابعة من عمره أُدخل مكتب الشيخ صالح، وتفوق في التعليمين: الابتدائي والثانوي بعد ذلك، ثم دخل مدرسة الحقوق، وأرسله الخديوي توفيق في بعثة علمية إلى فرنسا، فدرس الأدب الفرنسي مع الحقوق، وعمل بعد عودته في (القلم الإفرنجي) بالديوان الخديوي، وتوثقت صلته بالقصر في عهد الخديوي عباس الثاني، فصار (شاعر الأمير) المعبر عن سياسته فأفقدته لك ثقة الوطنيين، وحين خلع الإنجليز عباس الثاني، وولوا السلطان حسين كامل مكانه، قابل شوقي هذه الخطوة بالسخط والألم وعبر عن ذلك في شعره، فأبعد إلى برشلونة في إسبانيا، فظلّ هناك طوال الحرب العالمية الأولى، وكان بعد عودته إلى مصر أقرب إلى الشعور بقضايا الشعب ومشكلاته حتى أصبح يعد نفسه شاعر الشعب والعروبة والإسلام بعد أن كان شاعر الأمير والخليفة⁽¹⁾

ولم يزل شوقي مهبط الوحي والإلهام، وموضع الإكبار والإكرام، حتى انتقل إلى جوار الله سنة 1932 فأقامت له وزارة المعارف وطائفة من أعيان الفضل والأدب حفلة تأبين بدار الأوبرا الملكية حضرها أقطاب العلم والأدب في الأقطار العربية، رحمه الله.

(1) الموسوعة العربية الميسرة ص 1101.

■ تكريم الأستاذ الفضيل الورتلاني

• تمهيد

قلتُ في مقدمتي للطبعة الثانية لكتاب الأستاذ المفكر الشيخ الفضيل الورتلاني:

(إن هذا العبقري المصلح لم ينل من أهل الفكر والعلم حظّه من العناية والتقدير وتواري عنا منذ أكثر من ثلاثين سنة، فلم نر عنه إلا كلمات قليلة من الأوفياء نُشرت أو أُلقيت بمناسبات لا تعدو أن تكون لمعا تسطع في جهام النسيان، تتبه وتذكر، وتوحي وترسم، وتتetch عواثر المنى، وكان من حق الأستاذ الفضيل على رجال الفكر والقلم في الجزائر وفي غيرها من البلاد العربية والإسلامية، أن يُوفوا له، ويقفوا على حياته وقفة الذاكر بالجميل، المدين بالفضل، المفتون بالعبقرية، المعجب بالوفاء والتضحية، فيفرغوا في سمع الزمان آيات الإعجاب والتقدير، وأناشيد الحب والوفاء، وذلك قليل فيمن فهم الحياة فكراً وجهاداً، وحيويةً ونشاطاً، وإيقاظاً للنائمين، وتحريكاً للخامدين، ومنافسةً في ميدان الخير والإصلاح).

إن إيماننا بغبن هذا الرجل -مع ما كُتب عنه أو قيل- ووجوب إنصافه، هو الذي جعلنا ندرجه ضمن هؤلاء الأعلام المكرمين، بالرغم من أننا لا نملك عن تكريمه بالقاهرة إلا معلومات قليلة لا تفي بالحاجة، ولا تضعه في مستواه رغم إلحافنا في البحث عنه، واستقصائنا لمظان ذلك، في الجزائر وخارجها، ولكننا رأينا أن إدراجه ضمن هؤلاء الأعلام -مع قلة المعلومات- خير من إهماله، وصدور هذا الكتاب خالياً من اسمه العريض البارز، لا سيما وهو من الذين أعدّهم القدر ليفجروا الحياة في

أمامهم، ويدفعوها إلى الأمام، ويرفعوها إلى الفوق، ومن أجل هذا كله، نقدمه حسب الجُهد المفروض، والعهد في ذلك على الظروف القاهرة (وبعض الناس الذين يعدون ولا يوفون، ويبرقون ولا يمطرون).

• لجنة الاحتفال

أصدرت لجنة تكريم الأستاذ الفضيل الورتلاني نشرة بمناسبة تكريمه، أهدتها إليه، جاء فيها:

وأخيرا، وبعد خمس سنين قضاهما الأستاذ المجاهد الإسلامي السيد الفضيل الورتلاني مشرداً مطارداً من حكومات الاستبداد نراه يعود إلى مصر، كما يعود الحق إلى نصابه، والسيف إلى قرابه، وقد تألفت في القاهرة لجنة من المجاهدين الإسلاميين والعرب، للاحتفال بتكريمه، والحفاوة به، وكانت هيئة الاحتفال مؤلفة من حضرات السادة:

الشيخ محمد البشير الإبراهيمي رئيس جمعية العلماء بالجزائر.

الشيخ محمد عبد اللطيف دراز وكيل الجامع الأزهر

الأستاذ محمد بدرة وزير الشؤون الاجتماعية بتونس

الأستاذ محمد محمود الزبيري وزير معارف اليمن سابقا

الأستاذ محمد الحسن الوزاني رئيس حزب الشورى بمراكش

الأستاذ إبراهيم شكري عضو مجلس النواب السابق

الأستاذ محمد العربي أبو جمالين ممثل حزب البيان الجزائري

الأستاذ عبد المجيد بن جلون مندوب حزب الاستقلال المراكشي

الأستاذ صالح عشناوي، مجلة الدعوة

الأستاذ علي البهلوان مندوب الحزب الدستوري التونسي

الأستاذ محمد خيضر مندوب حزب الشعب الجزائري.

وكان يشرف على الاحتفال الأستاذ محمد علي الطاهر، رئيس اللجنة الفلسطينية بالقاهرة.

• الدعوة إلى الاحتفال:

وجهت لجنة الاحتفال الدعوة إلى عدد كبير من فضلاء وعظماء مصر والشرق، ونزلاء القاهرة من أبناء العروبة والعالم الإسلامي، وهي هذه: (بمناسبة عودة المجاهد العربي السيد الفضيل الورتلاني إلى الديار المصرية من المنفى، ومن رحلاته وجهاده السياسي في البلاد الإسلامية، تتشرف لجنة الاحتفال بتكريمه، بدعوة حضرتكم إلى تناول الشاي بفندق "سميراميس" في الساعة الخامسة بعد ظهر الجمعة 28 نوفمبر سنة 1952م.

• حفل التكريم:

وما كاد موعد الاحتفال يحل حتى امتلأت القاعة الكبرى لفندق "سميراميس" بالشخصيات المتميزة من وزراء وسفراء، وساسة، وعلماء، وأدباء، وشعراء، ورجال الصحافة والعلم من مختلف الطبقات، وكان عدد الذين تبوأوا مقاعدهم على موائد الشاي ثلاثمائة غير الذين وقفوا على أقدامهم لكثرة الزحام.

• في ميدان الخطابة::

ثم أخذ الخطباء ينثرون دررهم، ويتنافسون في البيان العربي، ويتفننون في تصوير الشخصية المكرمة، وتجسيم معالمها التاريخية والإصلاحية والجهادية، فتوالى على المنصة العلامة الشيخ البشير الإبراهيمي رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، فألقى خطاباً بديعاً استعرض فيه سيرة صديقه وتلميذه، وتعمق في تصوير جهاده

وتضحياته وشخصيته، ثم الزعيم التونسي الأستاذ محيي الدين القليبي فألقى خطاباً ضافياً عن جهاد المحتفى به، ثم الأستاذ إبراهيم شكري العضو في مجلس النواب السابق فقدّم كلمة قيّمة باسمه وباسم الحزب الاشتراكي، ثم الشاعر الكبير الأستاذ علي أحمد باكثير، وألقى قصيدة عصماء يصف فيها جهاد صديقه الورثلاني، ومتاعبه المضنية مع المستعمرين، ثم شاعر آل البيت الأستاذ محمود جبر، وألقى قصيدة بليغة في جهاد الفضيل وشخصيته الوطنية القوية، ثم الأستاذ ع شماوي صاحب مجلة الدعوة ومن أركان جمعية الإخوان المسلمين، وألقى خطاباً فياضاً استعرض فيه صوراً من جهاد الورثلاني وطائفة من مواهبه وخصائصه المميزة، وهكذا تعاقب الخطباء والشعراء على المنصة، شدُّوا العقول والمشاعر إليهم ساعات، كل يحاول أن يكون الفارسَ المجلّي في الميدان، ونمطاً خاصاً، ونسقاً متميزاً في أسلوبه وبلاغته وفصاحته، وفي استجلاء جوانب الأستاذ المحتفى به، وفي الختام قام الأستاذ الفضيل، وألقى خطاباً تاريخياً فياضاً، جامعاً لكل ما يناسب المقام من شكرٍ وتقديرٍ للمحتفلين والحاضرين، وأساتذة بهذا التقليد الجميل الذي يعترف للعاملين بالجميل، وبحفز الهمم إلى ترسم خطاهم!

• لمحات من حياته:

ولد الأستاذ الفضيل الورثلاني بقرية (أنو) بلدية بني ورتلان ولاية سطيف في 18 يناير سنة 1900م ونشأ وترعرع في مسقط رأسه، وفيه حفظ القرآن الكريم وزاول دراسته الابتدائية، وأخذ مبادئ العلوم على شيوخ القرية أمثال الفقيه الشيخ السعيد البهلولي.

وفي سنة 1928 انتقل إلى مدينة قسنطينة للدراسة على الإمام المصلح الشيخ عبد الحميد بن باديس، وما إن تخرج حتى تولى التدريس بالجمعية الخيرية التي كانت نواة التربية والتعليم، وقد أفاد بعلمه وتربيته عدداً هائلاً من طلبة العلم مما كان له وقعه الحسن في نفس أستاذه، وجعله مثار إعجابه رضاه!

وفي سنة 1936م انتدبته جمعية العلماء للقيام بنشر مبادئها بفرنسا قصد توعية العمال الجزائريين بأروبا، وهكذا ظلّ في باريس قلباً نباضاً بالحيوية والنشاط، وسراجاً منيراً يضيء الدرب وجوانب الحياة!

وفي أواخر سنة 1940م أقلقته السلطات الاستعمارية الفرنسية وتبين أن بقاءه بباريس لن ينتهي إلا بالسجن أو النفي على الأقل، فغادر باريس إلى مصر والتحق بالأزهر الشريف، لإتمام دراسته العالية، فكان فيه مثار الإعجاب والتقدير بجدّه ووطنيته وسلوكه، حتى نال شهادة العالمية في كلية أصول الدين والشريعة الإسلامية!

وفي سنة 1949م أسّس مكتبا بالقاهرة يحمل اسم (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) وكان يمثلّه أحسن تمثيل، وبه ومنه كان يتّصل بمختلف الدول العربية الشقيقة قصد التعاون في شؤون الطلبة الجزائريين الذين يتجهون إلى الكليات والمعاهد العلمية بمصر!

وزار الأستاذ الفضيل كثيرا من الأقطار العربية والإسلامية، كالكويت، وإيران، والمملكة العربية السعودية، والبحرين، والباكستان، واليمن، كما زار بلدانا مختلفة في أروبا، كالليونان، وإيطاليا، وسويسرا، وإسبانيا، والبرتغال، وكان له في كل بلد يزوره أو يقيم به نشاط مكثف واسع، وصلات بمختلف الجمعيات والهيآت، والمنظمات، ورجال العلم، والفكر، والقلم، والدعوة!

وشاء القدر بعد عمر حافل بجلال الأعمال أن تكون نهايته في أنقرة
يوم 12 مارس سنة 1959 - رحمه الله -

وفي سنة 1987 نقل رفاته من أنقرة إلى مسقط رأسه ببني ورتلان
بالجزائر، وكان يوما مشهوداً وقف الناس حول نعشه وجوههم إلى الأرض
وأفكارهم إلى الماضي يستعيدون تاريخ هذا الرجل من يوم أن كان طفلاً
صغيراً يتعلم القرآن الكريم في كتّاب القرية، إلى يوم أن احتضنته
قسطنطينة طالبا في حلقات الإمام ابن باديس أو مساعداً له، أو معلماً في
التربية والتعليم، إلى أن كان بباريس يعمل لإنقاذ الآلاف من أبناء الجزائر
من التفرنس والتفسخ، إلى رحلاته في مختلف الأقطار العربية
والإسلامية والبلدان الأوروبية، إلى يوم وفاته بأنقرة⁽²⁾.

إن الفضيل الورثلاني فصلٌ قيّمٌ في تاريخ الجزائر، وصفحةٌ مشرقة
في حياة الأمة العربية، الإسلامية، ومثال للاقتداء، في قوة الإيمان،
ورسوخ العقيدة، وتأجج العزيمة، وصدق الوطنية، وكان - كما قال
المرحوم الأستاذ أحمد حسن الزيات في المرحوم إسماعيل صدقي -:
قلّما نجد له أشباهاً فيما غبر من الدهر الطويل، لا يحبُّ الوقوف على
الهامش، ولا الدروج على الشاطئ، إنما كان يسير قُدماً في الصلْب،
ويسبح في وقْدة⁽²⁾ الداء، وعبقريّة لا تخبو حتى في عشية الموت!

لكلّ هذا استحقّ هذا التكریم من أهل العلم والأدب والدعوة في مصر،
واستحقّ أن يُدرَج في هذا الكتاب بهذه الكلمة القصيرة المقتضبة. وإنه
ليشفعُ في قصرها أنها صورةٌ معبرة، جمالها من صدق الضمير،
وإخلاص القلب، وشرف المهنة، وحرمة البيان!

(1) كتبنا حياته بإسهاب في مقدمتنا لكتابه القيم (الجزائر الثائرة) وفي كتابنا (أعلام من المغرب العربي ج2).

(2) وقْدة المرض: شدته المفضية إلى الموت.

■ تكريم جمع من أهل العلم والأدب بمصر:

وفي عيد العلم بالقاهرة سنة 1962 كرم الرئيس جمال عبد الناصر، طائفة من العلماء والأدباء بجوائز الدولة التقديرية والتشجيعية، فكان من المكرمين الكاتب الشهير الأستاذ حسن الزيات، وألقى كلمة في الحفلة نيابة عن المكرمين، ومما جاء فيها قوله يخاطب الرئيس:

«عصرك يا سيدي الرئيس قد انفرد من بين العصور بأنه عصر الإنسان الحر، والمواطن الحر، والعامل الكادح، والعامل المجتهد، والأديب المستقل، فكل منهم يشعر اليوم بأن له حقا يناله، وواجبا يؤديه، وورزقا يكفيه، ووطنا يعتز به.

عصرك عصر السلام والوئام والوحدة، فأنت تسعى دائما للسلام الدائم بين الدول، وللوئام الكامل بين الشعوب، وللوحدة الشاملة بين العرب، لا تبتغي من وراء أولئك كله إلا ما ابتغاه ذوو الرسائل من قبلك». وقوله: «سيدي الرئيس:

إن الأدب الذي تكرمه الليلة في أهله قد بشر بك، ومهد لك، ودعا إليك!». ثم نقل كلاما عن مجلته «الرسالة» تنبأت به عن مستقبل مصر، وعن الرجل المنتظر الذي يحقق آمال مصر والأمة العربية، وذلك سنة 1935 وسنة 1940. وختم الزيات خطابه البليغ بقوله:

«سيدي الرئيس:

إذا تفضلت الليلة على رجال العلم والفن والأدب بالتقدير والتشجيع فإنك تقدر سلاحا من أمضى أسلحتك، وتشجع جنودا من أخلص جنودك!

وإني أتقدم بأسمائهم جميعا، وباسمي إلى سيادتكم بأصدق الشكر وأعمقه، ونسأل الله أن يديم عصرك، ويعز نصرك، ويتم عليك وعلى أصحابك نعمة التوفيق!

• لمحات من حياة أحد المكرمين

وهو أحمد حسن الزيات:

ولد أحمد حسن الزيات بإحدى قرى المنصورة شمال القاهرة سنة 1886، وتعلم بالكتاب، ثم انتظم في سلك الطلبة بالأزهر في القاهرة فكان هو والدكتور طه حسين زميلين، ومن رسوخ هذه الزمالة بينهما أنه لما فصل طه حسين من الأزهر فصل معه الزيات، ولما عاد عادا معا.. وانتسبا إلى الجامعة المصرية معا أيضا، ولكن ظروف الزيات لم تساعد على إكمال تعليمه فاشتغل بالتدريس.

وأهم أعماله أنه أصدر «الرسالة» التي كان لها دورها الكبير في النهضة الأدبية الحديثة، وكانت لأمد طويل ميدانا تتبارى فيه أقلام أعلام الأدب.

وله مؤلفات عديدة منها «تاريخ الأدب العربي»، «في أصول الأدب»، «دفاع عن البلاغة»، ويمتاز أسلوبه بالعناية الشديدة بالأسلوب، والاهتمام بحسن الوقع وجمال الجرس!

وتوفي - رحمه الله - سنة 1968.

التكريم في المغرب العربي

- تكريم مؤرخ الجزائر الشيخ مبارك الملي
- تكريم الإمام الشيخ عبد الحميد بن باديس
- تكريم العلامة الشيخ الطاهر بن عاشور
- تكريم الأستاذ أحمد توفيق المدني
- تكريم العلامة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي
- تكريم العلامة الشيخ بيوض
- تكريم العلامة الشيخ المكي الناصري

التكريم في المغرب العربي

■ تكريم مؤرخ الجزائر الشيخ مبارك الميلي

أقيم حفل فاخر بهيج سنة 1932 ببناية الجمعية الخيرية بقسنطينة حضره جم غفير من علماء الجزائر وأدبائها لتكريم مؤرخ الجزائر الأستاذ مبارك الميلي بمناسبة صدور الجزء الثاني من كتابه «تاريخ الجزائر في القديم والحديث»، وقد ألقى في هذا الحفل خطب وقصائد شعرية كان لها وقعها في نفوس الحاضرين، وفيما يلي كلمة إمام النهضة الإصلاحية بالجزائر الشيخ عبد الحميد بن باديس التي كتبها عن هذا التكريم: «إنما تقاس درجة الأمم بما تتجبه من الرجال، وإنما تكون منجبة للرجال يوم تصير تعرف أقدار العاملين من أبنائها، وهذه الجزائر المحبوبة قد صارت تعرف أقدار العاملين من أبنائها وتوليهم ما يستحقونه من تعظيم وتكريم، وهذه قسنطينة عروس القطر الشرقية تسبق أخواتها إلى ذلك، فقد أقام أدباؤها وفضلاؤها حفلة تكريم في ليلة باهرة ببناية الجمعية الخيرية للإستاذ مبارك الميلي بمناسبة إصداره للجزء الثاني من تاريخه العظيم، فنهئ الجزائر بابنها البار، ونهئ قسنطينة بسبقها للفضل، ونهئ صديقنا العزيز بتقدير أمتة لعلمه المشكور⁽¹⁾.

• لمحات من حياته:

الشيخ مبارك من دعاة الإصلاح، ومن أقطابه البارزين في الجزائر، ولد بمدينة ميلة سنة 1316هـ/1898م ودرس على الإمام عبد الحميد

(1) الشهاب، ج8، م8، غرة ربيع الثاني 1351هـ/ أوت 1932م.

بن باديس، وبالزيتونة بتونس، وتخرج منها سنة 1922، واشتغل بالتدريس والكتابة في الصحف، ولما تأسست جمعية العلماء في سنة 1931م انتخب أميناً لماليتها، وعاش عمره القصير الذي أطاله بالعمل الجاد المثمر مخلصاً لدينه ولغته ووطنه!

وتوفي يوم الجمعة 52 صفر 1364هـ/ 1945م في حدود الساعة الحادية عشرة صباحاً بداره بميلة، ودفن عشية يوم السبت في مشهد عظيم حضرته وفود الأمة من مختلف أنحاء القطر الجزائري، وصلى عليه المرحوم الشيخ العربي التبسي، وأبنه بخطاب بليغ مؤثر، عدد فيه أعماله الصالحة، ومآثره الخالدة، ومن آثاره رحمه الله:

«تاريخ الجزائر في القديم والحديث»
«رسالة الشرك ومظاهره».

■ تكريم الإمام الشيخ عبد الحميد بن باديس

وأروع احتفال سجله التاريخ في صفحاته المشرقة احتفال الجزائر بختم الإمام عبد الحميد بن باديس لتفسير القرآن بالجامع الأخضر بقسنطينة بعد خمس وعشرين سنة من الدرس والإلقاء على الطريقة السلفية، يقول العلامة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي في تمهيده للعدد الخاص من (الشهاب) بهذا الاحتفال:

«أتمَّ الله نعمته على القطر الجزائري بختم الأستاذ عبد الحميد بن باديس لتفسير الكتاب الكريم درساً على الطريقة السلفية وكان إكماله إياه على هذه الطريقة في خمس وعشرين سنة متواليات، مفخرة مدخرة لهذا القطر، وبشرى عامة لدعاة الإصلاح الديني في العالم الإسلامي

كله، تمسح عن نفوسهم الأسى والحزن لما عاق أمام المصلحين محمد عبده عن إتمامه كتابه».

أدركت الأمة الجزائرية أهمية القرآن في حياتها، وأدركت قيمة هذه النعمة الكبرى التي حققها الله على يد إمام نهضتها فاحتفلت بهذا الختم التاريخي وكرمت هذا الإمام المصلح، وكان الاحتفال عظيما في مظهره ومخبره، عميقا في مغزاه ودلالاته، وسيظل عبر العصور المتعاقبة على ساحل الحياة وسام شرف على صدر الجزائر، ومفخرة يتغنى بها التاريخ مدى الحياة.

ففي صبيحة يوم الأحد 13 من ربيع الثاني عام 1357 هـ الموافق لـ 12 جوان سنة 1938 عند شروق الشمس، هُرِعت الوفود التي أقبلت من مختلف أرجاء الجزائر إلى الجامع الأخضر بقسنطينة لحضور ختم الأستاذ الإمام لتفسير القرآن الكريم، وكان الدرس الختامي تفسير المعوذتين.

وقد استحوذ الإمام ببلاغته وفصاحته على القلوب والمشاعر طوال ساعة ونصف وغاص بالعقول في أعماق السورتين، وحلق بها في فضائاتهما البعيدة الفسيحة!

وفي صباح يوم الإثنين الموالي ليوم الختم تلاحقت الوفود المختلفة إلى كلية الشعب، وما إن دقت الساعة التاسعة حتى تصدرت هيئة جمعية العلماء سدة القاعة، وكانت الرئاسة لأمير البيان الشيخ البشير الإبراهيمي، وابتدأ الحفل بتقديم مقرر تلا آيات من كتاب الله، ثم شرع الرئيس في تقديم الخطباء والشعراء، وها هي أسماؤهم على ترتيبهم في الإلقاء:

- الشيخ ناصر الدين ناصر
- الشيخ الجيلاني بن محمد الأصنامي
- الشيخ باعزیز بن عمر
- الشيخ عيسى الدراجي
- الشيخ البشير الريفي
- الشيخ محمد حسن الورثلاني
- الشيخ أحمد بن عبد الحفيظ السالمي
- الشيخ محمد الهادي عادل العلوي
- الشيخ محمد المنصوري
- الشيخ أبو بكر الأغواطي
- الشيخ محمد بن العابد الجيلالي
- الشيخ أحمد البوعوني
- الشيخ مبارك جلواح
- الشيخ عمر بن البسكري العقبي
- الشيخ سعيد صالح
- الشيخ محمد العيد
- الشيخ عبد الحفيظ الجنان
- الشيخ محمد البشير الإبراهيمي
- الشيخ عبد الحميد بن باديس

• لقطات من خطب الخطباء وقصائد الشعراء:

ونرى من المفيد، ومن السداد أيضا أن نقدم من كل خطبة أو قصيدة
فقرة أو أبياتا ليقف القارئ الكريم على مكانة الإمام المحتفل به في القلوب،
وأثر نهضته في الجزائر، ومدى احتفاء النفوس بختم كتاب الله تعالى.

قال الشيخ ناصر في ختام خطابه:

وختاما إليك أوجه خطابي أيها الروح الذي بعث الحياة في أعصاب هذه الأمة وصاغ لها من نفسه قلبا يطفح إحساسا وشعورا بالواجب! إن خطابي المتواضع ليتضاءل أمام عظمتك، وما الذي أقول وأنت تاريخ على حدة، وما مثلي ومثلك إلا مثل ذلك الأعرابي الذي فقد راحلته وضل سواء السبيل في حندس من ظلام الليل واهتدى على ضوء القمر إليها، ورفع إلى القمر رأسه فقال:

ماذا عسى أن أقول فيك أيها القمر؟ إن قلت زاد الله رفعة، فمسكنك السماء، أو ضوءا ففيك كل الضياء، أو محبة فقد ملكت كل فؤاد، أو منفعة فأنت النفع للعباد والبلاد!

وقال الشيخ الجيلاني الأصنامي في خطابه:

هذه الخدمات الجلّى -أيها السادة- التي قدمت للإسلام والمسلمين، وهذه الجهود المتضاعفة لتطهير العقائد وتهذيب النفوس، وتثقيف العقول، والارتقاء بالأفكار إلى أسنى معارج التفكير، وهذه الأصداء العلمية المتجاوبة في أرجاء الجزائر كلها كانت بفضل ما قام به الأستاذ الحكيم في هذه الديار من تفسير كتاب الله على الوجه الذي يحقق إعجازه وخلوده، وبين للمفكرين والمرتابين أجلى بيان أن هذا الكتاب الذي هو أعز علينا من أرواحنا كافل للسعادة، واف بالمصالح، صالح لكل عصر، مسائر لكل رقي، غير مناف للعلم، بل هو منبعه، ولا مناف للمدنية، بل هو مشرعها!

وقال الشيخ باعزیز بن عمر في خطابه:

إن عظمتنا التاريخية إسلامية مستمدة من القرآن، فلا يمكن أن ننهض بغير الإسلام وكتاب الإسلام ولغات الإسلام، وعلى هذا فإننا نعد ختم تفسير الذكر الحكيم على طريقة أستاذنا عبد الحميد بن باديس عرضا جميلا لعناصر تلك العظمة وتثبيتا لها في أذهان الناشئة وبناء متينا في صرح نهضتنا العلمية الدينية المباركة، وهذا لا يتيسر إلا لمثل ابن باديس في علمه الغزير، وما حباه من مواهب فياضة، ومقدرة خارقة، في الغوص على المعاني البعيدة والكشف عن أسرار التنزيل في أسلوب من بلاغته وإعجازه!

وقال الشيخ عيسى الدراجي:

إن التأسيسي شرط من شروط ديننا، وإني أدعوكم أن تتأسسوا في خدمة العربية والإسلام بأستاذ الجزائر وفخرها على الأقطار، الأستاذ الشيخ عبد الحميد بن باديس وتتبعوا خطواته الثابتة، في بناء هذه النهضة المباركة وغرس هذا النشاط الطاهر!

وأضاف:

وإن ختم التفسير بالأمس سيسجله التاريخ معجزة لوطنكم ومأثرة لجيلكم، فلنحرص على أن يكون يومنا خيرا من أمسنا وغدنا مرييا في الصالحات على يومنا.

وقال الأستاذ البشير الريفي السطيفي:

إذا كان من مقتضى الحكمة أن توضع الأشياء في مواضعها مقدرة بمقاديرها، وتعطى الأسماء لمسمياتها منزلة في منازلها، فإن الذي يجب أن تخلع عليه هذه الحل الضافية من الأوصاف والألقاب على سبيل

الاستحقاق والأصالة والأولوية هو هذا الرجل القرآني، خلقا وأدبا وروحا ودينا وعقيدة: شيخنا -وما أشرفها من إضافة- عبد الحميد بن باديس أستاذ الشمال الإفريقي، وروح النهضة الجزائرية، وقائد الحركة العلمية وباعثها من مرقدتها.

وقال الشيخ محمد الحسن الورتلاني يخاطب الإمام:

سلام عليك -أيها الجليل- بما جاهدت في سبيل العلم والدين والعربية، سلام عليك بما غالبت في سبيل الثلاثة من الصعاب، وما قاسيت من الأتعاب، سلام عليك بما جلدت وصابرت، وبما سال به قلمك في تجلية حقائق الدين، وبما نفثه لسانك من كلم كانت نجوما للمهتدين، ورجوما على المعتدين، سلام عليك بما خدمت الأمة الجزائرية في أبنائها الذين هم ذخيرة مستقبلنا، وفي دينها الذي هو مناط فخرها، وفي لغتها التي هي ترجمان مجدها، فشكراً لك منها يعبر عنه هذا الاحتفال، وهنيئاً لك ما بنيت من الأعمال، وربيت من الرجال وجزاك الله أحسن ما يجزي به عباده الصالحين!

وقال أحمد بن عبد الحفيظ السالمي:

يا أبناء العروبة والإسلام في الجزائر، إن الجزائر تستغيث بكم لردوا عليها مجدها، وتحياؤها تالد عزها، وتحتج عليكم بهذا الابن البار الذي قام وحده بإحياء ما قتله الجبن واليأس والجهل والجمود والخرافات من الأخلاق الشريفة في نفوس الجزائريين، وتناديكم أن من البر بها أن تعاضدوه، وتكونوا سواعده القوية، فتبرروا عمله، وتحققوا أمله، وما عمله إلا إحياء الإسلام والعربية بإحياء كتاب الله وسنة رسوله، وما أمله إلا قتل الجهل وازدهار هذا الوطن، بالعلم في دائرة الإسلام والعربية.

وقال الشيخ اليعلاوي:

بعد أن تحدث عن الأمة العربية في جاهليتها، تحدث عنها وهي في ضوء القرآن والإسلام، سيدة العالم متبوعة لا تابعة، مضاف إليها لا مضافة، أمرة لا مأمورة، قائدة لا مقودة، ثم قال:

على هذا الأساس -القرآن والسنة والعربية- بنى أستاذنا الجليل عبد الحميد بن باديس حين نظر من ربع القرن مضى إلى حال الأمة الجزائرية المسلمة ووازن بين ماضيها وحاضرها وحدثته نفسه الكريمة بأن يقف عمره المبارك على خدمتها وفكر في الوسائل لذلك العمل فرأى -حفظه الله- أن دواء هذه الأمة في القرآن، فشرع في تفسيره بالجامع الأخضر على طريقة السلف الصالح، ودأب على ذلك لا يثنى عزمه شغب مشاغب، ولا تعصب متعصب، وقد فعل ذلك التفسير فعلة في النفوس المستعدة له ووجدت فيه العلاج النافع، وتبدلت حال الأمة في عقائدها وأخلاقها من سيء إلى حسن إلى أحسن، وها هو ذلك العمل العظيم يتم في ربع قرن، وها هي الأمة الجزائرية تعرف قدر العامل وقيمة العمل فترفع مكانة العامل بهذا الاحتفال التاريخي العظيم، وتفد عليه من أقاصي القطر رافعة صوتها بتمجيد الأستاذ معترفة له بجلائل أعماله مقلدة إياه زعامتها الدينية والعلمية هاتفة بحياته، شاكرة له على تمام نعمة ختم التفسير...

وقال الشيخ محمد المنصوري:

إن مستقبلنا لجليل ولكنه متوقف على عزائم قوية، وهمم بعيدة في طلب المعالي، ونفوس شابة تتربى على هذه الروح القرآنية الكاملة وعقائد راسخة في الحق، وبصائر نيرة فيه وكل هذا ميسور لمن حكم القرآن في نفسه:

يا قوم قد وعُر الطريق أمامكم فإذا عزمتم تسهل الأوعار

وقال الأستاذ أبو بكر الأغواطي:

إن في فضاء التاريخ أعلاما من الحق والنور لم يدركها الفناء بطمس، ولم يغيرها الصفاء في رمس، وما هي إلا أعمال رجال ملهمين مخلصين، وضعوها لهداية الضالين، وإشاد الحائرين!

والمحتفي به اليوم أستاذنا وأستاذ أساتذتنا عبد الحميد بن باديس هو من هؤلاء الرجال الذين يعملون الأعمال، ويبنون الرجال، ويحيون الأجيال، فلا يقوى الدهر على إطفاء ما أشعلوا وإخفاء ما عملوا بحال! وأضاف:

إن الاحتفاء الحقيقي الذي تقربه عين الأستاذ هو أن نعمل على تمهيد السبل لغايته، وتيسير الوسائل لتلامذته الذين يحملون المشاعل للدلالة على معالمه، وأن نهَيِّئ الأسباب لإتمام ما بدأ به، من نشر العربية، والهداية الإسلامية القرآنية في جميع الأوساط الجزائرية حتى تتغلغل إلى أعماق صحاري وهران، وتصعد إلى شماريخ جبال جرجرة، وأن نشبتها في نفوس الجزائريين، كما ثبتها أسلافنا في نفوس الأفارقة الذين اعتز بهم الإسلام والعربية.

وقال الشيخ محمد بن العابد الجلالي:

بعد أن تحدث عن القرآن الكريم وعن بعض أسرارهِ المثيرة المعجزة قال: هذا هو القرآن الذي نحتفل به الآن في شخص من أنفق حياته وراحته في خدمته!

ومن كعبد الحميد يستحق التكريم، وفي كل صدر من صدور الحاضرين شعاعة من هدي القرآن انبعثت من ذلك القلب الذي بين جنبي

عبد الحميد، لقد كانت وجهتنا بالعبادة هياكل الشياطين، ومنذ صاح بها
عبد الحميد فنسفتها صيحاته لم نجد أمامنا إلا القرآن وجنده الباسل،
ومجلى أسرار عبد الحميد!

فهل يكفي في تكريم رجل، هذه آثاره، كلمة متواضعة يقولها عاجز
مثلي يقضي منها جزءا طفيفا من واجب الأبوة الروحية؟
إن واجب عبد الحميد يقضي برفع تمثال له في كل مدينة من مدن
القطر، وإذا كان هذا متعذرا لظروف القاهرة فلا أقل من أن يتخذ رسمه
من أنفوس وأجمل ما تحلى به صدور البيوت!

من قصيدة الشيخ أحمد البوعوني:

ولما انتهى دور الخطباء جاء دور الشعراء، فكان أول من افتتح به
شاعر مسن بلغ عمره قرنا، هو الشيخ أحمد البوعوني، ألقى قصيدته
أحد الحاضرين لعجزه عن الوقوف والإلقاء.
ويحسن بنا أن لا نمر على هذا الشيخ دون أن نذكر عنه ما يفيد أبناء
هذا العصر وخاصة منهم طلبة العلم:

فبالرغم من كبر سنه، ودراسته عن مشاهير العلماء، أمثال الشيخ عبد
القادر المجاوي، والشيخ حمدان الونيسي، فإنه ما كاد الأستاذ الإمام عبد
الحميد بن باديس ينتصب للتدريس بقسنطينة وهو في درجة أحفاده،
حتى أخذ مكانه بين الطلبة، وظل ملتزما للدروس لا يتخلف، حاضرا
بعقله وقلبه لا يشغله شيء، وكان في الدرس مثالا للجاد النشيط الذي
يواكب الدرس مناقشا، باحثا عن الحقيقة، متلهفا إليها، وعدَّ الرئيس
الأستاذ إبراهيمي - وهو يقدمه إلى الجمهور - من لطائف الاتفاق في
ربط الأحفاد بالأجداد: «أن الشيخ البوعوني - أبقاه الله - كان ينظم

القصاصد في تهنئة مشائخه في المناسبات وفي أختام دروسهم المهمة، وقد بارك الله في عمره حتى شهد الاحتفال بختم التفسير من الشيخ ابن باديس، وقد حضره كله في ربع قرن فيما نعتقد، ففاضت نفسه المنصفة بهذه القصيدة، وكانت قصائده تاريخاً لثلاثة أجيال كاملة».

نوه الأستاذ بفضيلة الإنصاف وقال: «إن الشيخ البوعوني حجة الله على علماء عصره الذين يذهب بهم الكبر والاستتكاف إلى حرمان أنفسهم من العلم استطالة واغتراراً بمكانتهم في السن أو الجاه، واحتقاراً لمن هو دونهم سناً، وإن كان فوقهم علماً».

وها هي أبيات من القصيدة:

أَمْجَدُ بِاللِّسَانِ وَبِالضَّمِيرِ	إِلَهَ الْعَرْشِ ذَا الْفَضْلِ الْكَثِيرِ
وَأَحْمَدُهُ وَحَمْدُ اللَّهِ ذَخِرِ	أَقْدَمُهُ لِيَوْمِ قَمْطَرِيرِ
وَاثَلْتُ بِالصَّلَاةِ وَبِالتَّحِيَّاتِ	عَلَى الْمَخْتَارِ هَادِينَا الْبَشِيرِ
وَبِالرِّضْوَانِ عَمَّنْ تَابَعُوهُ	بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ النُّشُورِ
بَنَى جَاءَ بِالْقُرْآنِ يَدْعُو	عِبَادَ اللَّهِ لِلْحَقِّ الْمُنِيرِ
وَإِنْ الشَّعْرُ مِمَّنْ عَاشَ قَرْنَا	لِكَالْهَذْيَانِ فِي الطِّفْلِ الصَّغِيرِ
وَلَوْ عَادَ الشَّبَابُ لَقَمْتُ فِيهَا	مَقَامَاتِ الْفَرْزَدَقِ أَوْ جَرِيرِ

من قصيدة الأستاذ مبارك جلواح العباسي:

حَيَّ بَدْرًا بِأَفَقِ (سَرْتَا) تَلَالَا
يَكْسِبُ الْأَرْضَ وَالسَّمَاءَ جَمَالَا
حَيَّ عَنِّي حَيَالُهُ هَالَةٌ قَدْ
أَلْبَسَتْهُ مَهَابَةٌ وَجَلَالَا

ذاك عبد الحميد سيد من أحياء
الهدى بيننا واردي الضلالا
وهي ما أوفد التقى من وفود
ساعة الختم تحضر الاحتفالا
قد دعاها عبد الحميد فلبت
لدعاه ضياغما وشبالا
فتبارت من كل فج إلى دا
ر إمام الهداة تزجي الرحالا
وتلاقت بساحها كالضواري
زائرات والكدراري تلالا
تملأ العين والبصائر نورا
وحجى كل يائس آمالا
من قصيدة الشيخ عمر بن البسكري العقبي:
لا ومبداك ما لسيرك حد
وختام يا أيها ذا المجد
إنما تلك راحة بعدها تسد
تأنف السير لا يعوقك ضد
إيه عبد الحميد من تلکم الرو
ح التي من لهيبها كان جند
فابتن اليوم للجزائر مجدا
أنت من يبتنى به ذا المجد

وانشر اليوم للجزائر تاريـ
حاً طواه الجهول والمستبد
إنما أنت آية الله تُتلى
ما لمن يطلب الهدى منك بد
رددتها مصر فشام فهند
وبها آمنت حجاز فنجد
قمتَ تدعو لله وحدك والخذ
ق جميعاً عن دعوة الله صدوا
فتحملت فيه مُرَّ البلاء حـ
تـى كان البلاء عندك شهد
باصطبار حتى كأنك أرض
وثبات حتى كأنك طود
من قصيدة الشيخ السعيد صالحى اليعلاوى:
يا قسنطينة يا زين الدمى
أنت خود في حبير السندس
قد سقيت الروح من راح اللمى
وسكرنا من شفاه لعس
فتأدب يا قريضا في خيال
إنها آيات رب العالمين
ولئن شوقني سر الجمال
إن ذا المحفل للروح الأمين

فاصغ للقرآن آيات الحلال
مالك الأنفس والنور المبين
هذه الآيات آيات السما
هذه الطهري طهور الأنفس
دع خيالا فلقد زال العمى
وتقدم لرياض القدس
إلى أن يقول:

فتبصر إذ لعل ابن كثير
عاد للتفسير في عهد جديد
أو لعل القرطبي المستنير
أو رشيد الدين في العصر الشديد
جدد النظرة في الجسم الصغير
أصبح أنه عبد الحميد
ابن باديس ورأس العلما
طيب الأصل كريم المغرس
قد كساه العلم ثوباً معلما
ولباس العلم أغلى ملبس
والموشح طويل تجاوزت أبياته المائة كلها على هذا اللون الجميل،
والصياغة المحكمة، والمعاني اللطيفة الرقيقة، وحسبنا ما قدمنا منه
ليلا يتسع المقام.

من قصيدة الشيخ محمد العيد آل خليفة:
بمثلك تعزز البلاد وتفخر
وتزهر بالعلم المنير وتزخر
طبعت على العلم النفوس نواشئا
بمخبر صدق لا يدانيه مخبر
نهجت لها في العلم نهج بلاغة
ونهج مضادات كأنك حيدر
حبتك عمالات الجزائر حرمة
مشرفة عظمى بها أنت أجدر
ففي كل وفدٍ راشد لك دعوة
وفي كل حفل حاشد لك منبر
يراعك في التحرير أمضى من الطبى
وأفضى من الأحكام أيان يشهر
ودرسك في التفسير أشهى من الجنى
وأبهى من الروض النضير وأبهر
ختمت كتاب الله ختمة دارس
بصير له حل العويص ميسر
فكم لك في القرآن فهم موفق
وكم لك في القرآن قول محرر

وبينت بالقرآن فضل حضارة
أقر لها كسرى وأذعن قيصر
حكيت (جمال الدين) في نظراته
كأن (جمال الدين) فيك مصور
وأشبهت في فقه الشريعة (عبده)
فهل كنته أم (عبده) فيك ينشر
أعد يا بن باديس الحديث وأبدعه
بأنعمك اللاتي بها أنت تؤثر

ويقول:

وصحف من الله الكريم كريمة
مطهرة فيها كلام مطهر
أقام لنا (عبد الحميد) أدلة
على علمها الجم الذي ليس يُحصر
أبان الهدى فيها لمن يتبغي الهدى
وساق بها الذكرى لمن يتذكر
لقد ناهز الخمسين في العمر دأبا
على الجد لا يشكو ولا يتضجر
قضى ربع قرن ينشر العلم صابرا
على عقبات ما عليهن يُصبر
وربى في ظل السعادة مقبلا
على العلم يرعى شخصه ويقدر

بدوحة عز (للمعز) رفيعة
على الدوح صلب فرعها ليس يُكسر

ويقول:

فيا جامعا مثل المنارة لامعا
تنور فيه الحق من يتنور
ويا مسجدا للعلم أسس والتقى
وبالوعظ والإرشاد مازال يُعمر
وبيتاً يُعز الله من بفنائمه

يذل ويخزي الله من يتكبر
ابن عن جمان فيك يُنظم خالصا
ودرّ كريم في رحابك يُنثر
همى بك غيث لابن باديس هاطل

فأنت به ريان كاسمك أخضر
أرى (الأزهر) المعمور فيك مجددا

كما كان يحميه (المعز) و (جوهر)
كأنك يوم الختم في الأرض جنة
مفتحة أنهارها تتفجر

سلاح على العلم الذي فيك يبتغي
سلام على المجد الذي فيك يذكر

سلام على الدرس الذي فيك يفتدى
إليه من الفج العميق ويحضر
سلام على الناس الذين به اهدوا
إلى آية (الناس) التي فيه تظهر
سلام على ثاني الربيعين إنه
كأوله في أشهر العام أنور
سلام على (كلية الشعب) إنها
تحف بأنصار السلام وتخفر
سلام على شيب على الخير تلتقي
بها وشباب للمبرة يسهر
فيا محفلاً ما مثله اليوم محفل
حوى معشرا ما مثله اليوم معشر
به حلل بيض وسود كثيرة
وفيه رؤوس كاسيات وحسّر
نظيرك يرقى بالبلاد ويعتلى
ومثلك يحظى بالمراد ويظفر
ويقول:

فيا شعب لا يحزنك أنك تبتي
وأنك تُقصي عن علاك وتُقصّر

فنحن الأساطين التي بك تعتلي
ونحن الأساطيل التي بك تمخر
ونحن الرجال الثابتون عقيـدة
على المبدأ الأسمى إلى حين تُقبر
نقودك مأمون المسالك سالما
إلى حيث لا تشقى ولا تتضرر
ونطلب بالقول الصريح حقوقنا
ولكننا في القول لا نتهور
ونرضى بحكم الله في كل موقف
فلا نكشر الشكوى ولا نتطير
فثابر على الحق الذي أنت طالب
فإنك في تضييعه لست تُعذر
ولا تؤذ من أذاك فالحكم مورد
هنيء مريء لم يسؤ منه مصدر
وكن مستميتا في جهادك ثابتا
وإن كنت بالجلى الرصيدة تُنذر
وإن تكن الجلى عليك كبيرة
به، فالحسب الله، والله أكبر
هذا وأبيات القصيدة كلها جواهر، فأية جوهرة اخترتها، نازعتك
نفسك إلى جوهرة أخرى، ولكن فيما أوردناه منها كفاية.

وقال الشيخ عبد الحفيظ الجنان:

إنني باسم أعضاء لجنة الاحتفال بختم تفسير القرآن -والخطيب أحد أعضائها- أرحب بكم وبجمعكم الطاهر، وأشكر عواطفكم النبيلة، وإحساسكم الشريف، وتقديركم للرجل الفذ أستاذنا الأكرم الشيخ عبد الحميد بن باديس الذي وضع حجر الأساس لهذه النهضة العلمية المباركة، على عموم الأمة المحمدية.

خطاب العلامة الإبراهيمي:

وبعد أن انتهى دور الخطباء والشعراء، ارتجل أمير البيان العربي في الشمال الإفريقي، الأستاذ محمد البشير الإبراهيمي خطابا تهافتت عليه أقلام الكاتبين، ولكنها لم تقيد منه إلا القليل، وها هي فقرات قليلة منه لا تروي الضمآن ولكنها قد تبرد غليله.

أيها المלא الكريم:

ما أشرقت شمس في الجزائر الحديثة على مثل يومكم بالأمس، وقد مضى بجلاله وروعته، ولم ينطق في وصفه لسان بكلمة، ولا اختلجت في نعتة شفتان بحرف، لا زهدا فيه ولا عدم عرفان لحقه، ولا غبنا لحقيقته كيوم شوقي الذي قال فيه:

غبت حقيقته ومات جمالها

باع الخيال العبقري الملهم

وإنما هو كلام الله، وبيت الله عقدا الألسنة بجلالهما، وحبسا النفوس على جمالهما، فجاء اليوم وجاءت كلية الشعب يقضيان من ذلك حقا غير مغفل! إن يوم أمس من أيام الأمم، ولأيام الأمم غرر لوامع في تاريخ ويد صنّاع في بناء مجدها، وصلة لا تتضرب بتكوين أسباب بقائها وعظمتها، كما أنها شهود ناطقة بما في الأمة من معاني العز والعظمة!

وواصل الإبراهيمي نثر هذه الجواهر الثمينة، وهذه الدرر الغالية، ثم قال:
إن يومكم الذي نتحدث عنه هو اليوم الأغر المحرر⁽¹⁾ في تاريخ الجزائر
الحديث، ولا أبعد إذا قلت إنه اليوم الأغر في قرون من تاريخ الإسلام.
هذا هو اليوم الذي يجب أن نؤرخ له في الطور الجديد من أطوار نهضتنا
العلمية الدينية، ونؤرخ به لمبدأ ازدهارها وإثمارها ونموها وإبداها.

ثم قال:

أيها الإخوان:

تكلم الخطباء والشعراء في المعنى الذي أقيمت لأجله الحفلة، وهو
تكریم أخینا الأستاذ عبد الحمید بن بادیس وتمجید أعماله في خدمة
الدين والعربية والعلم، وشغلتهم حقوق هذه الحفلة عن حقوق يوم أمس
المشهد، وأوشكنا أن نضيع واجبه، وأن يمر فلا يتغنى بأوصافه لسان،
ولعل الأقلام تجفوه تبعاً لذلك فلا يجري في وصفه قلم!

وقد توزعتي الخواطر حين قمت: أسلك ما سلكه الخطباء والشعراء
من تمجيد أخینا بما هو أهله؟ ولو أني جريت في هذا المضمار وأسلس
لي الكلام قيادة - كان في ذلك الوفاء لأخینا المبجل، والجفاء ليومنا
الأغر المحجل، وإن أنا قمت بما يوجب الوفاء ليوم القرآن قصرت في حق
أخ أعتقد أن ما قاله الشعراء والخطباء في حقه قليل، وكيف تفي حفلة
مثل هذه محدودة الساعات بتمجيد رجل طوقت هذا الوطن مننه!

فإن قمت ببعض ما يجب للقرآن، وليوم القرآن فحسبي في التنويه
بأعمال أخي الأستاذ أن هذا اليوم بعض حسناته⁽¹⁾!

(1) خطبة الإبراهيمي سجل بجلال القرآن وجماله، وصورة معبرة عن روعة الحفل ومغزاه، فلا
تغني القارئ فقرات منه ولكن ابتغاء الإيجاز والاختصار جعلنا نكتفي بما قدمنا!

• خطاب المحتفل به

تمهيد

ثم قام المحتفل به الأستاذ الجليل الشيخ عبد الحميد بن باديس فألقى خطابا قيما رائعا ختم به هذا الحفل التكريمي الخالد، الذي سيظل عبر العصور من أبرز عناوين الأمة الجزائرية أمة الإسلام، والقرآن، والعربية!

وللأمم من أعمالها الماجدة، وبطولاتها الخالدة، ومواقفها الكريمة المشرفة، عناوين عريضة متألقة تشع نورا، وتلخص حياتها وتاريخها في هذا الوجود. والأمة التي لا عنوان لها كتاب غُفِل، ودينار مسيح، وطريق دارس، وباطن بلا ظاهر.

وأبرز ما ميز هذا الخطاب ما اشتهر به الأستاذ الإمام من حفظ الجانب، ورحابة الكنف، وسعة الصدر، وفيض الحلم، وجم التواضع، وحسن المعاشرة، والاعتراف بالجميل لمستحقه، فهو صورة صادقة لمن هذبه الإسلام، وصقله القرآن، وأدبته السنة فكان بحق مثالا للعالم الذي جمع الله فيه العلم النافع، والخلق النبيل، والسلوك القويم!

وما أكثر العلماء في الأمة العربية الإسلامية، ولكن أكثرهم بعدا بُعْدَاء عن الأخلاق الإسلامية، لا يمثلون الإسلام في نقاوته وطهره، في عزه وسُموه، في قوته واستعلائه، في سماحته ويسره.

وها هي الكلمة نقدمها كاملةً، لأن الاكتفاء ببعض فقراتها لا يُغني في تصور موضوعها، قال رحمه الله:

أيها الإخوان:

أنتم ضيوف القرآن، وهذا اليوم يوم القرآن، وما أنا إلا خادم القرآن فاجتماعكم على تنائي الديار، وتباعد الأقطار، هو في نفسه تنويه بفضل القرآن، ودعوة جهيرة إلى القرآن في وقت نحن أحوج ما نكون إلى دعوة المسلمين إلى قرآنهم، فهل علمتم أنكم باحتفالكم هذا قمتم بواجبات أهونها ما سميتموه احتفالا بشخصي.

• كلمة المحتفل به الإمام عبد الحميد بن باديس:

ختم الأستاذ عبد الحميد بن باديس حفلة تكريمه بكلمة بليغة شكر بها الوفود الحاضرة، وعاد بهم إلى الماضي فوزع معاني التمجيد والتكريم التي تجلت عنها الحفلة - على الأصول التي كونته. فكانت كلمته درسا في التواضع وعرفان الجميل عرف منه الحاضرون ناحية نفسية من أخلاق الأستاذ المحتفل به. وقد حافظنا ما استطعنا على معاني تلك الكلمة إذ فاتنا أن ننقل ألفاظها⁽¹⁾، قال حفظه الله:

أيها الإخوان:

أنتم ضيوف القرآن. وهذا اليوم يوم القرآن. وما أنا إلا خادم القرآن. فاجتماعكم على تنائي الديار وتباعد الأقطار هو في نفسه تنويه بفضل القرآن ودعوة جهيرة إلى القرآن في وقت نحن أحوج ما نكون إلى دعوة المسلمين إلى قرآنهم. فهل علمتم أنكم باحتفالكم هذا قمتم بواجبات أهونها ما سميتموه احتفالا بشخصي.

إن أقوال خطباءكم وشعرائكم كلها في الحقيقة إشادة بيوم القرآن، ووفود القرآن وكل ما لي من فضل في هذا فهو أنني كنت السبب فيه.

(1) الشهاب ج 4 م 14 ربيع الثاني - جمادى الأولى 1357 هـ - جوان - جويلية 1938 م.

أيها الإخوان:

أنا رجل أشعر بكل ما له أثر في حياتي. وبكل من له يد في تكويني. إن الإنصاف الذي هو خير ما ربي عليه امرؤ نفسه - ليدعوني أن أذكر في هذا الموقف التاريخي العظيم بالتمجيد والتكريم كل العناصر التي كان لها الأثر في تكويني حتى تأخذ حظها مستوفى من كل ما أفرغتم على شخصي الضعيف من ثناء ومدح بالقول والفعل. فإني أشهد الله أنكم بالغتم في التحفي بي والتتويه بأعمالي، وأشهد أن هذا التحفي عسير عليّ جزاؤه ثقل عليّ حملي، فلعلي إذا ذكرت هذه العناصر ووفيتها حقها من الاعتراف لها بالفضل توزعت حصصها من التتويه وتقاضت حقوقها من الثناء الذي أثقلتم به كاهلي. فأكون بذلك قد أرضيت ضميري وخففت عن نفسي.

إن الفضل يرجع أولا إلى والدي الذي رباني تربية صالحة ووجهني وجهة صالحة. ورضي لي العلم طريقة أتبعها، ومشربا أردته، وقاتني وأعاشني وبراني كالسهم وراشني وحماني من المكاره صغيرا وكبيرا. وكفاني كلف الحياة، فلا أشكرنه بلساني ولسانكم ما وسعني الشكر، ولأكل ما عجزت عنه من ذلك لله الذي لا يضيع جزاء العاملين.

ثم لمشائخي الذين علموني العلم وخطوا لي مناهج العمل في الحياة ولم يبخسوا استعدادي حقه، وأذكر منهم رجلين كان لهما الأثر البالغ في تربيتي وفي حياتي العملية، وهما من بين مشائخي اللذان تجاوزا بي حد التعليم المعهود من أمثالهما لأمثالي - إلى التربية والتثقيف والأخذ باليد إلى الغايات المثلى في الحياة.

أحد الرجلين الشيخ حمدان الونيسي القسنطيني نزيل المدينة المنورة ودفينها، وثانيهما الشيخ محمد النخلي المدرس بجامع الزيتونة المعمور رحمهما الله.

وإني لأذكر للأول وصية أوصاني بها وعهدا عهد به إليّ، وأذكر ذلك العهد في نفسي ومستقبلي وحياتي وتاريخي كله فأجدني مدينا لهذا الرجل بمنة لا يقوم بها الشكر، فقد أوصاني وشدد علي أن لا أقرب الوظيفة ولا أرضاها ما حييت، ولا أتخذ علمي مطية لها كما كان يفعله أمثالي في ذلك الوقت.

وأذكر للثاني كلمة لا يقل أثرها في ناحيتي العلمية عن أثر تلك الوصية في ناحيتي العملية، وذلك أنني كنت متبرما بأساليب المفسرين وإدخالهم لتأويلاتهم الجدلية واصطلاحاتهم المذهبية في كلام الله، ضيق الصدر من اختلافهم فيما لا اختلاف فيه من القرآن، وكانت على ذهني بقية غشاوة من التقليد واحترام آراء الرجال حتى في دين الله وكتاب الله. فذاكرت يوما الشيخ النخلي فيما أجده في نفسي من التبرم والقلق. فقال لي: اجعل ذهنك مصفاة لهذه الأساليب المعقدة وهذه الأقوال المختلفة وهذه الآراء المضطربة يسقط الساقط ويبقى الصحيح وتسترح.

فوالله لقد فتح بهذه الكلمة القليلة عن ذهني آفاقا واسعة لا عهد له بها. ثم لإخواني العلماء الأفاضل الذين زاروني في العمل من فجر النهضة إلى الآن، فمن حظ الجزائر السعيد ومن مفاخرها التي تتيه بها على الأقطار أنه لم يجتمع في بلد من بلدان الإسلام فيما رأينا وسمعنا وقرأنا مجموعة من العلماء وافرة الحظ من العلم مؤتلفة القصد والاتجاه مخلصه النية، متينة العزائم، متحابة في الحق مجتمعة القلوب على الإسلام والعربية قد ألف بينها العلم والعمل - مثل ما اجتمع للجزائر في علمائها الأبرار فهؤلاء هم الذين وري بهم زنادي، وتأثّل بطارفهم تلادي، أطال الله أعمارهم ورفع أقدارهم.

ثم الفضل أولا وأخيرا لله ولكتابه الذي هدانا لفهمه والتفقه في أسرارهِ والتأدب بآدابه. وأن القرآن الذي كَوَّن رجال السلف لا يكثر عليه أن يكون رجالا في الخلف لو أحسن فهمه وتدبره وحملت الأنفس على مناهجه.

ثم لهذه الأمة الكريمة المعوانة على الخير، المنطوية على أصول الكمال، ذات النسب العريق في الفضائل، والحسب الطويل العريض في المحامد.

هذه الأمة التي ما عملت يوما - علم الله- لإرضائها لذاتها، وإنما عملت وما أزال أعمل لإرضاء الله بخدمة دينها ولغتها، ولكن الله سددها في الفهم وأرشدتها إلى صواب الرأي فتبينت قصدي على وجهه وأعمالي على حقيقتها فأعانت ونشطت بأقوالها وأموالها وبفلذات أكبادها. فكان لها بذلك كله من الفضل في تكويني العملي أضعاف ما كان لتلك العناصر في تكويني العلمي.

أيها الإخوان:

إذا لم يكن لي في حياتي العلمية من لافِت للقرآن إلا تلك الكلمة التي سمعتها من الشيخ النخلي، وقد فعلت فعلها في نفسي وأوصلتني في فهمي إلى الدرجة التي تحمدونها اليوم، فإننا -والحمد لله- نربي تلامذتنا على القرآن من أول يوم، ونوجه نفوسهم إلى القرآن في كل يوم، وغايتنا التي ستتحقق أن يكون القرآن منهم رجالا كرجال سلفهم، وعلى هؤلاء الرجال القرآنيين تعلق هذه الأمة آمالها، وفي سبيل تكوينهم تلتقي جهودنا، وجهودها، وإن أعز ما وصلنا إليه هو تبين الغاية وتلافي الجهود، وفقنا الله وإياكم للأعمال الصالحة، ورزقنا الإخلاص فيها، والثبات عليها إنه سميع مجيب⁽¹⁾

(1) الشهاب: عدد جوان، - جويلية 1938م.

• لمحات من حياته:

هو عبد الحميد بن محمد المصطفى بن مكي ابن باديس، ولد بمدينة قسنطينة عام 1308 هـ الموافق سنة 1889 م وجهه والده إلى المكتب القرآني ليقراً القرآن على الطريقة التقليدية، ولم يوجهه إلى المدرسة الفرنسية كما هو الشأن بالنسبة إلى معظم الآباء بقسنطينة.

ورحل إلى تونس سنة 1908م للدراسة بجامع الزيتونة وتخرج منه بشهادة التطويع سنة 1912م.

وقبل أن يعود إلى الجزائر تولى التدريس بجامع الزيتونة عاما واحدا جريا على عادة المتخرجين فيه يومئذ.

من شيوخه بالزيتونة الذين لهم الفضل الكبير في تكوينه العالمان الجليلان: الشيخ محمد النخلي والشيخ محمد الطاهر ابن عاشور.

وقام برحلة إلى الحجاز لأداء فريضة الحج، وعند عودته مرّاً بالقاهرة واتصل بالإمام الشيخ محمد بخيت المطيعي ومنحه إجازة علمية!

وفي سنة 1913م انتصب للتدريس بالجامع الكبير بقسنطينة.

وفي سنة 1925 أسس المطبعة وأنشأ جريدة (المنتقد).

وفي يوم الثلاثاء 17 من ذي الحجة عام 1349 هـ الموافق لـ 5 من شهر ماي 1931 أسس هو وإخوانه العلماء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين!

وفي سنة 1927م حاول اغتياله أحد المحرضين من قبل زاوية طرقية ضالة بالغرب الجزائري!

وفي سنة 1928 ختم تفسير القرآن الكريم الذي ظل يوالي تدريسه مدة ربع قرن!

وأسس عدة مدارس ونوادي ومساجد، فالمدارس للناشئة من الجنسين، تتلقى فيها دروس الدين والأخلاق وقواعد اللغة العربية والتاريخ الوطني والإسلامي، والأندية للشباب تجمع شتاته، وتقيه شر الفساد والضياع وتعيد إليه ثقته بنفسه وبدينه، ووطنه، وقومه، بما يسمعه من محاضرات وندوات في التربية والتوجيه الديني والوطني، أما المساجد فهي لجمهور المصلين المتعطشين لسماع دروس الفقه، ودروس اليقظة والحياة المستوحاة من روح الإسلام.

عاش عمره عزوفا عن الوظائف والنياشين والعمل لمصلحة نفسه وعائلته حتى توفي يوم 8 ربيع الأول سنة 1359 هـ الموافق لـ 16 أبريل سنة 1940 وعمره - كما ترى - قصير ولكنه بعمله الدائب النافع كان من أطول الأعمار، بل لعمره بداية وليس له نهاية، فهو بعد موته أشهر منه خلال حياته، وصدق الشاعر في قوله:

فأرفع لنفسك بعد موتك ذكرها
فالذكر للإنسان عمر ثان

• من وحي تكريم الإمام⁽¹⁾

والذي نستوحيه من جهاد الإمام ابن باديس العلمي والإصلاحي، ومن حياته مع إخوانه العلماء الذين ناصروه وشدوا أزره، ومما قيل في حفل الختم من صور التمجيد، أمور كثيرة، بعضها جوهري، وبعضها الآخر عرضي أو هامشي، ولكن له وزنه في الدلالة والإبانة، والتحديد والتقويم، وإذا كان تتبع ذلك وتقصيه يوسع المجال، ويمدد الحبل فلا أقل من عرض بعضها فيما يلي:

(1) هذا العنوان خصصنا به بعض المكرمين رغبة في إفادة القارئ بما أوحى به من معاني وأسرار.

أولاً : كلمة الإمام ابن باديس التي ختم بها الحفل كانت درسا في التواضع والاعتراف بالجميل لكل من ساهم في تكوينه أو أعانه على أداء رسالته في التعليم والإصلاح من والديه وشيوخه وأمته الأصيلة التي طبعت على حب الخير، والتطلع إلى الكمال، والنزوع إلى حياة يتقدم فيها العلم، ويزدهر الأدب، وترتقي الحضارة.

والتواضع والاعتراف بالفضل لأهله من شيم النفوس الكبيرة، والهمم العالية، وقد ندر في هذا العصر إلى حد يثير الأسى والحزن، فقد حدثني غير واحد من الأساتذة الجامعيين وغيرهم أنهم يتلاقون مع طلبتهم بعد انتهاء دراستهم فيعرض عنهم هؤلاء ويزورون عنهم ويتجاهلونهم كأنهم لم يعرفوهم.

ويحضرنا في هذا المقام ما حدثنا به المرحوم الشيخ محمد كتو من صور التواضع والاعتراف بالجميل، وخلاصته أن العلامة الشيخ الفاضل ابن عاشور وهو ما انتهى إليه فخر التونسيين في العلم والمعرفة، رآه ذات يوم ينزل من عربة الجياد ويسير بخطى سريعة وراء شيخ طاعن في السن، وحينما التحق به قبل يده ثم رجع إلى عربته والناس في دهشة مما شاهدوه! عالم كالفاضل الذي يلقب بالبحر ينزل من العربة ليقبل يد شيخ، لا يدل مظهره إلا على البساطة : عمامة مكورة على رأسه الحليق، وجبة جرداء على جسمه البدين، ولحية كثيفة بيضاء، كادت تغطي وجهه، وعصا طويلة تسبقه في الطريق، هذا يقبل يده من طبقت شهرته الآفاق؟ ولما التحق به أحد المشاهدين وسأله، قال له: كنت علمته سورا من القرآن في طفولته، ومن هنا كان لا يراني إلا وقبل يدي!

إن العلماء كثيرون في الجزائر وفي مختلف الأقطار العربية الإسلامية، ولكن العلماء الذين حباهم الله بالأخلاق الكريمة قليلون، وهذا ما يؤكد الواقع المعيش مع الأسف الشديد!

وإذا كان المرحوم الدكتور مصطفى السباعي قد أوجز القول في أخلاق العالم : «بأنها خشية من الله، وإشفاق على الناس، ونصح لأولي الأمر، ووقوف في وجوه الطغاة، وتجرد عن حظوظ النفس وشهواتها، ويقظة في مداخل الأمور ومخارجها، واستهانة بالأخطار في سبيل الله عز وجل»⁽¹⁾ فإن ابن باديس كان مثالا لهذه الأخلاق، بأوسع معانيها وأعمق دلالاتها، ومن ثم كان كل من درس عليه، أخذ نصيبه من هذه الأخلاق.

ثانياً : كان الشيخ عبد الحميد يعتز بكونه معلما ويرى أن تأليف الرجال قبل تأليف الكتب، وقد أجاب من سأله ذات يوم في شأن التأليف: «إن الشعب يا بني ليس اليوم بحاجة إلى تأليف الكتب بقدر ما هو في حاجة إلى تأليف الرجال.. هب أني انصرفت إلى التأليف، وانقطعت عما أنا اليوم بصدد من نشر العلم، وإعداد نشئ الأمة فمن يقرأ كتبتي، وتألفتي؟ مادام الشعب في ظلمات الجهل والامية؟ إن إعداد معلم كفاء يتصدى لمحاربة الجهل الفاشي في ربوعنا لخير لمجتمعنا من ألف كتاب تحفظ في خزائن إلى أن تبید وتبلى!

إن مرحلة التأليف آتية لا ريب فيها، لأن نهضتنا لا تكمل ولا تأخذ طريقها إلى الازدهار إلا إذا شددنا أزرها بكتب علمية تحمل روح العصر من أن تقطع الصلة بالماضي، إننا مازلنا اليوم في مرحلة التعليم والتكوين

(1) أخلاقنا الاجتماعية، ص 199.

(فلنتعلم لنعلم) والحق أنني لا أشتغل بالتعليم وحده، بل أباشر أعمالاً أخرى كثيرة صحافية وغيرها، فأكتب المقالات، وألقي المحاضرات، وأخطب في مناسبات، وأقوم بإلقاء دروس عامة في التفسير، وفي نشر الدعوة الإصلاحية⁽¹⁾.

وهكذا كان الإمام عبد الحميد حريصاً أشد الحرص على تأليف الرجال، فألف معلمين ماهرين، ودعاة مصلحين، وخطباء مفوهين، وأبطالاً وزعماء، فكل الذين مجدوه في خطبهم وقصائدهم هم من تلامذته، أو جلهم على الأقل، وطابع الصدق والإخلاص باد على كل كلمة قالوها، بل كل كلمة تتفق مع نبضات قلوبهم في النبض والحرارة لأنهم على الصدق والإخلاص والمحبة رباهم أستاذهم!

يضاف إلى ذلك مستواهم العلمي والأدبي، فقلما تجد له مثيلاً في عصرنا، عصر الجامعات والمعاهد المختلفة، تراكيب متينة، أسلوب قوي مشرق، معان كريمة سامية، وعربية نظيفة لا تجد فيها ما يرضخ لنقد نحوي، أو صرفي، وخيال واسع خصب يحلق في أجواء بديعة طليقة، هذا مستواهم لأنهم كانوا يدرسون العلم للعلم لا للشهادات كما هو شأن المتعلمين اليوم أو جلهم، وكانت اللغة العربية لغة مقدسة يعد تعلمها شرفاً، واللحن فيها عيباً بل جريمة ووصمة عار!

وللتاريخ نسجل في غاية من الطمأنينة أن الإمام عبد الحميد صنع بالتربية والتعليم جيلاً يفخر به التاريخ، وتزهو به الجزائر عبر العصور والأجيال، ويعتبر عصره عصرًا ذهبياً «أشرق إشراق الشمس، وأقبل إقبال الربيع، فيه الحرارة والنور، وفيه النضارة والخصب»، وأن تلك

(1) عن أوراق كتبها الأستاذ باعزیز بن عمر عن أستاذه ابن باديس وأهدانا صورة منها.

الحلقات العلمية لم تخرج أجيالا من العلماء والأدباء والخطباء فحسب، بل ألقت بين قلوب المواطنين من الحاضرة والبادية وصبتهم في بوتقة واحدة، وفي هذا يقول الشيخ:

«إن وطننا الجزائر واسع الأطراف، متعدد المناطق والبيئات، حتى كاد يستقل بعضها عن بعض، فوجب علينا أن نربط بين حاضرتة وباديته، بما لدينا من وسائل الاتصال، حتى نقرب بينها تقريبا يجعل المواطنين يتعارفون ويتعاونون كأبناء وطن واحد، وإن من جملة الوسائل التي تساعد على تحقيق هذا الهدف في مطلع نهضتنا العلمية، هذه الحلقات التي استطاعت بفضل الله أن تجمعكم (يعني طلبته) من عدة جهات لا فرق بين من قدموا من الحواضر، وبين من قدموا من البوادي، وإني لأكون فرحا مغتبطا حينما ألتفت حولي فأجد أبناء الصحراء بجانب أبناء الجبال، وأبناء الحاضرة بجانب أبناء البادية، والجميع قد جمعتهم هذه الحلقات العلمية في صعيد واحد لا فضل لأي منهم على الآخر إلا بالاجتهاد والعمل»⁽¹⁾.

وكانت العربية في عصره مزدهرة بفضل دروسه وتوجيهاته، وبفضل إيمانه واقتناعه بأن «الأمة الجزائرية حية طالما أنها محافظة على دينها ولغتها» و «ما دلت لغة شعب إلا ذل، ولا انحطت إلا كان أمره في ذهاب وإدبار»، يقول الأستاذ باعزیز ابن عمر في مقال له بعنوان: (سهولة العربية وصعوبتها): «وإني لأذكر أن أستاذنا عبد الحميد بن باديس كان يحثنا - ونحن في حلقات دروسه - على التزام الفصحى في مناقشاتنا وأبحاثنا، لما في ذلك من تدريب للألسنة على التخاطب، وللأقلام على الكتابة، كما

(1) المصدر السابق.

كان يوصينا أن لا نسير على نهج بعض الشيوخ في تدريس النحو والصرف بالعامية، ومما قاله لنا ذات يوم: «إن الاستعمار حاول مرارا عندنا أن يوهم الناس بأن اللغة الفصحى لم تعد صالحة في هذا الزمن، فقرر تعليم العامية في برامج مدارسهم بدلا من الفصحى.. ولكنه ما لبث أن فشل في محاولته، ولاسيما بعد أن رأى أن الفصحى قد أصبحت لغة الصحافة والخطابة والمدرسة، فعدل عن خطته وأبقى عليها في مدارسهم الرسمية المزدوجة، وزاد فسمح لها بالظهور في برامج إذاعته»⁽¹⁾.

ثالثا : يلاحظ أن بين الإمام ابن باديس وبين إخوانه العلماء الذين ناصرهم، وتعاونوا معه في بناء صرح النهضة العلمية والإصلاحية عروة وثقى تربط بينهم لولاها ما نجح الإمام في دعوته!

كانوا جميعا وحدة متماسكة العناصر، متكاملة، يعملون جميعا بإلهام الروح، ووحى العقيدة، ويقظة الضمير، وصدق الوطنية، وحب العلم والمعرفة، والرغبة الملحة في نشرهما وبذر بذورهما، فلم يكونوا يستلذون غير الجهاد بالفكر والقلم واللسان، ولم يكونوا يشعرون بالراحة إلا في العمل الجاد المثمر، وإذا كان غيرهم يبتهج بيوم عطلة، فهم يبتهجون بيوم عمل لأنهم فيه وبه يحققون وجودهم، ويضيفون لبنة إلى لبنات في صرح النهضة الجزائرية، إنهم كانوا يُحاربون من الاستعمار ولكنهم لا ينهزمون، ويُستذلون ولكنهم لا يذلون، ويُعوقون ولكنهم لا يضلون ولا يفشلون، فكانت حياة كل واحد منهم حركة دائبة وعملا متواصلا، حتى يلتحق بربه!

(1) عن مجلة : «لمحات»، عدد 2، ص1، عام 1968.

رابعاً : كم في الجزائر من جوامع هي أوسع وأفخم من الجامع الأخضر بقسنطينة، ولكنها لم تحظ بما حظي به من الذیوع والشیوع والشهرة، لأن العبرة لیست فی سعة الجوامع وشموخها، أو جمالها ورونقها، وإنما العبرة فیما یتحقق فیها من الأعمال النافعة الجليلة، ویحرر فیها من صفحات المجد!

إن فضل هذا الجامع البسیط فی مظهره مستمد من فضل القرآن الکریم الذی ظل خمسا وعشرين سنة یفسر فی رحابه، وفضل الدروس العلمیة المختلفة التی كانت تلقى فی أرجائه، وفضل هذا المصلح المجاهد الذی ارتفع حبه لوطنه ودينه ولغته إلى مقام العقيدة الدینیة الصوفیة، فاتحد وجوده بوجودها، وكان طوال عمره یبذل ولا ینتظر العوض، ویضحی ولا یفکر إلا فی ثواب الله وأجره، و فی غد الجزائر الوضیئ المشرق!

وما قلناه فی هذا الجامع، البسیط فی مظهره، العظیم العملاق فی جهاده ونضاله وأثره، نقوله فی الإمام عبد الحمید فهو نحیف الجسم، ضعیف البنیة، قلیل الغذاء غالباً ما یقتصر فی طعامه علی حبات من التمر، وقطعة من الخبز، وكأس من الحلیب، ومع ذلك كان یواجه عدة جبهات یضعف أمامها القوي العملاق. وقد ذکر لی أحد تلامذته وهو الشیخ علی مرحوم رحمه الله: أنه یلقى محاضرات، ویحرر فی الصحف، ویخطب فی مناسبات، ویلقى مختلف الدروس واحدا تلو الآخر إلى أن یختمها بدرس التفسیر إثر صلاة العشاء، وقد یصل عدد هذه الدروس إلى 13 درسا فی الیوم أحياناً.

وخلال شهر رمضان المعظم یزداد نشاطه فی العمل فیضیف إلى دروسه المألوفة درسا فی شرح متن صحیح البخاری قبل صلاة الظهر رغبة منه فی إفادة جمهور المصلین إلى جانب الطلبة.

كما نلاحظ أن الإمام تخرج من جامع الزيتونة بشهادة التطويع، وما أكثر من درسوا معه وتخرجوا بهذه الشهادة، ولكن ما كان لواحد منهم ما كان لابن باديس من همة عالية، وطموح بناء، وأثر فعال، وحياة خصبة، وسمعة واسعة طبقت الآفاق، فالعبرة إذن ليست في قوة البدن، ولا بالشهادات العلمية العالية، وإنما العبرة في الإنسان نفسه، فيما يختصه الله به من مواهب واستعدادات، ومن الهداية والمعونة والتوفيق. فمن رزق الحجا والهدى فقد رزق خيرا كثيرا.

خامسا : بارك الله في عمر الإمام رغم قصره فحقق فيه من جلائل الأعمال ما لا يتسع لإنجازه إلا قرن كامل أو أكثر، فقد يعزو البعض هذا إلى إدراك الشيخ لقيمة الوقت وحسن استغلاله، وتنظيمه، وأنا مع هذا البعض في رأيه، ولكني لا أجد تعبيرا عنه خيرا من أن الله تعالى بارك في عمره فكان خصبا ثريا متصل الأثر من يوم أن نزل الميدان، وسلاحه العلم والمعرفة، والرغبة الشديدة في خدمة الوطن، بخدمة وطنه ودينه ولغته، إلى أن رحل إلى الباقيّة، وقد أقام حياته الجهادية على الكتاب والسنة، ومن ثم جعل الله في وقته وتفكيره وعمله بركة وأية بركة.

سادسا : من بركة الإمام أن تفسيره للمعوذتين الذي ختم به القرآن الكريم تفسيراً استمر ساعتين كاملتين وكان صوته حينما أشرف على النهاية كصوته في البداية قوة وارتفاعاً، وقد جلس قريبا من الإمام العلامة الشيخ الصالح بن الموفق - القاضي المتقاعد بالخروب، وروى أن المسجد كان غاصا بالمدعوين وكانوا جميعا يواكبون الدرس في سماع جيد والبعيد في ذلك كالقريب⁽¹⁾.

(1) انظر «الشهاب»، العدد الخاص باحتفال ختم التفسير الكريم.

ولما تقدم كله - وهو بعض ما يجب أن يقال في ابن باديس - كان جديرا بهذا التكريم، وكان هذا التكريم في موضعه، لأن التكريم في شخص ابن باديس وأمثاله معناه تكريم العلم والمعرفة، وتكريم القرآن ورجاله العاملين، وتكريم اللغة العربية وحمايتها والغيورين عليها، وتكريم «الثكنات المحمدية التي تدافع عن الإسلام وأسلحتها المصاحف لا القذائف، ووسيلتها الحياة لا الموت، وغايتها الخير للناس جميعا على اختلاف أجناسهم وألوانهم».

والذي يثير الأسى في هذا العصر أن التكريم كثيرا ما يفقد معناه، ويضيع الهدف منه، عندما يكون في غير موضعه ويتحول عن مجراه فيصبح عنوانا على غير مسمى!

فعوض أن يكون التكريم وسام شرف لا يوضع إلا على صدر من هو جدير به من أهل العلم والمعرفة، الذين جاهدوا بأفكارهم وأقلامهم وألسنتهم، واحترقوا من أجل أن يستضيئ الناس، أو من أهل الشجاعة والبطولة الذين ارتفعت الوطنية في نفوسهم إلى مقام العقيدة الدينية الصوفية - كان لا اعتبارات أخرى، سياسية، أو جهوية، أو لأغراض أخرى! إن التكريم يجب أن يكون دليلا وعلامة على الكفاءة والتفوق في ميدان ما، وشهادة على نوعية الوزن الشخصي للإنسان. أما أن يكون التكريم على عكس ذلك، فشيء يثير الأسى بحق، ويدعو إلى الرثاء لمن سنوا التكريم ولمن يكرمون ويكرمون.

فلو أن التكريم يراعى فيه من المقومات ما روعي في ابن باديس لقل التكريم، وصار غاية الأمنيات، ومنتهى فخر المفتخرين!

■ تكريم العلامة الإمام الشيخ محمد الطاهر⁽¹⁾ بن عاشور

● تمهيد

كان الشيخ الطاهر على رأس مشيخة الجامع الأعظم ثم غادرها ليتولى القضاء في يوم 26 رمضان عام 1331هـ، ثم نصب شيخ الإسلام المالكي، وقضى فيهما مدة طويلة كان خلال نهوضه بهما مثالا للعالم العامل الذي صقلته متانة العلم، وقوة البحث، وغزارة المادة، وانصهر في بوتقة التمحيص، وكانت له ملكة الموازنة والترجيح، فكان بذلك يمارس عمله على مقتضى ميزان الله، شرعا وتطبيقا وسادكا!

ثم عاد إلى مشيخة الجامع وتسلم مقاليد الإدارة الزيتونية يوم غرة فبراير سنة 1945 فرأى بفكره الثاقب، أن يمهد للإصلاحات التي اعتزم إدخالها في مفتح السنة الدراسية، فأنشأ إدارة للمدارس كلف بها المصلح الغيور على دينه ووطنه الشيخ الشاذلي بن القاضي، وأبرز مجالس التأديب إلى العمل الجدي، ولم يقتصر على تحسين حالة الزيتونيين بل رأى أن يرحل إلى الفروع التي ظلت طويلا منقطعة في أصلها. وكانت تلك المرحلة ميمونة مثمرة، حيث نتج عنها انخراط عدد كبير من الطلبة في سلك التعليم الزيتوني بالفروع، ووعد الشيخ بإنجاز مشاريع هامة تحققت كلها رغم الصعوبات التي كانت تواجهها، وتعرض سبيلها.

(1) القاعدة أن ألف (ابن) تثبت إذا وقعت بين علمين والثاني ليس أبا للأول (كالطاهر ابن عاشور) و(عبد الحميد ابن باديس) ويسقط إذا كان أبا له، وجل المثقفين يحذفون الألف في (عبد الحميد بن باديس) وهو خطأ!

وبفضل تلك الإنجازات الخطيرة والإصلاحات الهامة التي لا بد منها لمواكبة العصر، ومما شاة التطور من أجل حياة أفضل، انتعش الجامع الأعظم، وأخذ نوره يستفيض، وبذوره تتنوع، وسحبه تتساق إلى النفوس الظمأى فتُروى، وإلى البلاد الميتة فتُحيى، ولأول مرة تحدث دروس في الفنون الآتية: الموسيقى- التصوير النظري- التصوير الهندسي - مبادئ الفرنسية - الاختزال الفرنسي - الاختزال العربي - التمثيل - وهذه الفنون تدرس خارج الجامع الأعظم وتقوم بها جمعية الإخوان الزيتونيين⁽¹⁾.

وفي غرة فبراير مساء سنة 1946 أقامت جمعية الإخوان الزيتونيين حفلا كبيرا بهيجا في قصر الجمعيات بتونس ابتهاجا بعودة الإمام الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور إلى جامع الزيتونة، وتكريما له على جهاده العلمي الواسع الذي أقام ركنه العقلي والأدبي على كتاب الله تعالى، وسنة نبیه، واللغة العربية، ذلك الجهاد الذي أثمر عهدا زاهرا لم يعرف نظيره جامع الزيتونة إلا في عهد الإمام، فكان جامع الزيتونة في عهده كما قال المرحوم حسن الزيات في الأزهر: «كلمة من الكلم النوابغ الجوامع في لفظها استيعاب ووعي، ولمعناها إشعاع ووحى، فهي زمان، ومكان، ودين، ودنيا وتاريخ».

جاء في الحديث الوصفي للاحتفال البهيج ما يلي:

«كان المسرح مكتضا بما ينيف عن الألفي نسمة من طلبة الجامع المعمور، عدا الجم الغفير من الأساتذة الزيتونيين ومن رجال الأمة وسراتها من مختلف المشارب الثقافية...

(1) انظر هذا بإفاضة في «المجلة الزيتونية»، ج8، م6.

افتتحت الحفلة بتلاوة آيات من الكتاب الكريم.. ثم ارتفع الستار عن طلعة المولى سيدنا محمد الطاهر ابن عاشور، متوسط العقد العلمي النضيد من المشائخ الجلة والسادة الخطباء والشعراء، وكان على يمينه العلامة الشيخ سيدي مختار بن محمود، والأستاذ الطيب العنابي، والأستاذ المؤرخ محمد الصالح المهدي، والأديب الشاعر جلال الدين النقاش، وعن شماله السيد التهامي عمار رئيس لجنة الدفاع عن مدرسي الفروع الزيتونية، والأستاذ التهامي الزهار، والشيخ الصادق ابسيس». وها هي أسماء الخطباء والشعراء حسب تعاقبهم على منصة الخطابة:

● الخطباء والشعراء:

- الأستاذ أحمد بن محمد القروي رئيس الجمعية الزيتونية.
- العلامة الشيخ محمد المختار بن محمود.
- الشاعر الملهم الأستاذ جلال الدين النقاش.
- الأستاذ التهامي الزهار.
- الأستاذ الطيب العنابي.
- الشاعر الأستاذ محمد التهامي عمار.
- الشيخ التيجاني بوراوي.
- الشيخ الصادق بسيس.
- الأديب الشاب محمد كروس.
- الشيخ محمد المازوني.
- الشاعر محمد الصالح الشتوي.
- الأديب الشاب علي بن رمضان الشابي.
- الشيخ بوعلي الغربي.
- الأستاذ العلامة الشيخ الناصر الصدام.

- الأديب الشاب صالح عباس.
- المؤرخ الكبير محمد الصالح المهدي.
- الإمام المحتفل به الشيخ الطاهر بن عاشور.

● لقطات من خطبهم وقصائدهم:

وفيما يلي فقرات من كل خطبة، وقطع من كل قصيدة ألقيت في هذا الحفل التكريمي رغبة في إفادة القارئ الكريم، وتماشيا مع منهجية الكتاب، وتحديدًا لمكانة الإمام المحتفل به في القلوب والنفوس⁽¹⁾:

من خطبة الأستاذ أحمد بن محد القروي:

«يا صاحب الفضيلة... لأول مرة في تاريخ تونسنا العزيزة تقام ذكرى إحيائية، ولأول مرة يدخل جامع الزيتونة العظيم بمديره، ولأول مرة يدخل تحوير جدي على التعليم الزيتوني، ولذلك قررت جمعية الإخوان الزيتونيين القيام بالذكرى: ذكرى مرور عام على تأسيس جمعية الإخوان، ذكرى مرور عام على دخول جامع الزيتونة في عهده الجديد، ذكرى مرور عام على عودة المصلح الكبير، والشيخ العبقري، رمز النشاط والإصلاح والإقدام فضيلة الأستاذ الإمام سيدي محمد الطاهر بن عاشور...».

وجاء في الخطاب أيضا:

«تقوم جمعية الإخوان بهذا الاحتفال إكراما لفضيلتكم، واعترافا بخدماتكم للزيتونة، والصراحة تدعوني إلى القول بأننا ما كنا لنقوم باحتفال لو لم تقوموا بما قمتم به نحو كليتنا من أعمال إصلاح سيحفظها التاريخ لجنابكم مدى الدهور...».

(1) مصدر هذه الخطب: المجلة الزيتونية: العدد الخاص بالتكريم: الجزء الثامن، المجلد السادس، ربيع الأنور، بلا تاريخ.

وقال في ختام خطابه:

«يا عميد كليتنا العزيز، إن جميع الإصلاحات التي أدخلتموها على الجامع جميلة مرضية واننا نرجو أن تتقبلوا منا هذه الملحوظات التي رائدنا بها الإصلاح وإخراج الزيتونة من عصور القرون الوسطى وجعلها تتماشى مع تيار القرن العشرين!».

ثم قدم مجموعة من الاقتراحات ختمها بهذه الرغبة:

«نرغب من فضيلتكم تبجيل إخواننا الجزائريين علينا في المسكن والملبس وجميع ما يلزم الطالب، لأنه من الواجب علينا أن نجعل الطالب الجزائري يشعر بأنه بين إخوانه وأهله!».

وختم خطابه بقوله:

«أيها الشباب النبيل فلنتحد لخدمة جامع الزيتونة واللغة العربية ولنناد بأعلى صوت: ليحيا جامع الزيتونة، لتحيا اللغة العربية وليحيى شيخ الجامع».

من خطبة الشيخ محمد المختار بن محمود:

أيا شيخ الإسلام وقدوة أمة

مقامك أعلى من مديحي وأعظم

عهدناك قبل اليوم تشكو تأخرا

فها قد أتاك الأمر والدهر باسم

وحفّت بك الألفاف من كل جانب

وحولك أنصار شداد أكارم

يسرون في عزم وحزم إلى الذي

تراه سدادا والمهم المقدم

بهذه الأبيات الواضحة السهلة استفتح العلامة المختار بن محمود خطابه، وهي أبيات تتم عما يكنه للإمام ابن عاشور من الود والوفاء والإخلاص والتقدير، لأن العلاقة بينهما علاقة أب عطوف بابنه البار، فهو من معين الإمام استقى، وعلى دربه استقام، وفي ظله ظل يثمر أشهى الثمر وأطيبه. ثم قال:

ما كنت أظن أن تسعدني الأقدار بمثل هاته الساعة التي بتاح لي فيها أن أتشرف بأن أكون خطيباً في الاحتفال بمرور عام على إسناد مشيخة الجامع الأعظم وفروعه إلى سيدي وأستاذي الجليل الشيخ سيدي محمد الطاهر ابن عاشور، فإن لي من شرف الانتساب إلى هذا الأستاذ الجليل فخراً أعتز به، وأعدّه أكبر مغنم غنمته، وأثمن شيء اكتسبته، فقد انتسبت إليه زهاء ربع قرن، واغترفت أثناء ذلك من بحر علمه وفضله ما أراني منتفعاً به في كل طور من أطوار حياتي، وقد لازمته في الدراسة مدة لم يتح لغيري أن يلازمه مثلها، وقرأت عليه من الكتب: المختصر والمطول، ودلائل الإعجاز، وديوان الحماسة، والموطأ، وتفسير القرآن، ورويت عنه من الحكم والآداب ما يقارب سفراً، ولازمته في الدرس عشر سنين كنت أجتمع به خلالها بمعدل ساعتين في كل يوم من أيام الدراسة. وشاهدت فيه من مكارم الأخلاق، واللين في القول، والصدق في المعاملة، وشدة العزيمة في العمل، وانتهاج المناهج الصحيحة في الفكر، وصدق النظر إلى الأشياء والترفع عن السفاسف والسخافات التي ملئت بها عقول كثير من الناس ما جعلني أزداد به كل يوم إعجاباً وأنشد عليه قول ملحمة الجرمي:

فتى عزلت عنه الفواحش كلها فلم تخلط منه بلحم ولا دم

ثم إنه كان كلما ارتفع شأنه وتدعمت أركانه، يزداد تواضعا ولينا، ومن شأن النفس البشرية إذا أحست بشيء من السطوة والنفوذ والمكانة، أن يحيط بها الغرور، ويتحكم فيها الغرور، ولكن سيدي الأستاذ الجليل، كان بعكس ذلك، فهو يقاوم تلك النزعة البشرية التي أضرت بكثير من الناس، بالمبالغة في الإكرام والملاطفة، وبالمحافظة على حسن العهد.

فتى زاده السلطان في الحمد رغبة إذا غير السلطان كل خليل
وجدير بمثل هاته الشخصية النادرة أن تعلق عليها آمال، وتفرض عليها تكاليف، وتناط بها حقوق، ويعهد إليها بمستقبل أمة.

وجدير بمثل هاته الشخصية النادرة في مقابلة ذلك أن تتهيا لمحن وابتلاءات، وأخطار وآفات، فالناس أعداء ألداء لأصحاب النبوغ، ومعاول هدم وتحطيم لآمالهم وأعمالهم، وهكذا الشأن في كل عاجز مهين، أن يقاوم كل من يريد أن يعمل عملا صالحا حتى لا يترك له مجالا للتفوق عليه.

وفي مثل هذا المقام، تتجلى حكمة الله من قوله: «ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم»، وهنا يقع الامتحان وتتجلى الحقائق، وتظهر قيم الناس، فأما من يعبد الله على حرف، فإنه لأقل ابتلاءً تخور عزمته وتضعف قواه، ويتأخر ثم يتقهقر ثم ينزوي ثم يموت ميتة الأحياء.

وأما قوي الإيمان، صادق العزيمة، فإن هذه الابتلاءات تكون سببا في رسوخ إيمانه، وثبات جنانه، ويكون كما قال الله تعالى: «وكأين من نبي قُتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين».

وهذا ما رأيناه من حضرة الأستاذ الجليل، فقد مرّت به أحداث وياها من أحداث فصبر لها وصابر ورابط واتقى الله فكان الفلاح حليفه وهكذا الأنبياء يغلبون ثم تكون لهم العاقبة.

وبعد أن تحدث الأستاذ الخطيب عن صدى عودة الإمام إلى الزيتونة، في مختلف الأوساط العلمية والثقافية والأدبية، داخل الوطن وخارجه، وعن همة الإمام الشامخة العليا، التي قاد بها إلى العمل من أجل إصلاح الزيتونة وترقيتها، وعن المشاريع الهامة التي أنجزها، والتي ينوي إنجازها، ومن النقائص التي يعمل على تداركها، لاحظ -رحمه الله- أن هدف التعليم الزيتوني الأسمى هو (الارتفاع بمستوى التفكير حتى يأتي التعليم بالنتيجة المرجوة منه، إذ لا يخفى عليكم أن آخر ما استقر عليه رأي الباحثين في شؤون التعليم في العالم في تقرير الغرض من التعليم هو ما كان قاله مالك بن أنس رضي الله تعالى عنه: «ليس العلم بكثرة الرواية وإنما هو نور يقذفه الله في قلب من يشاء».

(ومعنى ذلك أن الغرض من العلم هو تكوين الأفكار الصحيحة والتصورات السليمة والاقتدار على القيام بأعباء جميع الشؤون والاضطلاع بمهمات الدولة، إذ بدون ذلك يكون التعليم ضعيف النتيجة أو عديمها، وهذا ما نؤمل أن يكون البرنامج الجديد متكفلا بتحقيقه بحول الله، ولكن يلزم لذلك الوقت الكافي لظهور النتائج المرجوة فليس من السداد ولا من الإنصاف أن يحكم على هذا البرنامج إلا بعد مرور الزمن الذي من شأنه أن يكفي لتحقيق ذلك).

ثم تحدث الأستاذ الخطيب عن وضع الأساتذة بالجامعة الزيتونية وكيف كانوا المرجع في كل شيء، وييدهم مقاليد السلطة والنفوذ، وعلى

كواهلهم يقام نظام الدولة، ونهضوا بالأعباء التي أنيطت بعهدتهم خير نهوض، وبيضوا بذلك وجه التاريخ التونسي، وضرب لذلك مثلاً (بالرجل الذي قاد السياسة بتونس في بداية عهد الحماية الذي هو من أشد أطوار تاريخ هذه البلاد تعقدا واضطرابا، هو العالم الفقيه الأصولي الشيخ محمد العزيز بوعتور الوزير الأكبر الذي بقي في الوزارة الكبرى ربع قرن سار فيه بالبلاد بحكمة وروية وأناة، وأمكن له بعقله الراجح وثقافته الزيتونية المحكمة أن يسير بالبلاد المضطربة المنهجة⁽¹⁾ إلى ساحل النجاة كلما هبت العواصف واضطربت الأمواج).

(ولما رجع الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده إلى مصر من رحلته إلى تونس عام 1322هـ أفضى بتصريحات عن الحالة بتونس، فكان أول ما لفت نظره واسترعى اهتمامه ما عليه الزيتونيون من ارتقاء المناصب العليا وكون مقاليد الدولة بأيديهم، وحرص الأزهرين على أن يصلوا إلى ما وصل إليه الزيتونيون، ولكن ويا للأسف قد أخذ هذا الأمر يضعف شيئا فشيئا وصارت مقاليد السلطة تنزع من يد الزيتونيين وأخذت الأيدي الآثمة تستجد بالأسكندر ذي القرنين ليقيم الزيتونيين سدا يحول بينهم وبين الوظائف العالية كذلك السد الذي أقامه في وجه يأجوج ومأجوج، فأجاب الأسكندر وأحضرُوا له زبر الحديد ونفخ ونفخوا وأفرغ عليه القطر وجربوه فما استطاعوا أن يظهره وما استطاعوا له نقبا.

عند ذلك تمت الحيلة وأبعد الزيتونيون وأعان على إبعادهم أفراد وطنيون تونسيون وسول لهم شيطانهم أن يبتكروا عاهة للزيتونيين تقضي عليهم القضاء المبرم وهي جهلهم باللغة الفرنسية).

(1) هكذا في الأصل، وهي غير واضحة.

وتحدث الأستاذ الخطيب عن مكانة العالم في الأمة وفي الميدان، وأن رسالته هي رسالة الأنبياء، والرسول، ومن هنا وجب أن تعرف مكانته، وتقدر رسالته، وأن يناهض كل من تسول له نفسه أن ينال منه، أو يحط من قيمته، أو يصدده عن سبيله، ولو كان هذا من أبناء الوطن، بل يجب أن تكون مقاومته أشد وأعنف، واستشهد بهذه الأبيات لشاعر الحماسة أوس بن حفناء:

إذا المرء أولاك الهوان فأوليه هوانا، وإن كانت قريبا أو اصره
فإن أنت لم تقدر على أن تهينه فذره إلى اليوم الذي أنت قادره
وقارب إذا ما لم تكن لك حيلة وصمم إذا أيقنت أنك عاقره
وختم خطابه بقوله:

(واعلموا أن الله تعالى قد منَّ عليكم بأن جعل على رأس جامعتكم الكبرى رجلا دانت له رقاب العلماء شرقا وغربا ومقالته مرجع لكبار العلماء، فقد كان خاطبني العلامة الجليل الشيخ مصطفى صبري أحد مشائخ الإسلام بتركيا بمكتوب صرح لنا فيه بأن المقالات التي ينشرها فضيلة أستاذنا الأكبر بالمجلة الزيتونية في تفسير القرآن يطالعها باهتمام ويستفيد منها كثيرا.

وأستاذنا أبقاه الله يصرف جميع أوقاته في صالحكم؛ وفي الدفاع عنكم وينزلكم من نفسه منزلة الأبناء من الأب البر الرحيم ويحن عليكم حنو المرضعات على الفطيم⁽¹⁾.

(1) نذكر القارئ الكريم بأن كل النصوص التي قيلت في تكريم الإمام الشيخ الطاهر ابن عاشور مأخوذة من المجلة الزيتونية، العدد الخاص بهذه المناسبة.

وقال الشاعر الكبير جلال الدين النقاش:

كعبة العلم عاد عيدُ مناهها فاركب الشمسَ وافتخر يا فتاهها
وتحدث بعزة بلغتْها يقف النجم عن بلوغ مداها
وتمثل جلالها في حمى التا ريخ نورا يشع مجدا وجاهها
وتأمل وقوفها في مجاري الد هر كالطود شامخا تياها
صمدت للزمان ما نال منها قط أوسام مجدها وعلاها
كعبة بارك الإلاه حماها سجد الفاتحون فوق ثراها
ليت شعري وللخيال عيون تتخطى القرون رغم انطواها
نبئوني أفي الرحاب عبيد الله يخطها ويعلي بناها
أهو «ابن الحجاب» ذك وهما ذي حجرة الأس في بديّة أراها؟
أدرى القائد المظفر ماذا خط؟ بل أي قبلة أنشاها؟
رضي الله عنه من تابعي شاد مجدا في الدهر ليس يضاهي
وبنى كعبة أفاضت من الأنوا رما لا يحـد أو يتناهي
كعبة فجرت ينابيع علم وأصابت بها النفوس ارتواها
وتخطت على العصور وهزت في مجال العرفان عالي لواها
أشرق الدين ساطعا من سماها وأضاء اللسان في متداهها
ويقول:

لو تصورت غرة الأمس منها وسنا فجرها يشق دحاهها
لتجلت إليك صفحة عز حلت بالنبوغ من مبتداهها
فإذا البيت وهو روض نضير والغواصي تجوده بحياها

وإذا ورد العلوم الصواري
وإذا الخوض في موطأ "الإمام" الفذ
وإذا هالة الجلالة حفت
وإذا أنت في حمى "ابن زياد"
فأخفض الطرق عند مرأى "علي"
"ملك" اردع "الموطأ" كنوزا
وبزيتونة المعاهد أفضى
ويقول:

ثم قلب صحيفة الأمس وانظر
واشهد النهضة التي بلغتها
من يدي سابع القرون تلقت
وجرت في مجال قرطبة الغرا
فإذا قبلة الثقافة في الخضراء
ولواء العلوم يعقد للبيت
مرجع الفول "لابن عرفة" لما
و"ابن عبد السلام" أملى من التحقيق
و"ابن عصفور" في النحاة تسامى
ودرينا المؤرخين ولكن
إن شخصية ابن خلدون منا
وهي إحدى جرائم الدهر لكن

حوم بالرحاب تروي صداها
والقوم خاشعون انتباهها
غرة الشيخ والمشيب علاها
طود إفريقيا ونبع هداها
وافتح الصدر للعلوم اكتناها
و"علي" إلى العقول جلاها
بالخفي الجليل من معناها

كعبة العلم تزدهي في ضحاها
وانتهت في العلى إلى منتهاها
صولجان المنى وحيث رجاها
وبغداد في ربيع صباهها
والنابغون هم أبنائها
وأهل اللسان تبدي اتجاهها
خط فيهم حدوده وتلاها
ما فيه للنفسوس شفاها
وله أخضع النحاة الجباها
"لابن خلدون" لم نجد أشباهها
وإلينا وإن سوانا ادعاهها
بعضهم في بلاد مصر ارتضاها

ورأى : مذ تموت نفس بأرض
غفر الله نزعاً لذويها
وسلام على ابن خلدون
وتغذوا بكعبة العلم فيها
إلى أن يقول :

تلك يا نشء صفحة الأمس فاقراً
وصل الحاضر المبارك بالما
هذه كعبة الزمان فهل في
هذه قبلة الشمال فهي
إن من تنتمي إليها وتمشي
سرحة عبقرية في الليالي
قد أنيطت بها الأمانى وشدت
وأراد العلى بها الله لما
"طاهر" الذكر ، خير من هب
وإذا عدّ في الورى مصلحوها
طرق الابتكار في السير والإ
فرسم خطاه يا نشء تحفظ
فهو عنوان فخرها في المعالي
وتضافر عزائمها ونوايا
وافتخر بيننا بعهد جديد

فليها حتما يكون انتمائها
حملتهم ضلالها وخطاها
فيمن نشأوا من بلادنا في ثراها
وحبتهم سماؤها بجداها
معجزات الفخار في محتواها
ضي وخل للصروف تبدي قواها
ك طموح يعيد ماضي علاها؟
بنشاط الشباب عهد مناها
أيها النشء في ظلال هداها
بارك الله في الكتاب جناها
بهدي الدين واللسان عراها
بإمام في المصلحين حباها
يرعاها ويحمي من الصروف حماها
فابن عاشور من به تتباهى
صلاح من رأيه يفيض سناها
في الليالي عهودها وولاها
ومناها وذخرها وفتاها
واتحد حوله لأجل ارتقاها
كعبة الدين فيه حبت رجاها

سجلت في سجلها خير سطر ذهبي ينم عن مبتغاهـا
إن ذكرى ولاية الشيخ عيـدي فمحـال عليـاً أن أنساهـا
وهبتني العلى لواء عليـا واسمه قد نقشته في لواها
وقال الأستاذ الشيخ التهامي الزهار:

إن المسلم يرتاح جدا عندما يعلم ما سارت إليه المكتبة الزيتونية
العامة في فجر عام من تسلم الأستاذ الأكبر الشيخ الطاهر ابن عاشور
شيخ الجامع الأعظم وفروعه، أبقاه الله لإدارة هذا المعهد المبارك.
في مثل هذا اليوم من الشهر من العام المنصرم سار سريان البرق
نبأ تسلم الأستاذ الإمام لمقاليد إدارة كليتنا، واستبشر الناس خيرا،
وعلقوا الآمال، وانبعث في نفوس الزيتونيين ومن يمت إليهم بصلة روح
الجد والنشاط:

ثم تحدث الخطيب عن أهم الأعمال التي حققها الأستاذ الإمام في
ظرف عام واحد من عودته إلى مشيخة الجامعة، وقسمها إلى قسمين:

1- كتب الدراسة وأساليب التدريس، وذكر أن الإمام قد كون لجنة من
مدرسي الزيتونة وكلفهم باختيار الكتب النافعة، والبحث في طرق
التدريس الكفيلة بتحقيق الغرض المطلوب على أحسن وجه، وأخصر
طريق، كما أوصى بتشجيع المؤلفين على التأليف من طرف الهيآت
المسؤولة، والاعتناء بالعلوم العصرية التي لا بد منها في بناء الحياة
ومواكبة التطور الحضاري، كالعلوم الطبيعية وخصائص الأشياء وعلوم
الحساب وغيرها، وبسط القول في البرامج المحددة لمختلف مراحل
التعليم الزيتوني.

2- معاهد التعليم التي فتحتها مشيخة الزيتونة لضيق الجامع الأعظم رغم رحابته، عن إيواء جميع الطلبة الذين يتوافدون من مختلف أرجاء تونس والأقطار العربية الإسلامية الأخرى!

وختم خطابه بقوله: «وفي الختام لا يسعني إلا الإشادة بالمشروع الجليل الذي تم في عهد الإمام، ألا وهو مشروع الحي الزيتوني ذلك المشروع الذي يرمي إلى تأسيس بناية عظمى تأوي أكبر عدد ممكن من الطلبة تتوفر فيها وسائل الراحة وتعينهم على مواصلة مراحل التعلم».

وقال الأستاذ الطيب العنابي:

اليوم وقد عاد للزيتونة الكريمة إمامها . اليوم وقد أخذ القوس باريها . اليوم وقد سكن الدار بانيها . اليوم اليوم فقط يمكن لنا القول بأن العلوم الطبيعية وجدت بالزيتونة . نعم إن هاته العلوم وجدت ولكن لا فقط فوق النسخ المطبوعة من البرنامج العام للدراسة الذي أعدته مشيخة الجامع بل أنها وجدت ببرامجها وبأقسامها وبتلامذتها وبمدرسيها أيضا، حيث توفقت المشيخة إلى تكليف الزيتونيين الأكفاء من المحرزين على دبلوم الخلدونية أو على بعض الشهادات الفرنسية بتدريس هاته العلوم وحيث ضمت لهم بالإعارة⁽¹⁾ رجلين فنيين من متخرجي الكليات الفرنسية .

وهذا يا سادتي كثير وكثير جدا وهذا كثير لأن الخطوة الأولى الخطوة الصعبة الحرجة المحرجة قد وقع القيام بها بكل جرأة وبكل ثبات وبكل حزم أيضا على الوجه الأتم الأكمل وهذا ما نحمد الله عليه».

ثم قال : وسيشرق العلم من جديد بحول الله، وسيشرق علينا من جديد وتلك سنة الله في خلقه، وسيعود العلم لنا لأننا نريد أن نعيش ونريد أن نسعد .

(1) في الأصل الإخارة، والظاهر: الإعارة.

ولعلنا قد قطعنا اليوم مرحلة التأمل في الماضي للوثوق به . ولعله يجب علينا أن نتجه أبصارنا دائما إلى الأمام وأن نتطلع نفوسنا دائما إلى المستقبل . وأن نحاول بالعمل بعدما حاولنا بالقول مجاراة العصر والتغلب -إن شاء الله- في حلبة السباق به . فالإنسان ابن يومه لا ابن أمسه . والرجل الكامل هو ذلك الذي يتلاءم مع عصره، ورحم الله ابن عمنا العربي النبيل حيث يقول:

لعمرك ما الإنسان إلا ابن يومه على ما تجلى يومه لا ابن أمسه
وما الفخر بالعظم الرميم وإنما فخار الذي يبغي الفخار لنفسه
ففي قوله هذا حكمة بالغة خالدة نستتير بها إن شئنا ونهتدي والله
ولي التوفيق .

وقال الأديب الشاعر الأستاذ محمد التهامي عمار:

يا شباب اليوم أشياخ غد	أفلا تصبون فيمن قد صبا؟
إن فيكم صبوة "محمودة"	تنعش الروح كما هب الصبا
صبوة للمجد في عليائه	يا بناء الصرح مدوا السببا
وارتقوا نحو السموات العلى	سوف نرقى للسماء مرقى الربا
ربما سخرها الله لنا	وأراضيه جميعا واجتبي
علم الأسماء أبانا وله	أسجد الأملاك إلا من أبى
أو لسنا خلفاء الله في	أرضه استخلفنا واحتجبا
ها هو القرآن في أيديكموا	فارفعوا عن دفتيه الحجبا
إننا لسنا كأهل الكهف أن	ضرب النوم علينا طنبا
نومة الجهل أصابت مقتلا	من نفوس وتعاطت عطبا

يا لك الله عدوا مخطرا
ادفعوا الجهل بعلم نافع
علموا الأسماء علوما كلها
كل علم نافع إلا الذي
ودعوا التفريق ظهريا فما
واجعلوا رمزكم زيتونة
واققدوا بالشيخ في سيرته
فهو شيخ شب في مشروعه
شيخنا الطاهر في مقصده
جامع الزيتونة استبشر واهـ
إذا وليتم أمرها في حكمة
أنت عنوان اتحاد في هوى
تبتغي الإصلاح للأصل ولد
يا ابن خلدون ويا أستاذنا
ادع بالحكمة والحسنى فمن
قسما بالصحب عشرا ووصا
وبيوم ذي نجاة من ردى
ما نجت من أمة إلا إذا
إنما ديننا توحيد قل
هذه شرعة طه فاقتفوا

أورث الذل وأخزى وسبى
يبعث المور انحى حقا
كي تفوزوا وتنالوا الرتبة
يزرع البغضاء بين القربا
بسوى التوحيد نقضي أربا
بوركت والنور منها ما خبا
سير حزم رغبا أو رهبا
كان خير ابن ولالأبنا أبا
يا ابن عاشور وقبتم حربا
تز منها كل فرع طربا
جامعا ما فرقت أبدي سبا
لفروع عشرة ضم القبا
فرع والجمع لشمْل وجبا
يا إماما لا يبالي النصب
خطب العليا أدام الطلب
يا الليالي العشر في خبر نبا
يوم عاشوراء موقور الحبا
وحدث صفا وقلبا قلبا
وب ورب ومحيد عن غبا
كل من لم يقف طه كذبا

فله أركى صلاة إنه أكمل الدين أتم الأدبـا
وله منا سلام فهو من قد هدى سبل السلام النجبا
ما أقامت حفلة إخواننا وتالي الخطبا والأدبـا
وقال الأستاذ الشيخ التيجاني بوراوي:

(في مثل هذا اليوم لسنة خلت زف للأمة التونسية نبأ عظيم كانت
الألسن تنقل بشائره بين الأفراد، والبرق يرسم حديثه للعيون. والمذايع
تذيع خبره في الأصقاع، والهواتف تسر أمره إلى الأسماع، فإذا القلوب
تفعم حبورا، والنفوس تفيض سرورا، والوجوه تنبسط استبشارا. ذلك هو
نبأ رجوع الأستاذ الإمام علامة القطر مولانا الشيخ سيدي محمد الطاهر
ابن عاشور إلى الكلية الزيتونية يدير شؤونها ويدبر أمورها. وبمجرد ما
ذاع هذا النبأ، اشرأبت لكليتنا الأعناق، وتطلعت إليها الرؤوس، وتوجهت
نحوها القلوب، ثم هرعت إلى الحاضرة كتائب الوافدين من طلاب العلم
كسيول تتحدر دفاقة بعد أن تحطمت عنها السدود).

وأضاف يقول: (يزعم الناس -وحقا ما زعموا- أن شيخنا عصري
الرأي. ميال للتجديد ولوع بمسايرة الزمن. شغوف بمستحدثات العلم.
حريص على السير بكليته في قافلة التطور.

أجل...! وإنه مع ذلك لأليف المصحف، وسمير القرآن، وجار الله في
هذا الزمان، بل إن هذا هو الغالب عليه والمتحكم فيه، حتى أن العارف
بشخصه لا يكاد يذكره إلا مقرونا بحل لمغلق من معجز القرآن أو لكشف
عن مستور من أسرار التنزيل، وإذا فلا غرو إن رأيناه يجعل للقرآن
النصيب الأوفر والحظ الأكبر من مواد الدراسة التي يتلقاها الطالب
الزيتوني فور اندراجه في التعليم).

وختم التيجاني خطابه بقوله:

(قد مضى علينا حين من الدهر ونحن لا نزال في طور التشهي والتمني فهل آن لنا أن نعمل لرفع مكانتنا بين الناس وشرقنا في التاريخ؟... هل آن لنا أن نخلع ثياب الخمول وأ، نغير ما نحن عليه من جمود؟ أليس القرآن يقول: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ» أ بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم...»؟ ألم تنصتوا إلى تلك الروح الزيتونية وهي تهيب بكم من عالم الخلد بلسان المرحوم أبي القاسم الشاذلي

إذا الشعب يوما أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر).

وقال الأستاذ الصادق البسيس:

(إننا نجتمع في هذه الآونة الطيبة محفليين بشيخ الزيتونة المصلح، وقائدها الأمين، وزعيمها الجريء، وأبيها الحنون، والذي نفسي بيده ما احتفلنا بك إلا لما رأينا من فضلك على أبناء الزيتونة وما بذلت وما جاهدت وما أصلحت وما أبدعت من مناهج متينة صالحة لبث الروح العلمية في كليتنا العامرة وجامعتنا المقدسة، خارسة الإسلام، وحامية العربية، ومفخرة الخضراء ماضيا وحاضرا، لقد مضى عام على ولايتك العزيزة عام مخصب ربان، عام عامر بالمشاريع القوية، فياض بالإصلاحات الحية، عام قطعت فيه الزيتونة مراحل مجدة ستصل بموالة السير في هذا الميدان إلى ما يرجى لها من سعادة راضية وتطور أصيل الدعائم واضح المعالم).

وأضاف قائلا:

(لقد تتبعنا عن كثب أعمالك فرأيناك مصلحا حازما نافذا لا تعيقك العقابيل ولا تشيك العقبات.

غيرت منهاج التعليم وقلبته رأسا على عقب، وأبدلت الكتب وفتحت آفاقا جديدة من الثقافة الحديثة في وجه أبنائك فولجوها بعزائم صلاب وقرائح متشوقة إلى الجديد، طموح إلى الصالح من كل ما أحدثه العقل البشري من طرائق مستجدة في البحث وأساليب حية في العلم).

وختم خطابه بقوله:

ألا سقيا ورعيا لعهود كانت فيها علماء الإسلام لا تأخذهم في الحق لومة لائم، ولولا جرأتهم ما خلدوا في التاريخ ورددت الأيام والليالي أصداء حياتهم الصائلة الجائلة تلك حسناتك الحسنى وتلك فضيلتك الجميلة بها تصلح وبها تعالج، وعليها بعد الله تعتمد وعلى جندك الزيتوني العتيد لنقبل على مناهل الإصلاح إقبالا ولنسرع الخطى في هذا المراد الجليل فقد تأخرنا كثيرا على حين تقدم الناس.

لتكن الزيتونة قبلة الجميع في العمل ولنضع في سيرنا السريع قاعدة لا نتخطاها هي أن نتزود من قديمنا بما فيه من ذخائر مليئة بالقوة والامتانة والصلوحيّة للزمان، فبالقديم نستطيع أن نأخذ من الجديد وأن نقتبس من الحديث، لأن قديم هذه الأمة العربية المسلمة هو جديد على الزمان بما فيه من مواد نفيسة وموارث فياضة بالحياة).

وقال الشاب الأديب محمد كدوس:

(لقد أبى عميد كليتنا الزيتونية العامرة ومديرها الحالي الجديد إلا أن تتماشى كليته مع القرن العشرين، فترك من النظم القديمة ما وجب تركه وأدخل من التحسينات العصرية ما وجب إدخاله ولازال مستمرا بحمد الله في أداء ما رآه واجبا عليه مسدلا أياديهِ البيضاء نحو محط ثقة الشعب والزيتونيين الهاتفين به).

وتحدث طويلا عن الأنظمة القديمة في الزيتونة وما تحولت إليه بفضل عميد الكلية الذي همه النهوض بالتلميذ الزيتوني إلى مستوى أرقى تفكيراً وعلماً وحياءً، ثم ختم خطابه بقوله: (وأخيراً لا يسعنا أيها الإخوان إلا الاعتراف بالجميل للمصلح المجاهد - الإمام الجليل، مدير الجامعة الزيتونية الجديدة.

كما أننا نحیی من صميم أفئدتنا نائبه للمدارس النزيه الذي لا زلنا ندين له بالشكر، ولا إخال روح ابن الحبحاب المقدسة إلا ترفرف مشاركة لنا في هذا الحفل المبارك، إلى الأمام أيها الجامع المعمور، إلى الأمام بقائد يقظ ويحسن القيادة، فليحيى الجامع المعمور وليحيى مديره الحالي⁽¹⁾.

وقال الشيخ محمد المازوني:

ندعو الله أن يمهّد الطريق ويذل العقبات لمديرنا الفذ حتى يحقق لنا هذا الأمل الذي طالما خالَج ضمائرنا وانفتح بجانب الإصلاحات العظيمة التي اجتمعنا الآن للتتويه بشأنها، والله يحقق الآمال.

والأمل الذي ركز الخطيب حديثه عليه -بصفته نائباً عن الرابطة الرياضية الزيتونية- هو إعطاء الرياضة من الجهد والعناية ما تؤدي به مهمتها جسماً وفكراً وروحاً، وجعلها في الجامع إجبارية، وإيجاد ميزانية خاصة بها حتى لا تكون عالة على غيرها في توفير ما يلزمها من الأثاث والآلات لتعاطي جميع فنون الرياضة.

(1) كل هذه اللقطات من الخطب والقصائد عن الإمام ابن عاشور نُقلت من المجلة الزيتونية: العدد الخاص بالمناسبة.

وقال الأديب الشاب محمد الصالح الشتوي:
أحييك من يوم يسجله الدهر
ويبقى على مر الزمان له ذكر
به هتفت في الكون ألسن يعرّب
رردد في ساحاتها النثر والشعر
به عمت البشرية فرددت النهى
ثناء وكان الزهر يعبق والعطر
به أمست الخضر آمال أمة
وقيل قديما طابق الخبر الخير
أجل حلّ من تهواه في الناس أنفس
وألقى عصى موسى فقد بطل السحر
إمام على كل العقول مقدم
له الرتبة العليا له الشأن والأمر
تربع في عرش المهابة والعلا
ومن فيضه قد أمرع العقل والفكر
وهل يستطيع الشعر حصر فضائل
وهل يمسكن السد إن زخر البحر
وما غايته بالشعر أبغي مثوبة
ولكنه دين يوفي به الحر
لتهناً أقوام ويأمن معشر
وتخرس في أفواههم ألسن غدر

وإني امرؤ حبي الفضيلة إنما
حياتي لها وقف وإلا فلي قبر
وليس سواها في الأمور يهزني
ويلتذه سمعي ويعشقه الفكر
خصوصا إذا كانت لقومي ومعشري
فتلك التي حقا لها مني الشكر
ليشهد كل الناس أننا معشر
نحب العلا معبودنا الفخر والذكر
نطالب بالإصلاح قد بح صوتنا
فهل من فتى يمشي يعززه النصر
لنا أمل في قائد النشء والألى
غدوا حوله يحدوهم الصدق والظفر
فسر بسفين⁽¹⁾ القوم أنت زمامها
تصرفها لا يلوك المد والجزر
وهذا الشباب الحي يهتف باسمكم
فلا ينثني دوما وإن عزب الأمر
فكونوا له في النائبات يكن لكم
وفي تنتض⁽²⁾ منه المهندة السمر
لنحيا إلى الخضر فأنت إمامها
ويحيا بكم ما أنجب المعهد الحر.

(1) جمع سفينة.

(2) كذا في الأصل ومعنى الكلمة غير واضح.

وقال الشاعر علي بن رمضان الشابي:

يا طاهراً طهرت كل قديمنا وبعزمك أضحيت خير مديرتنا
سر للأمام فإنك الرجل الذي لم يعهد التاريخ طيلة نشئنا
أيقظت من رقدت جفونه بالكرى حتى يكون معززا لنشاطنا
ها نحن نحتفل بدورة فلكك مثل النجوم نعتز فيها ببدرنا
من هو ذا البدر المضيء المرتضى قلت العشور لواحد مع شهرنا
لله درك من فضيلة سائد بالمعهد الزيتوني كعبة قطرنا
صوب الثقافة والمفاخر والعلی والعز والإيمان بشرى لشعبنا
أما النظام إذا إليك قلادة ألبسته للشيخ مع تلميذنا
ذلت كل عويصة في سيرك ونجحت في العام الوحيد لجمعنا
فسل المدارس إذ تجبك بدورها من مطبخ أضحي وخافر نومنا
وزد رياضة قد أتاها شبابنا مثل الأسود تؤموا نحو عوبرنا
أبقاك رب الدنيا شيخا فاضلا ترنو إلينا منظما لصفوفنا

وقال الشيخ بو علي الغربي:

(لقد سنحت فرصة دعوة الإخوان الزيتونيين لإقامة هذا الحفل البهيج إحياءاً لذكرى مرور سنة على عودة فضيلة مولانا الأستاذ الإمام لمشيخة إدارة جامع الزيتونة المعمور وفروعه، ومكنتني تلك الفرصة لإلقاء هاته الكلمة الموجزة في التقدير والإعجاب والتأييد لما أبرزته مقدرة مولانا الأستاذ السامية من الإصلاحات والتحسينات التي طالما طالب بها الزيتونيون ومن يمت إليهم بأدنى سبب ولم ينالوا منها شيئاً حتى نيطت من جديد إدارة مشيخة الجامع لأستاذنا فضيلة الشيخ المحتفل به فنالوا البعض منها وسينالونها كاملة غير منقوصة بحول الله ومعونته.

ثم تحدث الخطيب عن الإصلاحات الهامة التي أدخلها الإمام عميد الزيتونة على التعليم والتي يراد إدخالها مستقبلا سواء منها المادية أو المعنوية، وسواء منها التي تتعلق بالجامع الأعظم أو بفروعه المختلفة! وختم خطابه بقوله:

(والأمل وطيد في تأييد طلبنا المحق وإبداء النظر السريع في شأنه حتى تتحقق رغائبنا وننال حقوقنا لا سيما وفضيلة مولانا شيخ الجامع المعمور من قصر نفسه على تحقيق الطلبات والرغبات المحقة، أنالكم الله ما تتمنون «والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون».

وقال العلامة الشيخ الناصر الصدام:

(إن يوما اجتلت فيه العيون ملؤها محامد لا تُحصى وفضائل لا تستقصى لجدير بأن يتخذها المعهد العلمي وأهله عيدا لأولهم وآخرهم استدرازا للرحمة وشكرا للنعمة، والشكر كفيل بالمزيد، هو ذلكم اليوم الخالد فخره المردد في الخافقين، ذكره يوم أسبغ الله تعالى فيه النعمة على ذوي العلم وأضفاها وأتمها ووالاها إذ ألقى مقاليدها إلى من اختصه فيهم بالإمامة ونفله ما نفله من معالم الرياسة والزعامة فوسع أبقاه الله معاهد العرفان أصولا وفروعا، ورجالها أفرادا وجموعا، واتحد نظامهم ورجحت أحلامهم وتقدم بهم إلى الأمام إمامهم بما آتاه الله من مكارم أخلاق وحكمة وأصالة رأي وبصيرة، بتمهيد مناهج التعليم واختيار الكتب الرئيسية في كل فن (سده الله تعالى بتأييده) إلى ما هو أعلق بالأفكار وأوفق بالأمزجة وأخص بالقرائح المستترة).

وختم العلامة الصدام خطابه بقوله: (فإلى الله تعالى الضراعة في إطالة حياة أستاذنا الإمام الأكبر الشيخ سيدي محمد الطاهر ابن عاشور وإمداده بعونه من لدنه إلى أن يشهد الجميع لأمثال هذا الموسم الميمون أعيادا وبلغ كل محب للصالح العام مرادا، والسلام عليكم ورحمة الله).

وقال الأديب الشاب صالح عباس:

شيخ الشيوخ اليوم يكمل عزه ونراه مصباحا يضيء المعهدا
يا شيخنا أنتم رجاء نفوسنا فاشفوا شبابا ناشطا متوحدا
فأتيتنا كالغيث تحيي مواتنا وتبث فينا عزمك المتجددا
فلقينا فيك كل فضيلة وشعورنا الفياض أضحي زائدا
يا أيها الأستاذ سر متقدما فسبيلنا الإصلاح أمسى معبدا
ما فيه من ريب يعطل سيره أهنأك من يرضى ظلما خالدا
فالشمس قد لاحت وسار سناؤها شرقا وغربا بالنهوض مشيدا
مهما يكن أمر العدو الحاسد بالجامع المعمور دوما سائدا
بالتاهر المفضال يقوى نوره ويكون في كل العصور مؤبدا
فالنشء والشبان فيك آمالهم وكذا الشيوخ الأكرمون الرشدا
إنا نقدر فيك كل عظمة حتى نراك تكون أنت السائدا
حتى يكون المعهد مترافعا يسمو إلى الخيرات يعلو صاعدا
في عصركم يحظى بكل رجائه وينال عزا ثابتا متزايدا
يا أيها المصباح أضو ربوعنا فشبابنا الضمآن صار مساعدا
يا راكبا فاسرع وبلغ صوتته وارفع لتونس راية فوق العدا

وقال الأديب الشاعر الشيخ سالم الضيف:

أيها الطاهر العظيم المجدد أنت في الشعب مصلح ومجدد
وجليل في العلم والعلم أسمى نعمة في الوجود يا خير مرشد
جئت للمعهد الذي فيك يرجو لترقي تعليمه وتجدد

فازدهى باسمكم ونال حياة
فاعتبار التطوير العصري فيها
يا لها رحمة سرت وتجلت
حبذا ما جرى ولكن بقينا
ففروع الآفاق لا زال فيها
فالعلا بالعلوم لا بسواها
يا ابن عاشور إننا منك نرجو
فالبلاذ تريد علما عميما
هذه نقطة تنادي أجبرني
منك أبغي فرعا يصون حياتي
عاقني البعد مما أصبو إليه
فلقد تقت للرقى ولكن
علة الشرقيين جهل وبعد
علم الغرب فارتقى وتعلا
ولقد كان عكس هذا قديما
يرشد الناس للمعالي ويدعو
ذاك عهد مضى فياليت قومي
كان مجد الإسلام فيه عظيما
يا ابن عاشور إننا قد وضعنا
فكن القائد الذي هو يدعو
وكن القائد الذي هو يرضي

في نظام التعليم لم تك تعهد
واعتبار الذوق السليم مؤبد
في الفروع والأصل بعد التعقد
في انتظار الإتمام في كل معهد
بعض نقص وتهوى ضما مخلد
وبالإصلاح والنظام الموحد
أن تزيد إلى الفروع التعدد
عربيا يسمو بشرعة أحمد
يا بن عاشور أنت لي خير منجد
من شرور الجهل الذي ليس يجحد
من علوم فكن إليّ مزود
هو بالعلم لا بغيره يقصد
عن علوم الحياة لا غير فاشهد
وهوى الشرق حيث جهل منك
يوم كان الزعيم هو محمد
اطلبوا العلم فهو فرض مؤكد
حافظوا عنه بالعلوم وازبد
ورفيعا بكل عز وسؤدد
فيك آمالنا التي هي أوكد
وينادي بالعلم في كل مشهد
كل من يطلب الفروع وينشد

وقال المؤرخ الشهير الأستاذ محمد الصالح المهدي:

(يا صاحب السماحة والرجاحة ومن انتهت إليه الكياسة والرئاسة الأستاذ الإمام، وعلم الأعلام الشيخ سيدي محمد الطاهر ابن عاشور الشريف، ويا أيها العلماء الأعلام والسادة الكرام، لقد طلبت مني جمعية الإخوان الزيتونيين أخذ الله بيدها إلى طريق الصواب أن أقول كلمة في حفلها هذا الذي أقامته كذكرى لعودة مولانا الهمام إلى إدارة المعهد الزيتوني المعمور فلبيت نداءها، ورغم تبلبل البال، ووفرة الأعمال فقد أمكن لي أن أجمع من المعلومات ما ملأ نحو الأربعين ورقة في صيغة خطاب وهي نقطة من بحر من الأعمال الزاخرة التي قام بها أبقاه الله وذرة من شعاع امتدّ سنائه ونوره طيلة خمسين عاما .

وإني أرجو أن أعتبر هاته الصفحات التي جمعتها كعربون على الولاء أقدمها إلى فضيلته بهاته المناسبة أمدّ الله في أنفاسه وأبقاه ذخرا للأمة الإسلامية).

ولضيق المجال عن عرض الخطاب الطويل المسهب الذي أعده لهذه المناسبة التاريخية قدم موجزا عن العائلة العاشورية التي تفرع منها هذا الغصن المثمر الإمام العميد ثم تحدث عن شيوخ الإمام المشاهير ازدانت بهم الجامعة الزيتونية أمثال الشيخ سالم بوحاجب، والشيخ عمر بن الشيخ والشيخ محمد النجار، والشيخ محمد بن يوسف، وغيرهم. وتعرض لنجاحه في الرتبة الأولى من التدريس بجامع الزيتونة، وكان موضوع الدرس الذي امتحن فيه في بيع الخيار، فتفوق فيه تحليلا وتعليلا وحسن إلقاء، مما جعل أصدقاءه العلماء والأدباء يحيونه تحايا نثرية وشعرية منها قول الشاعر الظريف الشيخ عبد العزيز المسعودي أحد كتبة الدولة التونسية بالوزارة الكبرى في ذلك العهد:

لو بان للعين ما يخفيه تعبير لشابه الرسم والتشخيص تحرير
وأصبحت صور الألفاظ إن كتبت يبدى معانيها كالشكل تسطير
وكنت تبصر ما أنشيه تهئية غب انتظار إلى أن جاء تبشير
كانت هنالك أنفاس تصعدها منا القلوب وقد فاجها تحذير
ثم استضاءت لنا من بعد أفئدة كأنما هي سلك فيه تنوير
وأصبح الجامع المعمور مبهجا حيث استقر له بالعلم تعمير
ولبت من خطط التدريس أعظمها لما علا منك في التدريس تقرير
وجئت نحو مقام العلم تشهده ثمار غرس له والقلب مسرور
فجئت بالواجب المقصود تشرحه ولم نجد عن مقام فيه تفسير
وكم عهدناك قبل اليوم منتصرا وصاحب العلم بين الناس منصور
الله يبقيك تحيي العلم مرتقبا مراتبا أنت فيها اليوم مشكورا
كما تحدث عن عنصر هام من عناصر الخطاب وهو اجتماع الإمام ابن
عاشور بأكابر العظماء، وذكر منهم اثنين: أحدهما شرقي والآخر غربي
وهذا حديثه عن ذلك:

(ولقد كان لمجالس العلم التي تعقد بين أكابر عظماء الرجال سواء من
نابتة هذا القطر أو من الأقطار الأخرى ويحضرها شيخنا العلامة الأثر
الأكبر فيما امتاز به من الإقدام على القيام بالأعمال العظيمة لفائدة
المجتمع التونسي، وأذكر لكم من تلك المجالس مجلسين أحدهما مع
عالم شرقي والآخر مع عالم غربي. إنه لا يخفى على حضراتكم أن
الأستاذ الإمام مفتي الديار المصرية الشيخ محمد عبده كان جاء زائرا
إلى البلاد التونسية في صائفة عام 1321 هـ، وقد حلّ ضيفا بمدينة

مرسى جراح المشهور بالمرسى عند المنعم الوزير خليل بوحاجب بقصره المعروف هناك، ذلك لأن هذا الوزير كان زوجاً لأميرة مصرية هي الأميرة نازلي هانم، فكان ذلك سبباً لنزوله ضيفاً بالمرسى، وكانت المجالس الخاصة التي تعقد بين الزائر العظيم ومفكري الشعب التونسي بما فيهم من شيوخ وشباب لا يتخلف عنها الشيخ الأستاذ ابن عاشور، ولقد كان من جملة الذين طلبوا منه أن يلقي درساً بالجمعية الخلدونية في العلوم الإسلامية وقد كان عضواً بها في مجلسها الإداري فألقى درسه المعروف في شهر جمادى الثانية سنة إحدى وعشرين من هذا القرن. إن روح المصلح العظيم المفتي المصري قد كان لها بعض الأثر المحسوس في النشاط الذهني لأستاذنا الإمام.

أما العالم الغربي الذي اجتمع به شيخنا العلامة فهو المستشرق الشهير والعالم الباحث أوبنهايم المعروف بمباحثه عن أصول الفلسفة الإسلامية ومقارنتها بفلسفة المذاهب والملل الأخرى).

● قصائد أرسلت لتهنئة الإمام:

وبهذه المناسبة التاريخية بعث إلى الإمام ابن عاشور شعراء آخرون قصائد شعرية يهنئونه على منصبه، ويعبرون له فيها عن إعجابهم بشخصيته العلمية الفذة، وعما يكونون له من الحب والتقدير، وما يعلقونه من آمال فساح على عهده الزاهر!

ورغبةً منا في إفادة القارئ الكريم، وحرصاً على إعطاء حدث التكريم كل مقوماته وكل معالمه، نقدم هذه القصائد بتمامها لأن أخذ بعضها لا يغني عن الكل.

قال العلامة الأستاذ الناصر الصدام:

(الخير في وجه هذا يجتلي النظر
تري بغرته العتق المبين وفي
والمرء تحت مطاوي النطق مختبئ
عرفت (للطاهر) الميمون طالعه
خلق عظيم وأكناف موطأة
وهمة حلقت فوق السماك فما
إلى رجاحة آراء مسددة
سل اليراع وما خط اليمين بها
واسأل منازل عز (دام بهجتها)
قل للذين أحبوا الحمد من سفيه
إن المحامد لا تشرى لدى عطل
فقيمة المرء فيما المرء يحسنه
وآدم أصبح الراقى لمعرفة
من أجل ذلك طار الناس من فرح
وأفاكم علم الأعلام من فخرت
هو الإمام (ابن عاشور) الذي لهجت
وحيد ذا العصر في فضل وفي شرف
قل للزمان تقلب كيف شئت فما
يكاد من ولع بالعلم يشغفه

وفي الملامح والأقوال معتبر
فصيح منطقته ما دونه الدرر
كلامه مظهر ما فيه مستتر
من المحامد شيئاً ليس ينحصر
ومجده تدرك العاني فينتصر
يروم مصعدها شمس ولا قمر
في كل شيء لها الإبداع والأثر
فالكتب يلغى لديها الخبر والخبر
هل أبصرت في السوى كُفئاً له خطر
وما سعوا سعيه يوماً وما قدروا
ولا المراتب تعلي من به خور
وماله في سواها الدهر مفتخر
والعلم فيه لأهل المبكر مزدهر
إذ قال قائلهم قد ساعد القدر
به المعارف واعتزت به الفكر
بطيب أخباره الأعراب والحضر
وعن إرادته الإيراد والصدر
تراه فيمن ترى تسطو به الغير
أن لا تراه بغير العلم يفتكر

تبارك الله ما أزكى شمائله
مولاي ذا المعهد المعمور في ضميا
فاسلك به منهجا ترضى عواقبه
أعلى المراتب ما ترعى الشؤون به
فاسلم ودم للمعالي مفردا علما
وقال الشاعر الكبير محمد
الطاهر ابن عاشور:

(عدتم كعود العقد للعاطل
للمعهد العلمي ترقى به
بكعبة الآمال في مصرنا
فهو الذي يهدي بأنواره
يسوقه باللفظ نحوه الهدى
بكل ذي فضل وذي همة
هناك بجني الخلق المرتضى
كفاه أن أنجب من فضله
الطاهر الأخلاق من إن يقل
علامة العصر الذي علمه
فكل من يقتبس من علمه
إن شغل الناس بأحوالهم
فشغله بالعلم مستحكم

برغم أنف الزمن الماحل
للمستوى المرتفع الحافل
جامعنا عند الفتى العاقل
من ضل واستعصم بالباطل
في تقى للمنزل الأهل
بكل ما يرضي التقي العامل
بنصل دين للهوى قاتل
مادحه أضحي بلا عاذل
لم يترك القول إلى قائل
بحر لذيذ الطعم للناهل
يغدو سراج الرشيد للآمل
في العيش من حاف ومن ناعل
وعن سواه الدهر في شاغل

يا طاهر القلب الذي لم يزل للعلم عوناً ليس بالزائل
عالج من التعليم أدواءه وردد له من مجده الآفل
وغص على ما كان من نقصه لا تقتنع من ذاك بالساحل
حتى ترى الإصلاح قد عمه بثوب حزم للرضى شامل
واجعل لك العون على شأنه فكر الهمام العالم الفاضل
فإنه يعرف أحواله من ظاهر يبدو ومن داخل
وخير من ينجد في مثل ذا رب النهي والخلق الكامل
وقال الشاعر الملهم الهادي المدني شقيق الأستاذ
توفيق المدني⁽¹⁾:

شيخ الشيوخ وسيد العلماء

اليوم يوم تسابق الشعراء
اليوم يوم تسابق الكتاب والخطباء والبلغاء والفصحاء
إيه قريضي قد عهدتك منجدي
فاصطحب إذن بقصيدة فيحاء
اصطحب بشعرك لا يؤودك أن ترى
ما بين جمهرة من النبغاء
فلديك من ذاك المعتقد نبعة
لما تزل في فتنة ورواء
ولديك في أعماق روحك سرحة
تسقي بماء الخلد كل مساء
ولديك من هدي الإمام ونوره
وضح يريك منازل البلغاء
فانشر على الدنيا عبير هنائك العباق ممزوجاً بصدق ولأء

(1) كان يتلظى شوقاً إلى استقلال الجزائر، وكان أيام إقامتي بتونس في إدارة الصحافة للثورة سنة 1957 يتصل بي دائماً ليستفسر عن تطورات الثورة، وانتصاراتها.

وامرح على الدنيا واعلم شرقها
وهداته بالنباة الغراء
اعلم بها البيت العتيق ويشربا
والمصطفى في الروضة الزهراء
وشيوخ مكة والبقيع ومن ثوروا
مثل الأشاوس في ذرى البطحاء
اعلم بها دار المعز و"ضيفها"
والأزهر المكتض بالعلماء
قل هذه زيتونة الخضراء من
بعد ذبول قد ازدهت بنماه
زيتونة ورقاء لا شرقية
بوركت يا زيتونة الخضراء
بوركت يا زيتونة حفظت لنا
نور الهدى والشرعة السمحاء
بوركت يا زيتونة حفظت
لنا لغة الكتاب وحكمة الآباء
ليكاد زيتك أن يضيء العالمين
بدون مس النار أو إذكاء
هذا ابن عاشور الإمام المرتضى
لبي الهدى فأجاب خير نداء
نور على نور ويهدي الله جل جلاله من شاء للآلاء

مال رأيت البرزلي وخذنه
يتخطران بمشية الخيلاء
رأيت خلفهما ابن حبحاب يحث خطاه نحو معارج العلياء
ورأيت هاتيك المنارة طاوالت
إخوانها في مصر والزوراء
ورأيت أبناء الشمال يحشون
خطاهم للكعبة الشماء
ورأيت أذواب القرائح أبرزت
في البيت مسبوكةا من الآراء
ورأيت في الشبان آمالا نمت
وترعرعت من بعد طول عناء
هذا الإمام الطاهر البحر
ابن عاشور يؤوب متوجا بسناء
فيؤوب للبيت المطهر مجددا
ويؤوب للخضراء كل هناء
* * *

مولاي إني قد نايت وربما
يناي الفتى في الفينة الهوجاء
ولقد رجعت وما رجعت لذلك البيت العتيق ولا إلى قرنائي
كيف السبيل لأوبة أشفي بها
مما جناه البعد من الواء

أنا ذلك الطير الشرود محوم
في الأفق أبحث عن نمير الماء
أنا كالهزاز اليوم أشد وكلما
هب النسيم بليلة قمرء
ولهما أشدو إذا ملك السرو
ر عواطفي بقصيدة عصماء
وقال أستاذنا أحمد المختار للوزير:
لبيك داعي العلم إني المستجيب إلى دعائك
هذي الملاحن خافقا
ت الرجوع في دنيا حماك
سجعاتها الإفصاح عن
شوق الفؤاد إلى لقاءك
فاضت من القلب الوفي
وقد أجاب إلى وفائك
فكان رقعة رجعتها
في السماحة من رضاك
وكانها الإشعاع مقتبس اللوامع من سناك
وكانها الفوح الزكي وقد تضرع من شذاك
فصحى تحدث في الورى
عن مجد ما رفعت يداك
للعلم للخلق الكريم ومن مثيلك في بنائك

بشرى لأهل العلم قد
وجدوا الهداية من هداك
فاعد لمعهدنا العتيد شعاع نور من ضياك
إنا وفي الأرواح آمال السمو إلى علاك
نسعى لتحقيق الكما
ل ولا كمال سوى رضاك
وقال الشاعر الجزائري محمد بن عبد الرحمن المسعدي⁽¹⁾:
عاد المنى وسرور النفس قد آبا
وزال عنا العنا والعيش قد طابا
والفكر من فرح هزت مشاعره
ففاض مغتنما للقول أسبابا
مذ أشرق البدر في أفق العلا وبدت
أنواره تجلب الأنظار إعجابا
العالم العامل الفذ الذي انتشرت
في الناس شهرته عجما وأعرابا
السيد الكامل الذاكي المكرم من
قد هاب أصلا وأحسابا وأنسابا
أعني ربيب العلا والمجد من رفعت
آراؤه عن العلم جلبابا

(1) درست عليه الأدب، وكان رحمه الله يؤثرني على جميع طلبته، لما توسمه في من مستقبل أدبيّ
زاهر على حد تعبيره!

سامي المقام رفيع القدر ذا أدب
للناس بالفضل والأخلاق جذابا
محمد الطاهر الفرد ابن عاشور نب
راس الهدى الذي ما ظل مرتابا
طود ولكنه كالزهر في خلق
ليث ولكنه لا يسكن الغابا
من قد تسامت به الخضراء وافتخرت
على سواها ولم تعيا بمن عابا
يا فخر من قد علا هامات العلا شرفا
نرجو بك اليوم للآمال إيابا
فاهنا بما حزت من فخر ومن كرم
واسلم ودم لعروس المجد خطابا
فمعه القطر قد ألقى مقالده
إليك ببغي الدنى فافتح له البابا
وانظر إليه بعين من عنايتكم
كي يمدد اليوم للعلياء أسبابا
واعطف على سائر الطلاب فيه فكم
قاسوا هموما وأحزانا وأتعابا
حقق رجا منته منهم ومبتدئ
والمقتفي منهم شرعا أو آدابا
لا زلت في الشعب نورا يستضيء به
من ضل عنه سبيل الرشدا أو غابا

● خطاب عميد الزيتونة الإمام الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور:

وفي ختام الحفل قام فضيلة شيخ الجامع المحتفل به وألقى هذا الخطاب القيم الذي نقدمه بتمامه، والذي يهيب عن كل رغبة، ويعد بتحقيق كل أمنية، قال رحمه الله:

سبحان من شرف من شاء بخدمة الإسلام نعليما ونشرا وأفاض على أهل العلم من نعمه فيوضا تترى، ورفع قدر بيه محمد صلى الله عليه فجعله داعيا إلى الله وسراجا، وواضعا لبرهان الهدى تأصيلا وإنتاجا، وأيده بأصحابه الذين شادوا للدين هياكل وعالم، ونفحوها من حياطتهم بهمم وعزائم، ورفعوا للأمة رايات هدى فبلغت كلمة الحق بأصدقاء رشدهم إلى أقصى مدى، أما بعد فيا أيها الهلأ الأعزة، لقد أبهجني وعانقني حلولي وسطكم في هذا الحفل المفعم أبناء وإخوانا، تساموا للعلی كهولا وشباناً، وفي هذه الساعات التي منا شاهدت فيها إلا وجوها تسفر عن طيب ضمائر، ولا سمعت إلا أقوالا يظهر ما وراءها من صفاء السرائر، وأن ما يكنه ضميري نحوكم جميعا لأضعاف ما تحويه سريرة كل قائل، وما عبرته عبارة كل متفائل. أما عبارتي فأجدها قاصرة على إيفائكم حق الشكر على ما وجهتموه نحوي من إفصاح عن التعلق وخير الآمال، وكيف تسع العبارة أداء شكر يوازي ما غمرني به المشكورون، ولا سيما أولئكم المقاويل البلغاء من خطباء هذا الحفل وشعرائه، جزاهم الله أحسن الجزاء، وشد ما بيني وبينهم من أواصر واعتزاء، فأرجو أن أكون عندما أملوا وأحقق ما أشاروا إليه من الغايات الطيبة وأجملوا مما فيه نفع العلم وأهله والارتقاء إلى منزلته السامية ومجده.

أما أبنائي طلبة الجامع الأعظم وفروعه الذين تمثل تعلقهم بذاتي
فيما قامت به جمعيتهم الناشطة الموفقة، جمعية الإخوان الزيتونيين من
عقد هذا الاجتماع البهيج، فإني أرى بنوتهم لي علقاً ثميناً جديرة ببيت:
أنا بني نهشل لا ندعي لأب عنه ولا هو بالأبناء يشرينا

وأعد احتفالهم بي في هذه الذكرى احتفالاً بذكرى إجابتي داعي
واجب دعاني إلى إحقاقه، وسعي نبراس هدى نسته⁽¹⁾ يتطلب زيادة
ائتلافه، فلنجعل ذلك تذكرة لنا لنتكاتف على العمل لنفع ذلك المعهد
العظيم كل بما هو في دائرة عمله، ففي هذا المعهد انفتحت كمائم
إنتاجنا ومنه بدا نور سراجنا، فإذا نحن دأبنا على خدمته، كنا قد وفينا
حق نعم أسداها، وارتيدينا حلة فخر هو الذي مد لحمتها وحاك سداها.
وإني ما وضعت على كاهلي عبء الكدح على هذا الغراس النفيس
والدأب على إنماء شجرته المباركة الأرجاء أن ترسخ أصولها وتتكاثر
فروعها وتزكو ثمارها وتكون دانية الجني للمجتي، وأن نبذل في ذلك
مبلغ الطاقة ونستعين بالله لبلوغ الأمنية من ذلك، وأن قوام عملنا هو
تثقيف النشأة الزيتونية بعلوم شريعتها ولغتها وما ينير لها الطريق في
مسيرها بين الأمم وتمدنها حتى نراها تتأغي سلفاً ماجدا مضى وتسابق
معاصرين سبقاً مرتضى.

وحتى يصبحوا فخراً للعروبة والإسلام ويخلد لهم لسان صدق على
ممر الأيام.

وأرى لزاماً عليّ أن أبذل النصيحة لهذا المعهد بما فيه استبقاء سمعته
الطيبة، بحيث يكون أهلاً بمدارسة شتى العلوم وبحيث يكون طالبه

(1) كذا في الأصل وهي غير واضحة المعنى.

وخريجه مثالا لحسن الإقبال على العلم، وللتخلق بمكارم الأخلاق الإسلامية، وللخبرة بما تدعو إليه المدنية الحقّة ثم مثالا للثقافة الكاملة ولحسن القيام بما يناط به من العمل لخدمة أمته ودينه يماثل كوكبا دريا يوقد من شجرة مباركة زيتونة.

وإن ما بذلناه من الجهود في بحر هذا العام للنهوض بالتعليم ولتوفير أسباب راحة الأساتذة والمتعلمين مما أشار إليه جهابذة الخطباء والشعراء لا نعدّه إلا قلا من كثر مما عقدنا عليه النية مع الاستعانة بالله في وضعه في البرامج الإصلاحية، ولكن حاجة التطور والنماء إلى الوقت الكافي سنة الهيئة، والتفكير في تقصير الأوقات وانتهاز الفرص من حيلة الهمم العلية، فلا أسألكم إلا التكاثر والتناصر على أن ننهض بهذا العبء كل بما في وسعه من الاستقامة في الخويصة ومن النصيحة حيثما وجد إليها سبيلا.

ومن إبلاغ مبادئنا إلى من تربطهم به أواصر الصحبة وتشملهم نوادي المراجعة والمطالعة. ولا يحقرن أحد ما يدعو إليه من النصيحة فإن الكلمة الحسنة أبلغ مبالغ لا يحددها الحسابان، ورب مبلغ أرجى من داع. فبذلك نرجو الله أن يحقق ما نصبو إليه من الغايات السامية لننعم بمرأى آثار جهودنا زاكية نامية.

في عصر ملكنا الجليل الذي هو عنوان مجدنا الأثيل، والذي لم يدخر عن مقاصد النهوض العلمي تأييده في كثير ولا قليل، أدام الله عرشه رفيع العماد. وظله الوارف مبسوطة على البلاد. وأنالنا كل نفيس وثمان مما تتوق إليه نفوس العالمين. بعناية الله رب العالمين.

● لمحات من حياة الإمام ابن عاشور:

هو محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر ابن عاشور، من بيت آل عاشور الأشراف الأندلسيين، والجد الأعلى لعائلته هو العالم الزاهد الولي الصالح الشيخ محمد بن عاشور المولود بمدينة (سلا) من المغرب الأقصى، بعد خروج والده من جزيرة الأندلس فارا بدينه، والمتوفى في شهر جمادى الأولى عام 1110 هـ، وقد ترجم له الوزير في (الحل السندسية). ولد مترجمنا بتونس (العاصمة) سنة 1296 هـ في وسط علمي، وجو قرآني، وفيه نشأ وترعرع وشب، وحفظ القرآن الكريم في سن مبكرة، ثم زاول ما تيسر له من اللغة الفرنسية!

وفي سنة 1310 هـ انتظم في سلك الطلبة بجامع الزيتونة فثابر بجد ونشاط على دروسه حتى أحرز على شهادة (التطويع) سنة 1317 هـ. وفي سنة 1320 هـ شارك في مناظرة التدريس من الرتبة الثانية. وفي سنة 1321 هـ سمي مدرسا بالمدرسة الصادقية مع بقائه في التدريس بجامع الزيتونة الأولى.

وفي سنة 1325 هـ عين نائبا عن الدولة لدى نظارة جامع الزيتونة العلمية فابتدأ أعماله بإدخال نظم مهمة على التعليم! ولما تأسست لجنة النظر في تنقيح برنامج التعليم سنة 1329 هـ كان عضوا فيها، وهو الذي تولّى تقدير حالة التعليم.

وفي سنة 1331 هـ أسندت إليه خطة القضاء المالكي بتونس (العاصمة)، ودخل في هيئة النظارة العلمية التي تدبر شؤون جامع الزيتونة.

وفي سنة 1341 هـ سمي مفتيا مالكيا بالديار التونسية وعاد إلى التدريس بجامع الزيتونة وبالمدرسة الصادقية.

وفي سنة 1343هـ عهد إليه بأمر النيابة عن الشيخ (باش مفتي) رئيس المالكية وفوض إليه مباشرة وظائفه الشرعية والعلمية.

وفي سنة 1345هـ ارتقى إلى رتبة باش مفتي بالأصالة، أي أنه صار رئيسا للمجلس الشرعي المالكي.

وفي سنة 1351هـ صدر الأمر الملكي بتلقيبه بـشيخ الإسلام الملكي وتسويته بزميله (شيخ الإسلام الحنفي) تسوية تامة، وفي نفس السنة صدر الأمر الملكي بتعيين رئيس للنظر في شؤون التعليم بجامع الزيتونة بلقب شيخ الجامع الأعظم، وأسندت هذه الرئاسة إلى الشيخ الطاهر ابن عاشور، واحتفل بولايته هذا المنصب يوم السبت 25 جمادى الأولى من هذه السنة 1351هـ في محفل جليل ألقى فيه خطابا تاريخيا بسط فيه القول على أوضاع الجامع وبين مبدأه في إصلاحه، وتناقلت هذا الخطاب أجهزة الإعلام في العاصمة التونسية.

وفي سنة 1950م انتخب عضوا في مجمع اللغة العربية بالقاهرة، وفي سنة 1955م، انتخب عضوا في مجمع اللغة العربية بدمشق.

وله مؤلفات عدة تتسم كلها بطابع العمق، وأشهرها تفسيره القيم: (التحرير والتوير) في ثلاثين مجلداً!

وتوفي -رحمه الله- يوم الأحد 13 رجب عام 1393هـ الموافق لـ 12 أوت 1973م، وسيظل -بفضل علمه الغزير، وأعماله الجليلة، والأجيال العلمية التي رباها، وأضاء طريق الحياة الكريمة أمامها- مفخرة المغرب العربي والعالم العربي والإسلامي قاطبة، وقدوة كل لبيب أريب يطمح إلى العلا والسؤدد.

● من وحي تكريم الإمام ابن عاشور:

إذا كان التكريم أحياناً يفقد دلالاته ومغزاه لوضعه في غير موضعه، فإن تكريم الإمام الطاهر ابن عاشور كتكريم ابنه الروحي الإمام عبد الحميد بن باديس رائد النهضة العلمية والإصلاحية بالجزائر، فكلاهما أدرك رسالته في الحياة، فانقطع لها بكل ما أوتي من علم وموهبة، وحول وقوة، يؤديها بتفان وحب وجد، فلم يكد يمضي على توليه مشيخة الجامعة الزيتونية عام واحد حتى ظهرت ثمار جهاده الفكري والإصلاحي، وأخذت الجامعة في الانتعاش والازدهار، فما من يوم يمضي إلا وهو دون الذي يقبل، وقد كتبت المجلة الزيتونية في افتتاحيتها لعدد 2 - 3 شعبان ورمضان 1364هـ وجويلية وأوت 1945م تقول عن هذا التقدم والازدهار، بفضل هذا الرجل المحنك الذي حباه الله بعلم واسع، وعقل راجح، وتفكير سديد، وإرادة ماضية، وقدرة على مواجهة الصعاب لا تلين ولا تتثنى:

«ووجد الأستاذ الإمام محمد الطاهر ابن عاشور نفسه أمام هذا الواجب - وهو ترقية الجامعة الزيتونية - الذي وجهته نحو فضيلته الإرادة الملكية السنية عن إجماع أهل الدولة ورجال العلم، فلم يسعه إلا أن يهجر كتبه وأوراقه، وينزل إلى المحيط الاجتماعي، فتلقى إليه الهيئة بقياداتها عن نفوس مقتتة بأنه ابن بجدتها وتلتف حوله عواطف التأييد وحسن الثقة، مختلفة المصادر، متباعدة الأوساط.

وابتداً حفظه الله يتقدم بقافلته الناهضة في طريق الجد ومنهج الرشيد، فلا يخطو خطوة إلا والقلوب من ورائه تزداد به تعلقاً، وفي سيره ثقة، والناظرون حواليه يدخلون غمار القافلة، وينصبون في سبلها، حتى

انقضى الموسم الدراسي موسما تاريخيا بما ملأه من أحداث قدرها حق قدرها الخاص والعام.

وقد أقيم حفل تاريخي بهيج بمناسبة اختتام السنة الدراسية بالجامعة الزيتونية قوّمت فيه الأحداث الهامة التي تحققت خلال هذه السنة بقيادة الإمام العميد الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، وأشيد فيه بمجهوداته البناءة ومؤازرة ذوي الهمم الوثابة من رجال العلم والمعرفة، وقدم الإمام خطابا تاريخيا هاما بالمناسبة أشاد فيه بفضيلة العلم، وقدم نصائح غالية للطلبة الزيتونيين وأساتذتهم، وتعرض لوضع التعليم بالزيتونة ماضيا وحاضرا ورّنت الأنظار إلى معاضدة الأوساط الإسلامية وتأبيدها حتى تمكنت الزيتونة من اجتياز عقبات، وتحقيق آمنيات، وجاء في الخطاب بالخصوص: بعد أن عرض على الحاضرين برنامج الزيتونة الجديد:

«وأنا حين أعرض هذا البرنامج الذي أراه خير كفيل لتحقيق آمالنا في الإصلاح يخامرني اليقين بأنني واحد من أبنائي السادة شيوخ التدريس ما أعرف منهم من تسهيل سبل هذا المهم، بما يبذلون في إعانتنا من سامي الهمم لما أبدوه من التفاف حول المشيخة ومعونة على مقرراتها، ومصارحتهم بما يتوسمون منه صلاحا للعلم وذويه، ولقيامهم بالمهام العلمية التي تسند إليهم، بفرط رغبة وعمل بعزيمة، وقد ظهرت آثار المرامي الصائبة، والعزائم المتينة في جميع أركان الجهاز التعليمي واضحة للمبصرين، وستكون بالغة أسمع الواعين فأشكرهم على ما قاموا به من بث العلوم فكّدوا أذهانهم وضايقوا أوقاتهم ليجتثوا لأبنائهم جنى شافيا، ويسيفوهم من مستنبطات أفهامهم نميرا صافيا»⁽¹⁾.

(1) المجلة الزيتونية، جويلية، أوت 1945م.

والذي لا مرء فيه، أن الإمام محمد الطاهر ابن عاشور جدير بهذا التكريم التاريخي الذي خص به، لما يمتاز به من مكانة علمية مرموقة بين العلماء في العصر الحاضر، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن نهوضه بأعباء الزيتونة، وصرفه لاهمته إلى السير بالتعليم الزيتوني نحو الأفضل، وحرصه الشديد على الأخذ بأيديهم حتى يزدهر التعليم وتطيب ثماره، كل ذلك جعل للإمام مكانة فذة في القلوب، وجعل لهذا التكريم أعماق الدلالات، وأوضح المعالم والإشارات.

وهذا كله يجعلنا نقول في جزم ويقين أن كل ما قيل في حفل تكريم الإمام من خطب وقصائد، صدر عن قلوب مלאها القناعة بفضل الرجل، وأنه جدير بكل حفاوة وتقدير، وهذا -لعمري- هو التكريم الذي تطمح إليه النفوس الكبيرة، والهمم العالية لأنه العنوان الظاهر على (الباطن) الطاهر، وإذا كان الموضوع يُدخَلُ إليه من عنوانه، فإن التكريم الصادق من عناوين العظماء التي تدل على حقيقتهم وتهدى إلى كنهم وجوهرهم!

■ تكريم الأستاذ أحمد توفيق المدني

● تمهيد

لا أحد يجهل أو ينكر، أو ينسى، كفاح المرحوم الأستاذ أحمد توفيق المدني، فحياته كلها كفاح بالفكر والقلم واللسان، فقلبه من أيام الطفولة- كان ينبض بحب المغرب العربي، وخاصةً الجزائر أصله، وتونس مولده ومنشأه، وأمله القوي الذي ملك عليه مشاعره وأحاسيسه، أن تطلع شمس الحرية من جديد على هذه البلاد التي غرقت في ظلام الاستعمار الفرنسي، والطريق الذي اختاره لنفسه، وسلكه في اقتناع واعتزاز، هو طريق الكفاح، والمواهب الفطرية، والمحصولات الفكرية التي أنعم الله بها عليه قد أهلتها لذلك وجعلته يؤدي رسالته في الحياة على أحسن وجه، ويبرز بين المناضلين المشاهير، ويحتل مكانة مرموقة في كل أقطار المغرب العربي بالخصوص، وهو بهذا الكفاح، وبهذه المكانة جدير بالتكريم والتقدير، وهذا ما فكر فيه رجال من جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة 1955 بعد أن مرّ عليه ثلاثون سنة بالجزائر من يوم أن نفّث إليها السلطات الاستعمارية الفرنسية، ولندع الأستاذ يحدثنا عن ذلك بنفسه فيما يلي:

«وإننا لفي غمرة هذه الأحداث، والثورة عارمة⁽¹⁾، والقيامه قائمة، إذ تذكر بعض إخواني وأصدقائي، من رجال جمعية العلماء، ومن كبار الشعراء والكتاب المبرزين أنه خلال شهر يونيو من سنة 1955، مرّ عليّ بالقطر الجزائري ثلاثون عاماً، من يوم أبعدتني السلطة الاستعمارية إليه، خاطبني اثنان من الإخوان الفضلاء في الأمر، هما الشيخان حمزة بوكوشة، وأحمد سحنون، وقالوا: إن هذه الفرصة لا يجب أن تضيع أو

(1) يذكر هذا في سياق حديثه عن الأحداث المختلفة وخاصة منها أحداث الثورة التحريرية، ومؤتمر باندونج وكلمة الجزائر فيه.

تهمل، وإننا نريد أن نقيم بهذه المناسبة حفلاً يشارك فيه من أراد المشاركة، و.. فقاطعتهما أقول: أهذا يا إخوتي وقت حفلات وتنويه بذكریات؟ إياكما أن تفكرا في هذا، أو في مثل هذا، الثورة أولاً والثورة أخيراً، لا يجب أن يعمل عمل أو تقال كلمة إلا في ميدان الثورة، بما ينفع الثورة وبما يغذيها. وطال الجدل، واحتدّ أحياناً وقالوا: إنما نحن للثورة نعمل، ولإذكاء نارها نسعي، وإن كنا نحتفل "بالثلاثين" فليس لك من أجل شخصك، بل من أجل عملك الثوري، وتأكيداً لكل من يرى ويسمع، منا ومن أعدائنا، إنّ الأمة الجزائرية لا تتسّى جميل من أحسن وأدي الأمانة بإخلاص، ولا تتسّى إساءة من تتكب عن الطريق السوي ونكص على عقبيه. وفي هذه الفترة الحاسمة بالذات، نريد أن نبرز قيمة رجالنا، وتعلقنا بهم، والتفافنا حولهم، حتى تعلم الحكومة وأذنانها وخدام ركابها، أننا عصابة قوية نسير في طريق الجهاد والتضحية، زمرة متضامنة قوية، لا نهاب أحداً، ولا نخشى نكالا، ولن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا. وزاد على ذلك الشيخ أحمد سحنون الشاعر الملي الفحل، كلمات صادرة من أعماق الفؤاد تشع إيماناً وحماساً، وسكتا وسكت.

وبعد أيام، جاءني الشيخ حمزة يقول: سيقع الحفل يوم العشرين من جوان بمطعم الشباب، المواجه لساحة الحكومة، ويشارك فيه سبعون رجلاً اخترناهم من خاصة الخاصة، وسيلقى به عدد من القصائد والخطب الهادفة، قلت: ما رآه المؤمنون حسناً، فهو عند الله حسن، ويممت القاعة في الساعة المعينة، وإذا بي أجد جمعاً من رجالنا وشبابنا المبرزين، وكانت حفلة من أجمل وأبدع الحفلات يسودها التفاؤل العظيم، والإيمان بنصر الجزائر بعد الجهاد العنيف⁽¹⁾.

(1) حياة كفاح ج 3 ص 90/91 للأستاذ أحمد توفيق المدني.

● حفل التكريم:

وفي يوم 20 جوان سنة 1955 أقيم الحفل التكريمي بمطعم الشباب المواجه لساحة الحكومة، وحضره جمع غفير من أهل العلم والأدب، جاؤوا جميعاً للمشاركة في تكريم رجل طالما هزهم بخطبه الحماسية، ومحاضراته المفيدة القيمة، وألقيت عدة خطب وقصائد شعرية أبدع فيها أصحابها، وعبروا فيها عن تقديرهم للرجل وقد زادهم حماسة ذلك الزحف الثوري المبارك الذي تُسجّل انتصاراته في مختلف أنحاء الجزائر الثائرة الملهبة، ومن هنا كان أبرز ما يميز كل ما قيل في الحفل من خطب وقصائد هو روح الثورة المتعالية، وعزيمة التحرر المتقدمة، والاعتزاز بالأبطال المغاوير، الذين يقودون معارك التحرير بشجاعة وبسالة، وانتظار الغد المشرق الذي بدا فجره على الأفق القريب.

● ممّا قيل في حفل التكريم:

ونقتصر على تقديم أربع قصائد مما قيل في هذا الحفل، وهي التي أمكننا العثور عليها، ونقدمها كاملة لأن الاكتفاء بملقطات منها يُخل بالصورة المعبرة عن المكرم وشعور المكرمين وإحساسهم وهم يعيشون ثورة التحرير الواعدة:

قصيدة المرحوم عبد الكريم العقون⁽¹⁾

كفاحك "أحمد" يطوي السنين ! فسل عنه يا ليث هذا العرين
لقد ذدت عنه العدى ثابتاً أمام الأعاصير، والظالمين
وكافحت يا بطلاً خالداً ! عن العرب تحمي حماهم أمين
فأمعنت في المجد، تبغي الخلود، كأجدادك العرب الخالدين

(1) العنوان من وضع الأستاذ توفيق في كتابه (حياة كفاح).

سنى نوره كاد يغشي العيون
-كوجهك- يسطع في العالمين
تلاً خلف مئات السنين
جلوت محاسن منها، تزين
فأغرت مفاتها، الناظرين
حواها فؤاد ذكي فطين

* * *

يدبج آي البيان فنون !
وسفهمت أحلامهم والظنون
ويجري عليه البيان رصين
ويشفي الصدى ويزيح الشجون
لواعج شوق، وداء دفين
ويأتي بسحر حلال مبین
وتأخذه هزة، وحنين
وتشتاقه كأخ أو خدين
ونبض الفؤاد، وهمس الجفون
دما زاكيا، فائرا، كالأتون
فأنعشتها بالنمير المعين
فأطربت روادها باللحون
بخمر سقيت بها المغرمين

وجردته، كالحسام، يراعا
فأبرزت تاريخنا مشرقا
صحائف مشرقة كالضحى
وبيضت وجهه "الجزائر" إذ
أعدت إليها مفاتها
عوامل من ذكريات الجلال

ويا حبذا قلم فيصل
هزرت عروش الطغاة به
تفيض البلاغة عن جانبيه
تخط به ما يواسي الكلوم
تناجيه نجوى محب، به
فيفصح عما به من جوى
فيشفي لواعجه المحرقات،
تحن إليه خفوق الفؤاد،
تطارحه خلجات الضمير،
تغذيه من قلبك المستفيض
وكم من نواد بك ازدهرت
وكنت بها ظافرا شاديا
فمادت، نشاوى، مرنحة

وحلقت بالسامعين إلى
وأشعلت في الخامدين حماساً
إذا ما خطبت هززت الجموع
خلقت خطيباً تبتذ الرفاق
صهرت الكلام وقد صغته
وذلت تلك المعاني الصعاب
عوالم حافلة بالفتون
أعدت به الروح للخامدين
بصوت له في الجموع رنين
وتصعد كالنجم فوق الظنون
روائع تزري ببدر مصون
وذوبتها نغماً للبنين
* * *

ثلاثون عاماً مضت في النضال
وقضيتها في جهاد طويل
فأبعدت عن موطن زاخر
وكنت ترعرعت في غيله
وضعت العصا هنا وانتضيت
مضاء وعزم، يهد الجبال،
ثبت أمام العدى، صامداً
وأنتك رمز الفدى والثبات
إذا دجت الحادثات انبريت
وترمي الدياجي بفكر منير
فأحب بأخلاقك الطاهرات
يطير السرور بنا كلما
شمائك الغر قدسية
أبيت - بما حملت - أن تلين
مع الجهل، والظلم، والغاصبين
بروح الفداء الذي لا يهون
وكافحت عنه كفاحاً مكين
حساماً يصيب الكلى، والوتين
وصبر على النائبات، ولين
كأنك طود أشم متين
إذا خان قوم فلسست تخون
تنورها بضياء اليقين
كبدر يشق سناء الدجون
كروض به الآس، والياسمين!
لمحناك تبسم، طلق الجبين
تغذيتها من هدى مستبين

ويا أيها الجمع ! يا من رعى بهذا الزمان ، حقوق القرين
أرى النور يعلو محيّاك إذ وفيت له فقضيت الديون
"أتوفيق" ! سر في طريق العلا فحولك أسد الحمى الطامحون
وعش للعروبة ، رائدها ، ودم "للجزائر" حصنا حصين
قصيدة الشيخ أحمد سحنون⁽¹⁾

يا جمال البصائر	وجليل المآثر
وجديرا بأن يكو	ن إمام (الجزائر)
سوف تغدو بخير سع	يك خير الجزائر
سوف يأتي صباحها	بعد هدى الدياجر
مؤذنا بانتصارها	معلنا للبشائر
أنت (توفيق) أمة	شغفت بالمفاخر
لك الهام فيلسو	ف وإحساس شاعر
ويـراع كأنما	نفشه نفت ساحر
وافتراع إذا اعتلي	ت متون المنابر
وتآليف للجزا	ئر هي أغلى الذخائر
وخلال أريجها	كأريج الأزاهر
ودهاء يريك ما	في خفايا السرائر
وأناة بها تحد	يت سود المخاطر
أي ذكر على الشفا	ه مدى الدهر عاطر
أنت -والله- خالد	رغم أنف المكابر

(1) العنوان من وضع الأستاذ توفيق المدني في كتابه (حياة كفاح).

قصيدة شاعر الثورة مفدي زكريا⁽¹⁾
شاكرُ الفضل، ليس يُعَدُّ شُكْراً
خلدوها إذن، (لأحمد) ذكرى
واكتبوها، وليقرأ الجيل منها
في (كتاب الجزائر) اليوم سطرًا⁽²⁾
واذكروا اليوم - وهو عيد الضحايا⁽³⁾
و(الضحايا) رمز الضحايا الأبرار!
و(الثلاثين) قد قضاها، جهاداً
وجلاداً، تخالها اليوم شهراً
عامراتٌ بالجدِّ، إن تنشروها
تنشروا في ذرى الجزائر، عطراً
و(التقاويم) و(البصائر) و(الندى)
لادي) و(عثمان) والكتاب الأغرا⁽⁴⁾
خالداتٌ على الزمان، بـوَاقٍ
كالْمِثَانِي، تفيض نوراً، وطُهرًا

(1) العنوان من وضع الأستاذ المدني في كتابه (حياة كفاح).

(2) كتاب الجزائر من تأليف الأستاذ توفيق المدني.

(3) كان الاحتفال في يوم عيد النحر المسمى في الجزائر بيوم الأضحى.

(4) كان الأستاذ المدني قبل إبعاده عن تونس ينشر تقاويم سنوية يسميها بتقويم المنصور، وكان رئيس تحرير جريدة البصائر، وخطيب نادي الترقى ومؤلف كتاب عثمان باشا: داي الجزائر.

صادقاتُ الخُطى، إذا طوَّحَ العَز
م بها، صادفت حِفاظًا، وفكرا
صالحاتٌ، فلا المطامع تُغري—
ها، وكم خُلبُ المطامع، أغرى
وإذا لم يكُ الصلاحُ دليلًا
في المساعي، كانت ضلالًا وخُسرًا
وإذا أخطأ القيادة (توفى
ق) وعقلٌ، كانت على الشعب، وقرا
وإذا العاملون، كانوا شَتَاتًا
بشرِ العاملين، ويلًا وشرًا
إنما يُكْتَبُ البقاءُ، لشعبٍ
حين يختارُ جُنْدَه، يتحرى
إنما يُكتبُ الخلودُ، لحر
ذي ضمير، ضميره عاش حراً
إيه (توفيق) فيك أخلصتُ شعراً
قدسياً، كالوحي، ظنوه سحرًا
أنا، إن كنتُ في القريض أميراً
أبدًا في المديح، ما قلتُ شعراً
وإذا أنكروا، رسالة شعري
جئتُ بالمُعجزات، في الشعر تترى

قد رأينا الحقوق تؤخذ قهرا
فاغ صبنا إمارة الشعر، قهرا
ورشقنا اللوآ، فمن ينتزعه
يتقدم، يَكُنْ بذلك، أحرى !
لستم الناس، أيها الناس، إن لم
ترفعوا للنبوغ، في الناس، ذكرا
كرموا اليوم (أحمداً) تكرموا فيه
له الإحجى، والنهى، وعلماً وفكرا
لستم اليوم، تكرمون نزيلاً
بعد منفاه، في البلاد استقرا⁽¹⁾
فهو من صلبها، وإن نحسبوه
تونسياً: إن الجزائر (خضراً) !
أبعدوه، فقرّبوه: وبعد الدا
ر، قرب مذكأصبح الذل كفرا
أيها الشعب - وللليالي حبالى -
بعد حين، سيطلع الله فجرا
اتقوا الله، في الجزائر، يا نا
س، فقد ضاقت الجزائر صبرا...

(1) نفي المدني من تونس إلى الجزائر عام 1925 إثر نشاطه السياسي بالحزب الحر الدستوري التونسي.

عاث فيها الطغاة، عسفا وظلما
ورماها البُغاة، جهلاً وفقراً
واستذلت رقابها، فتراها
وهي في أرضها، تجوع وتُعرى
واستبيحت أرزاقها، ليس إلا
(قيصر) يملك الحياة و(كسرى)
واسترقّت نوابها ليس إلا
ذمم كالدُمى، تُباع وتُشرى
ورمى الشامتون فيها، بنيتها
بالتعادي، والحقْد، لوماً وغدرا
فغدا مسلم، يقاطع فيها
مسلماً، والدخيل يختال فخراً⁽¹⁾
إنّ كفاً، غدت تفرّق ما قد
جمع الله في الجزائر! بترآ
ولساناً، في الحق أخرس، لم يصـ
رخ بوجه الفساد: ضَع فيه جمرا
وضميراً منافقاً، ظل يحتا
ل، ويختان شعبه: بَاء خُسرا

(1) إشارة إلى المقاطعة التي دبرها الاستعمار ضد (الميزابيين) على يد عملائه أتباع حركة مصالي الحاج وأزهقت فيها أرواح الأبرياء. وذلك ابتغاء إشاعة الفتنة بين أجزاء الشعب وإفشاء النزعة العنصرية والمذهبية والإقليمية بين أبناء الجزائر الثائرة، لبعث الفشل في أجهزتها. وقد حاربت جبهة التحرير هذه المحاولة وقضت عليها في مهدها.

والخؤونُ الخؤون، من لم يعالج
كبدًا في الجزائر، اليوم حَسرى
نحن في هذه الجزائر، إخوا
ن، جراحاتنا الشخينة (حمرآ)
لُحمة الضاد، والعروبة، والتا
ريخ والدين: آي ربك كبرى
وهواها، وماؤها، وسماها
وئراها، الزكيُّ شبراً فشبرا
فاسألوها.. تُجِبْكُمْ من حشاها
صرخاتُ الجدود، تُنذِرُ شرا
وتنادي: أليسَ فيكم رشيدٌ
يدفع اليوم، منكر القول، جهرا
أصلحوا ذات بينكم، واستقيموا
إن فعلتم: سيجعل الله أمرا..
قصيدة شاعر الوطنية والعاطفة والإحساس أبو القاسم
سعد الله⁽¹⁾
قصة عملاق..
ثمل الشجر فغنى
للندامي

(1) العنوان من وضع الأستاذ توفيق في كتابه (حياة كفاح).

أنشدات
نابضات بالحياة
والخزامي
وتدني
من فم الفجر الوضي
يلثم النور بظمان روى
ويطوف
بالضفاف الخضر والظل الوريث
كلما اشتاق تلاقى
منح النغم لساق ..
واستهما
بالندامي
أنشدات
خالدات
من لهة الأطلس
من روابي السندس
من صدى وهران حتى تونس
ومراعي الشيخ في البید الغضاب
ومغاني الأنس في أرض التصابي ..
أنشدات تتصادى

كلما أصبح تهادى
عبر أرواح الضحايا
بالتحايا

من غطاريف «الشمال»
ذي الجلال

كلما أصبح تهادى
بين أعطاف الوطن
نشر الحب وأودى بالضغن
ومضى يلثم تيجان القنن
ويهني الفائزين
ويمني الجاهدين
بالغد الباسم والنصر المبين

* * *

كلما فاح عبير وتندى
من ربي «الخضراء» أهدى
لبنى «البيضاء» أشداء التحية
في عصامي طليق العبقريّة
رائد للصاعدين
بالبيان واليراع
والنشاط والدفاع

رغم أشواك السنين
والعقوق
في الطريق...

* * *

إنها قصة حر
كافح الظلم فأبلى
كافح الجور الخضيب
وافتدى الحق السليب
وهدى الشعب الضليل
وارتضى الأبعاد عن بيع الضمير
ليضيء الحالكات
في المصير المغربي
ويزيح العقبات
من دروب الزاحفين
من شباب العرب
ولقد أثمر سعيه
ونما في الشعب وعيه
وبدت آفاق عز واعد
في مجاهيل الحياة القلقة
عزنا الواعد بالخير العميم

عزنا الباسم من خلف الغيوم
فلنتابع سيرنا
والعمل
ولننهه عزمنا
بالأمل
فالشمال في انتفاض
وانتقاض
وبنوه في انتصار
وانتظار
لمصير أسعد
ومقام أرغد
وهم اليوم رعود
قاصفات
وبنود
خافقات
وهم اليوم وعود
حافلات
وسعود
طالعات
إنها قصة مجد

إنها صفحة خلد

كتبتها يد عملاق خطير

يد (توفيق) الكبير

اسألوا الطرس كم انقض شهابا

ورضابا

واسألوا الأنس كؤوسا وحبابا

واسألوا الشعب شيوخا وشبابا

واسألوا الفكر رسولا وكتابا

والأمانى مترعات

والنفوس حائرات

بالظنون

واليقين

إنها لا شك تدري

من سفير الملحمة

من أمد المكتبة

بشمار يانعات

وقطوف دانيات

وأهاب بالشباب

في سواد مدلهم أغبر

في وجود مقشعر أحمر

دامي القيد كسير
بين مسجون ضير
وانتقام ونذير
رغم هذا فقد اختط الدروب
ومضى ينفح موفور الطيوب
كلما حل مكانا
خلد الذكر وصانا
شرف (الأختين) في دنيا لعوبه
وأضاف صفحة بيضاء في سفر العروبة
كتبها يد عملاق خطير
يد (توفيق) الكبير
إنها قصة مجد
ونضال
إنها قصة جهد
وجلال
قصة الحر الذي يأبى القيودا
قصة السيل الذي يفرى السدودا
والينابيع العذاب
تخصب الأجذب من حر التراب ..
كيف لا تدري الليالي

من قضاها في اجتهاد واشتغال
في تأليف وليده
ذات أصباغ جديدة
ضافيات ... وتراجم
نادرآت ... وعزائم
تستشف الحجبأ
وتقود القافلة
للحياة الفاضلة
كيف لا تدري الليالي
ما بنت كف المعالي
إن تكن تعلم فالآداب أخرى
أو تكن تجهل فالتاريخ أدرى
فاسألوها عن "كتاب" ورواية
وعلوم ودراية
ودراسات تعب الأبحرأ
وانطلاقات ترود الأعصرأ
فاليراع الحر يهمي كوثرأ
والبيان السحر يندي عطرا
والزمان الشيخ راوي المفصل
والشباب الحي وارى المشعل

اسألوها فهي تدري
من أضاء جانبيها .. ووعاها
واستشف منتهاها ..
واسألوها بعد الصحافة
فهي قانون العرافة
كم لها من جولة
في ميادين الكفاح
إذ رمتها الحادثات
بأعاصير الرياح
فانبرت تأسو الجراح الراحات
وتغني للشعوب الزاحفات
نحو آمال فسيحة
أنشدات
نابضات بالحياة
من لهة الأطلس
من روابي السندس
من صدى وهران حتى تونس
هذه قصة عملاق خطير
إنها قصة (توفيق) الكبير

المرجع: أحمد توفيق المدني حياة كفاح الجزء الثالث: ركب الثورة من ص 90 إلى ص 104،
الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر - 1983.

● لمحات من حياته:

ولد الأستاذ أحمد توفيق المدني في تونس (العاصمة) في نهج الناعورة يوم 24 جمادى الثانية عام 1317هـ الموافق ليوم أول نوفمبر سنة 1889م من أبوين جزائريين مهاجرين إثر إخفاق ثورة 1871 بالجزائر، وما إن بلغ سن التمييز حتى أدخله والده الكتّاب، ثم انتقل إلى المدرسة القرآنية، فتلقى فيها مبادئ اللغة الفرنسية، ثم دخل جامع الزيتونة وواصل دراسته فيه بكل رغبة وجد وطموح!.

ولذكائه المتفوق، وشغفه بالعلم، كان دوماً في طليعة الطلبة، وعندما اندلعت الحرب العالمية الأولى سنة 1914 أخذ يكتب في صحيفة (الفاروق) بالجزائر مقالات نارية ينتقد فيها بشدة سياسة الاستعمار اللعين، في محاولة تحطيم الأخلاق الإسلامية والقضاء على اللغة العربية، وانضمَّ إلى جماعة من الشبان كانوا يعملون على مشاغبة الاستعمار الفرنسي، فألقت السلطة الفرنسية عليه القبض وزجَّت به في السجن، وذلك في شهر فبراير سنة 1915 وظل في ظلماته أربع سنوات، ولما اتسع نشاطه السياسي، وتفاقم أمره، وصارت السلطات الفرنسية تضيق منه، نفته إلى الجزائر وذلك يوم 5 يونيو سنة 1925، وظل في الجزائر بقية عمره في جهاد فكري في مجالات شتى: يقاوم تيار التفرنس الخلقي والسياسي، في صحف ومجلات منها (الإصلاح) و(الشهاب)، ويُلقِي في مختلف المجالات دروساً ومحاضرات، للتوجيه والإصلاح وإيقاظ العقول، وحفز الهمم!

وبعد اندلاع ثورة التحرير في أول نوفمبر سنة 1954 انتدبته جمعية العلماء ليكون ضمن وفد الجبهة إلى الخارج، فسافر إلى القاهرة سنة 1956 وهناك عينته الجبهة رئيسا لمكتبها، وكانت ترسله طوال مدة الثورة على رأس وفود للبلاد العربية، والبلاد الآسيوية، وتعين في الحكومة المؤقتة التي تشكلت في شهر سبتمبر 1958 وزيرا للشؤون الثقافية، وفي سنة 1961 عين ممثلا بدرجة سفير لدى الجمهورية العربية المتحدة، ولما استقلت الجزائر عين وزيرا للأوقاف في الحكومتين الأولى والثانية، وفي أكتوبر سنة 1966 عين سفيرا لدى حكومات العراق وتركيا وإيران، وفي 10 ماي 1967 عين عضوا بمجمع اللغة العربية بالقاهرة، وفي سنة 1971 عين سفيرا في باكستان، وعندما تأسس المركز الوطني للدراسات التاريخية في الجزائر عين فيه مستشارا ومشرفا، وفي يوم 18/10/1983 انتقل إلى رحمة الله بعد حياة حافلة بجلال الأعمال، وخوالد المواقف!

■ تكريم العلامة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي:

● تمهيد:

صورة أخرى للتكريم الصادق الذي وقع في مكانه، وأدى بعض ما يجب من الحقوق الأدبية على أهل العلم وعشاقه، نحو صناع الأجيال، وبناء الحضارة الإسلامية، وأقام الدليل واضحا على أن التاريخ قد يغفل يوما عن الرجال العاملين، ولكنه لا يلبث أن يلتفت إليهم، وينصفهم، ويعترف بفضلهم، ويكفر عن غفلته عنهم، بإمعانه في الإشادة بآثارهم، والتغني بجلائل أعمالهم، لأن العمل الصالح البناء، كالزهر العطر، يهدي بأرجه وعرفه إلى مكانه ولو غطته الأعشاب والنباتات.

(ففي يوم الثلاثاء 27 جوان 1961م حلّ فضيلة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بتونس قادما إليها من القاهرة عن طريق البر وقد زاره في مقر إقامته فضيلة الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، وابنه الشيخ الفاضل ابن عاشور، وحضر عشية الجمعة 30 جوان 1961م حفل الكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين بجامع الزيتونة المعمور! وتتادى أحباء الشيخ⁽¹⁾ إلى إقامة حفل تكريمي على شرفه، ونشروا يوم الخميس 13 جويلية 1961م ما يلي:

● تكريم الشيخ البشير الإبراهيمي:

تنظم نخبة من الأدباء التونسيين من أحباء (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) حفل تكريم عائلي احتفاء بالعلامة الكبير فضيلة الشيخ

(1) ويفرض علينا التاريخ والواجب الأدبي أن نشيد هنا بالسعي الذي قام به صديقنا الشيخ عبد الرحمن شيبان، رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين لإنجاز هذا الحفل التكريمي الذي كانت له ثماره الطيبة ونتائجه الحسنة!

محمد البشير الإبراهيمي، رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وأحد جهابذة المغرب العربي في الساعة السادسة من عشية اليوم بدار رزوق في سيدي أبي سعيد، وجميع الشخصيات الأدبية والعلمية التي وجهت إليها الدعوة مدعوة للحضور في هذا اللقاء السعيد، مع مفخرة شمالنا الإفريقي الذي حلّ بتونس منذ أيام، وهذه نسخة من دعوة الحفل: الأديب الفاضل سيدي:

يسعد جماعة من أحباب جمعية العلماء المسلمين الجزائريين أن تشرفوهم لحفل الاستقبال المتواضع الذي يقيمونه بدار رزوق بسيدي أبي سعيد يوم الخميس 13 جويلية على الساعة السادسة مساءً وذلك على شرف العلامة الإمام الشيخ البشير الإبراهيمي بمناسبة حلوله بالديار التونسية قادما من القاهرة مع الشكر.

أحباب جمعية العلماء المسلمين الجزائريين⁽¹⁾

● حفل التكريم:

وما إن حلّ موعد الاحتفال، حتى كانت دار زروق بسيدي بوسعيد غاصة بالعلماء والأدباء والأعيان والوجهاء، ومحبي الجزائر ومفخرتها أمير البيان العربي الإمام الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، لا سيما والحفل يقام في وقت والثورة الجزائرية العملاقة تحت خطاها إلى النصر النهائي!

توالى على المنصة خطباء وشعراء تنافسوا في الإبداع، كلٌّ يريد أن ينصف التاريخ ويعبر عن تقديره وإعجابه لعظيم من عظمائه!

(1) عن آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي ج5، ص 268.

ورغبةً منا في الإيجاز والاختصار، نكتفي فيما أُلقي من الخطب والقصائد بقصيدي الشاعرين: الأستاذ مفدي زكريا، والأستاذ محمد الأخضر عبد القادر السائحي، ثم بخطبة المحتفي به الإمام الشيخ محمد البشير الإبراهيمي.

قصيدة المرحوم الأستاذ مفدي زكريا:

قال رحمه الله:

يا كريماً، يطيبُ فيه النظامُ	التحياتُ، أيُّ هذا الإمام
التحيات - يا بشيرُ - وفي الاط	واء معنًى، يضيق عنه الكلام
التحيات، يا باعثَ الرّجة الكب	رى، تهاوى حياؤها الأصنام
والذي ألهبَ العزائمَ فانقَ	ضّت تبارى، يسوقها الإقدام
والذي فكّ طلسم الشعب فارت	د بصيراً، وانجاب عنه الظلام
والذي أنقذ العروبة لما	نصبت للعروبة الألغام
وحمى (دولة الكتاب) وكانت	في الحمى (دولة الكتاب) تضام
علماً: لُح بأرض تونس واسطع	بسماتها، تحفك (الأعلام)
وتنزل مكرماً، وعزيراً	في بلاد يعتزُّ فيها الكرام
وتفياً ظلالها فهي (خضرا	ء) ففي قدسها يطيب المقام
لك فيها - رغم المدى - ذكريات	لم تنل من شبابها الأيام
وجنود، من صنع روحك فيها	وشيوخ، موقرون عظام
وأديب، من فيض وحيك مسحو	ر.. للقياك شائق مستهام
والق فيها - يا شيخ - شعباً أبيعاً	عربياً (صميمه) الإسلام
لك فيه، وللجزائر منه	صلوات، ولحمة، وذمام
عبر، من ذكائه يُصنعُ المج	د ومن عزمه يُخطّ النظام

مُدُّ نَجَا مِنْ وَثَاقِهِ انْصَبَّ يَجْتَدِ
وَبَأْكَادَهُ، انْبَرَى يَبْتَنِي الدَا
أَيُّهَا الْحَفْلُ، إِنَّ أَقَامُوكَ (بَالِدَا
وَالرُّبَى مِنْ "أَبِي سَعِيدٍ" قُلُوبٌ
لَقَّبُوهَا "بِدَارِ زُرُوقٍ" لِمَا
وَحَكَى الزُّورِقَ الْمَرْنَحَ بِالشَّا
وَالْعَيُونَ الزَّرْقَاءُ، مِنْهَا اسْتَمَدَتْ
وَالنَّسِيمَ الْعَلِيلَ، أَنْفَاسُ عَذْرَا
"دَارِ زُرُوقٍ": خَبَرِي الشَّيْخَ: إِنَّا
مَهْجٌ صَاغَهَا مِنَ الطُّهْرِ حَبٌّ
قَدْ رَضِينَا مِنَ الْحَيَاةِ بَدْنِيَا
وَاعْتَزَزْنَا، بِمَنْطِقِ عَرَبِيٍّ
لُغَةٍ، مِنْ دَمِ الْحَشَاشَاتِ مَبْنَا
وَمَعَانٍ لِلْمَنْتَهَى تَتَسَامَى
شَوْهَتَهَا - طَوْعَ الدَّخِيلِ - غَرَابِي
وَابْتِغَاها ضَفَادِعُ الْحَيِّ سُخْفًا
عَوْرَاتٍ، لَمْ يُجَدِ فِيهَا حَيَاءٌ
وَيْلَهُ الشَّعْبُ، مِنْ عَقُوقِ بَنِيهِ
نَحْنُ نَشْكُوكَ - أَيُّهَا الشَّيْخُ - دَاءً
فَتَدَارِكُ جَرَّاحَهُ بِعِلَاجٍ
وَتَقْبَلُ مِنْ شَاعِرِ الثَّوْرَةِ الْكُ
وَتَهَانٍ، مِنْ قَادَةِ الْفِكْرِ فِي الْخَض-

ثُ وَثَاقًا، نَسِجُهُ الْأَوْهَامُ
رَ، وَقَدْ هَدَّ رُكْنَهَا الظُّلَامُ
(ر) فِي مَعْبَدِ الضَّلُوعِ تَقَامُ
خَافَقَاتٌ يَفُورُ مِنْهَا، الْغَرَامُ
كَانَ فِيهَا - مَعَ السَّمَاءِ - انْسِجَامُ
طَيِّ، بِهَاهَا فَاهْتَا ج فِيهِ الْهُيَامُ
فَتْنَةُ السَّحَرِ، مَذْ عَرَاها السَّقَامُ
هَا، وَنَجْوَى حَسَانِهَا، الْأَنْغَامُ
شُعْرَاءُ، تَهْفُو بِنَا الْأَحْلَامُ
وَقُلُوبُ، سَمَا بِهَا الْإِلَهَامُ
نَا، وَقَدْ سَادَ فِي دُنْيَاكُمْ طَغَامُ
دَنْسَتْ قُدْسَهُ الرُّفِيعَ، لُئَامُ
هَا، وَلَفْظُ، تَعْنُو لَهُ الْأَفْهَامُ
صُعْدًا، لَا تَحُدُّهَا الْأَجْرَامُ
بُ، يُغْذِي عُرُوقَهَا الْإِنْهَزَامُ
يَسْفَعُ الْأَنْفَ مِنْ هُرَاها، زُكَامُ
وَعَقُولُ مَا حَلَّ فِيهَا الْفَطَامُ
هُمْ بَنُوهُ؟ أَمْ هُمْ عَلَيْهِ سَهَامُ؟
يَتَلَطَّى فِي الشَّعْبِ مِنْهُ، ضَرَامُ
أَنْتَ فِي سِرِّهِ الْعَجِيبِ، إِمَامُ
بَرَى، نَشِيدًا يَرْوِيهِ فَيْكَ الْأَنَامُ
رَاءُ، يَسْعَى بِهَا إِلَيْكَ السَّلَامُ

وقال الشاعر الأستاذ محمد الأخضر عبد القادر السائحي

قيل لي

إن هناك

الشيخ الجليل

أي نعم

إن هناك

الشيخ الجليل

* * *

أأرى

هبة شيخ

أم وقارا...

كان بعض الناس

لا يرجون غيره؟

أبدا

أنت أجل

وأنت اليوم

خير

أنت خير

قد جناه

في الجزائر

من لهم ، منك
"بصائر"

* * *

أي شيخ
تحتفي الأرض به
جذلي
وأملك السماء؟
إنه شيخ
بنانا
وهدانا
فرفعنا
الرأس فخرا
ومضينا
نملاً الأكوان شعرا
وبطولات وسحرا

* * *

إنني أذكر
سجعا...
وحوارا
وخطابات...

تهز المشرقين
وتشير الجامدين
يوم كانوا
مثل أقوام سكارى
فإذا هم
قوة تبني الديارا
وتروم العلم
وردا ومعينا

* * *

وتهز الأرض منا
ثورة جبارة
ليست تداني
عربية
وأبية
ثورة البيض القوية
كيف ينسى
أنه ما عاش إلا
عربي
كيف ينسى
من هداه منك يرنو
وسناه

ليس يخبو
إنما الشبل أصيل
من أبيه
وأخيه
وكذا أنت
لنا اليوم أب
فاهنا اليوم
أبي
شيخوخة طابت
ثمارا
وعلى أرض الجزائر
والكفاح المر سائر
تسطع اليوم منارا
قد بنيت النشء
نارا
وجعلت العلم رمزا
وشعارا
فغدت
أمتنا
تبني جهارا
وغدا تزهو انتصارا

● خطاب المحتفل به الإمام الشيخ محمد البشير الإبراهيمي:

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأعزّة، أيها الأبناء البررة:

حيّاكم الله وأحياكم، وأبقاكم للعروبة ترفعون منارها، وتورون بالجانب الغربي نارها، وأدامكم للغة العرب تشدون ذرائعها، وتقيمون شرائعها، وأحياكم للأدب العربي تصلون رحمه، كلما رمته الأحداث بالجفاء والعقوق، وتحفظون حقوقه كلما عامله بعض أبنائه بتضييع الحقوق، وللإسلام الذي هو مناط فخاركم وداعية افتخاركم تعلن صرحه وتحسنون فهمه وشرحه.

أيها الإخوة، أيها الأبناء:

يعزّ عليّ أن يقول الناس ولا أقول، وأن أسمع الحداء ولا أطرب، وأن تتبارى جياذ الرهان في ميدان فأكون فيها السكيت المتخلف، وأن تتسابق همم إخواني وأبنائي إلى تكريمي والتتويه باسمي، فلا يكون حظي من بينهم إلا الوجوم والإطراق وعدم مكافأة إحسانهم بإحسان، وأن أكون شذوذا في قاعدة: لكل امرئ من دهره...

أنا عاجز عن شكر ما طوّقتم به عنقي من منن لا ينهض بحملها إلا من أوتي طراوة الشباب ومواتاة الأسباب، وبلاغة الخطاب، ولكن أين مني ذلك كله والعود قد جفّ، والفظين قد حفّ، والسن قد نشر من المعاييب ما كان الشباب قد لفّ. ولو كنت ما كنت، لأسمعتكم في هذه الليلة ما يجاري هذا الفيض الذي غمرتموني به من القصائد والخطب ويجري معه في عنان، ولكن حال الجريض دون القريض، ووقف إلحاح الأمراض وكلال الذهن وجفاف القريحة دون ذلك، فاعذروا أخا يتقرّب إليكم

برابطة الأخوة وأباً يتشفّع إليكم بحقوق الأبوة، وحسبكم منه محبة خالصة لا يشوبها شوب من تصنّع أو رياء، لكم وللأدب العربي الذي تتحلّون به، وتقومون على إحيائه وترقيته، ومن شغفه الأدب حباً أحبّ الأدباء بالضرورة.

أيها الإخوة الأعزّة، أيها الأبناء البررة:

أوصيكم يا أبنائي ببعض ما كنت أوصي به إخوانكم ولدانكم من شباب الشرق العربي: أن تضطلعوا بحمل الأمانة التي في أعناقكم للأدب العربي، وأن تجعلوا الأدب مساوفاً للحياة، يفعل فيها وينفعل بها، وأن تعنوا بمحاذاة أساليب البلغاء الفحول في الشعر، وأن تتصرّفوا في المعاني على حسب ما يقتضيه زمانكم، وأن تتجافوا فيها عن الإسفاف والتبذل، وأن توفّروا حظكم من متون اللغة ليخف عليكم ما تعانون من شعر ونثر.

أيها الأبناء البررة:

إن اللغة العربية تراث مشاع بين أبناء العروبة في جميع الأقطار، وإن أبناء العروبة - وإن تناءت ديارهم - يشبهون "شركة مساهمة" رأس مالها هذه اللغة الخالدة، ولكنهم متفاوتو الحظوظ والأنصباء فيها. فمنهم المقلّ، ومنهم المكثّر، فاحرصوا على أن تكونوا مساهمين في هذه الشركة باستحقاق، وأن تتقدّموا إليها بإنتاجكم، وثمرات عقولكم من شعر مجود، ونثر عامر، وكتب مفيدة.

وهاتوا الحديث عن الحمراء اللعوب، والزهراء الدعبوب، والحسناء التي تبوّأت القلوب... عن الحرية التي طال شوقنا إليها وطلبناها بالكلام، فلم تزد إلا إعراضاً وازوراراً، حتى هدينا إلى التي هي أقوم، فطلبناها

بالحديد وخضنا دونها الهول الهائل، وبذلنا في سبيلها المهج، وأمهرناها الأرواح، فاسلست وانقادت. وإني لا أبرح مكاني هذا حتى أرسلها تحيات عاطرات الأنفاس، يحملها عني نسيم الصبا وأمواج الأثير، إلى إخواني المجاهدين في الجزائر، أولئك الذين باعوا أنفسهم لله وأشعلوا الثورة وكانوا وقودها في سبيل حرية وطنهم، وهي أقرب السبل إلى الله، وأسأل الله لهم النصر العزيز على عدو الله وعدوهم وأن يجعل خاتمة جهادهم كبدايتها، نصراً وظفراً وفوزاً مبيناً، وأبتهل إليه تعالى، أن ينزل الشهداء منهم منازل الكرامة والرحمة عنده، وأن يفيض على المساجين والمعتقلين والمعذبين من الشعب الجزائري شآبيب الصبر والرضى، كما أسأل الله لقادة الثورة الجزائرية والمسيرين لسياستها توفيقاً يقود إلى حسن العاقبة، وعوناً إلهياً يصاحبهم في الجيئة والذهاب، ويسايرهم منه شعاع هاد في المعضلات، ويواكبهم في السلم والحرب، وتسديداً ربانياً في كل ما يقولون ويفعلون.

وحياً لله تونس، حكومتها وشعبها، على ما آووا إخوانهم الجزائريين ونصروا، وعلى ما أكرموا وبروا وعلى ما وصلوا من رحم الأخوة، وحق الجوار⁽¹⁾.

(1) عن آثار الإمام إبراهيم ج 5، ص 268.

■ تكريم العلامة المصلح الشيخ بيوض:

● تمهيد:

بعد أربعة عقود من احتفال الجزائر بختم الإمام عبد الحميد بن باديس لتفسير القرآن الكريم بقسنطينة، تقيم حفلا تاريخيا آخر بالجنوب لختتم الإمام المصلح الشيخ إبراهيم بيوض بعد سبع وأربعين سنة من الجهاد المتواصل بالفكر غوصا في أسرار القرآن الكريم، وباللسان صياغة وإلقاء!

بدأ الإمام بيوض تفسير القرآن الكريم في شهر ماي سنة 1935م وختمه في شهر فيفري سنة 1980م، ومن نعم الله تعالى على عشاق العلم والمعرفة، المتعطشين إلى هداية القرآن أن تواصل هذا التفسير هذه المدة الطويلة، بلا انقطاع، يعلم الخير، ويهدي إلى الرشd، ويربي على الفضيلة، ويقوم السلوك، ويدعو إلى الحياة الكريمة، ولم تنته رحلة الإمام مع القرآن حتى اطمأن أن الأجيال التي رافقته في هذه الرحلة قد تسلمت المشعل، ونزلت إلى الميدان، تضيء الطريق بالقرآن، وتغير واقع الحياة من ظلمة الجهالة إلى وضاء العلم، ومن نقمة الذاتية والأثرة إلى نعمة الإيثار، ومن ظلام البدع والخرافات إلى نور الحق واليقين.

ومن نعم الله تعالى على الإمام أن مدّ الله في عمره، وحفظه من المعوقات والمعطلات، وعصمه من خور في العزيمة، وقصور في العقل، ونقص في الوعي، وخلل في الإدراك، حتى حقق أمنيته الغالية التي كانت تستبد بمشاعره، وتتملك كل قواه، فأتم القرآن الكريم تفسيراً وتأويلاً وكان ذلك دليلاً واضحاً على توفيق الله تعالى الذي يختص به عباده الصالحين!

ومن هنا كان الإمام بيوض جديرا بالتكريم من كل عاقل منصف، جديرا بأن يكون قدوة للأجيال الصاعدة التي تريد أن تبني حياتها وحياة المجتمع على الإسلام الصحيح، تستضيء بنوره على الدوام كما تستضيء بضوء الشمس!

إن تكريم هذا الإمام -وأمثاله- تكريم للقرآن الكريم الذي يفعل بالنفوس فعل الغيث بالأرض والنبات، وتكريم لهذه الأجيال التي اهتمت بالقرآن، والتفت بالإمام، وتعهدت نفوسها بآداب القرآن وأخلاقه وأسراره، حتى كانوا لبنات صالحة في صرح المجتمع، وتكريم لرسالة التعليم والإصلاح التي بدأت مع الأنبياء والرسل وتقلت مع الحكماء، وصنعت الأجيال المؤمنة عبر عصور التاريخ، وتكريم لكل من خدم القرآن، بأن عكف على حفظه أو تحفيظه، أو عكف على استنباط أسرارهِ، واستجلاء غوامضهِ، أو كتب في بلاغته وإعجازه، أو كتب في استخراج أحكامهِ، أو ألّف في فرع من فروعهِ، أو علّم من علومهِ، أو قضية من قضاياهِ، من يوم نزول آيات (اقرأ) إلى قيام الساعة، وتكريم في الأخير، للجزائر المسلمة القرآنية التي أنجبت بيوض وابن باديس وغيرهما ممن كانوا وراء الحركات الدينية التجديدية، ووراء التقدم الفكري الوثاب، ووراء الثورات التحريرية، ووراء الدعوات الإصلاحية، ووراء الأحداث التي تصنع الحياة العزيزة الكريمة.

● حفل التكريم التاريخي البهيج:

وفي يوم الجمعة 9 رجب عام 1400هـ الموافق لـ 23 ماي سنة 1980م كانت السيول العارمة المتدفقة من مختلف أنحاء القطر الجزائري إلى غارداية على موعد مع التاريخ لشهود الحفل في المسجد الكبير تعظيما لكتاب الله، وتكريما لمفسره الكبير الذي ظل قرابة نصف قرن يغوص

على جواهره، ويبني الحياة في ضوئه وعلى عمده، ويضيء للأمة مواضع أقدامها حتى لا تنحرف أو تخطئ سبيلها الصحيح. وتعاقب الخطباء والشعراء على المنصة، كل قد فتح نافذة من نواف النور، يريد أن يفتح الأعين على ضيائها، ويقود العقول نحو منابع النور، وآفاق الهدى، حيث متعة الوجدان، وغذاء الإحساس، وراحة الشعور، وطمأنينة القلب؟

● أسماء الخطباء والشعراء:

وقد توالوا على المنصة على الترتيب التالي:
الشيخ عبد الحميد بن أحمد أبو القاسم (ناظر الأوقاف الإباضية).
الشيخ عدون: شريفي سعيد (مدير معهد الحياة).
الشيخ الإمام إبراهيم بيوض.
السيد مولود قاسم نايت بلقاسم (مستشار لدى الرئاسة).
الشيخ أحمد حماني (رئيس المجلس الإسلامي الأعلى).
السيد محمد بوطبة (المحافظ الوطني للحزب بولاية الأغواط).
الدكتور عبد الرزاق قسوم (أستاذ بجامعة الجزائر)
الأستاذ عبد القادر قدي
الشيخ عبد اللطيف سلطاني (داعية إسلامي).
الأستاذ الشاذلي المكي (مدير الشؤون الدينية بالجزائر).
الشاعر محمد الأخضر السائحي
الدكتور عمار طالبي
الشاعر الدكتور محمد ناصر
الأستاذ صالح بن إبراهيم باجو
الشاعر صالح خباشة
الشاعر أطفيش الحاج محمد
الشيخ محمد كتو.

● لقطات من الخطب والقصائد:

وفيما يلي لقطات من الخطب، وقطع من القصائد نقدمها للتاريخ
ولإفادة القارئ الكريم:

قال الشيخ عبد الحميد بن أحمد:

فيا أصحاب الفضيلة المشائخ والأساتذة

أصحاب السعادة الموظفين السامين من مختلف الوزارات
حضرات الإخوان المسؤولين في الحزب والإدارة والجيش
ضيوفنا الأعزاء

أيها الإخوة المؤمنون:

أحييكم جميعا وأدعو الله لي ولكم بالإعانة والتوفيق.

إنه ليشرفني عظيم الشرف، ويسعدني كل السعادة أن أحضر هذا
المهرجان الإسلامي العظيم، وأن تسند إليّ مهمة تقديم برامج هذا
الحفل التاريخي الكبير الذي أقيم يوم عيد المسلمين -يوم الجمعة- في
بيت من بيوت الله. هذا المهرجان الذي أقيم تعظيما للقرآن الكريم،
وإعلاء لكلمة الله، ورفعاً لراية الإسلام، وتكريماً لذلك المجاهد الذي
وقف حياته لخدمة الإسلام ونشر العلم وتعميم اللغة العربية لغة القرآن
ولغة أهل الجنة - وقضى ما لا يقل عن نصف قرن في تفسير القرآن
الكريم تدريساً بالمسجد، الأستاذ الإمام الشيخ إبراهيم بن عمر
بيوض- بارك الله في أنفاسه ومدّ في عمره وشفاه من مرضه وتقبل
منه وأثابه⁽¹⁾.

(1) هذه اللقطات من كتاب (في رحاب القرآن) نشر جمعية التراث - العطف، ولاية غرداية.

وقال الشيخ عدون:

(والغرض من إقامة هذا الحفل هو التتويه بفضل القرآن وتوجيه النفوس الغافلة والقلوب الغافية إلى ما فيه من عبر وعظات بالغات فتفتح لها وتتشربها وتمتزج بها فتكون جزءا لا ينفك عنها فلا تسلك إلا نهجه ولا تسير إلا على ضوئه، متخطية في ذلك العقبات مستهينة بالصعاب والنكبات.

لفتة جديدة إخواني الكرام إلى هذا الكتاب العزيز نتخذ منه دستورا لحياتنا ومنهاجا لمسيرتنا وسلاحا صالحا للكفاح في كل ميدان. عزيمة صادقة على تحكيم هذا الكتاب وهو الحكم العدل فيما شجر بيننا من خلاف وما نتنازع فيه من آراء وأفكار. انضواء تحت رايته للقضاء على سوس العقيدة وزيف القلوب وفساد السلوك المنتشرة في الأمة انتشار النار في الهشيم. ثورة عامة أو عارمة في حدود النظام والمعقول على الإنحلال الخلقي وانتشار المحرمات والظلم والفجور.. نتغنى بمكاسب الثورة في كل مناسبة وبأمجاد الشهداء الأبرار الذين استشهدوا في سبيلها وبالأمانة التي حملونا إياها وذلك واجب مشكور وحق غير منكور، ولكن أليست الثورة على الفساد أولى الثورات بالتتويه وأحقها بالدعم وأقومها طريقا وأعمها نفعا وأضمنها عاقبة وخلودا؟ أليس الإسلام الذي هو دين الدولة بلا منازع في طليعة هذه المكاسب التي يجب أن نتغنى بها في كل وقت وحين، ونتفانى في تحقيقها بكل ما لدينا من قوة وجهد؟ أليست اللبنة الأولى التي وضع عليها هيكل هذه الثورة الكبرى ولأجلها انطلقت الرصاصة الأولى هي شهادة أن لا إله إلا الله التي جاء هذا الكتاب العظيم لتثبيتها عقيدة في النفوس وعملا بالجوارح متفانية في

سبيل تحقيقها وإرسالها مزلزلة في الأرض مجلجلة في السماء؟ كلكم راع وكل راع مسؤول عن رعيته، فيا أيها الرعاة ويا أيتها الرعية حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا. إن المسؤولية لعظمى وإن الحساب لعسير وإن الديان لا يرحم المقصرين).

وقال الإمام الشيخ بيوض:

(لقد ضعفت مني الذاكرة وخمدت القريحة وجمد الذهن فأصبحت الآن لا أستطيع أن أخوض هذا الخضم، خضم تفسير كتاب الله الذي ليس بكلام البشر الذي ربما يغتفر الخطأ فيه، أما القرآن فكلام الله الله تبارك وتعالى الذي لم ينزل من السماء إلى الأرض أعظم منه ولا أشرف. فمن ذا الذي يستطيع أن يقتحم هذا الميدان إلا أن يكون ممتعا بزاد كبير من ذاكرة قوية وذهن حاضر. لكن هذا ما فقدته خلال الأشهر الأخيرة. على أنني أشكر الله تعالى على أن وفقني وأخذ بيدي طوال هذه المدة التي تتجاوز نصف قرن حتى ختمت تفسير كتابه. وإذا قلت تجاوزت نصف قرن فلأنني قبل تفسير القرآن كله من فاتحته إلى سورة الناس، كنت فسرت في سنوات قبلها الجزء الأخير من القرآن وهو جزء عمّ معتمدا فيه على تفسير الإمام الشيخ محمد عبده رحمه الله. وعلى ما ذكرته آنفا من ضعفي وعجزني واشتداد المرض عليّ من جهة ولضيق الوقت على أكثر من الإخوان الذين توجب عليهم واجباتهم الرسمية الرجوع عاجلا. فإني أعتاض عن درس التفسير بكلمات نقلتها من خطاب أستاذنا الإمام الشيخ عبد الحميد بن باديس رحمه الله. الخطاب الذي ألقاه بالجامع الأخضر بقسنطينة عام 1938 حين ختم تفسيره القرآن الذي كان ينشره تباعا في مجلته. وإنها لكلمات غريبة غزيرة حقا رأيتني أسير في معناها وينطبق عليّ مغزاها فأحسنوا الإصغاء والفهم.

فمن جملة ما قاله: «بسم الله الرحمن الرحيم: إننا والحمد لله نربي تلامذتنا على القرآن من أول يوم، ونوجه نفوسهم إلى القرآن في كل يوم، وغايتنا التي ستحقق إن شاء الله أن يكون القرآن منهم رجالا كرجال سلفهم وعلى هؤلاء الرجال القرآنيين تعلق هذه الأمة آمالها وفي سبيل تكوينهم تلتقي جهودنا وجهودها، وإن أعز ما وصلنا إليه هو تبين الغاية وتلاقي الجهود والحمد لله» ثم قال في آخر خطابه كما جاء في العدد الخاص بالتفسير من مجلته الغراء: "الشهاب": إنني أعاهدكم على أنني سأقضي بياضي على العربية والإسلام كما قضيت سوادي عليهما. وإنها لواجبات، هذا عهدي لكم وأطلب منكم شيئا واحدا وهو أن تموتوا على الإسلام والقرآن ولغة الإسلام والقرآن».

هذه بعض كلماته بالحرف وهي غريبة في بابها. ومراده بالبياض بياض الشعر وسن الشيخوخة وبالسواد سواد الشعر وسن الشباب وقد وفي الشيخ بعده هذا حتى فارق الحياة في 16 أفريل عام 1940 فهو لم يعيش بعد ختم التفسير إلا نحو عامين اختاره الله بعدهما إلى جواره رحمه الله.

هذا ما قطعه الشيخ على نفسه وعاهد به أمته وإنما اخترت هذه الكلمات لأنني رأيتها تنطبق تمام الانطباق على طريقتي في التفسير وهدفي منه وهي تربية التلاميذ على القرآن من أول يوم وكل يوم. وقد جاهدت الأمة مع الشيخ وخاصة بعد تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وقد انتشر تلامذته في شرق البلاد وغربها وشمالها وجنوبها ونشروا الإسلام والعربية والقرآن ووفوا أيضا بالعهد الذي قطعوه على أنفسهم لأستاذهم.

وهذا ما نعاهد الله عليه ما دام فينا عرق ينبض بالرغم من المرض
المزمن الذي بليت به ومنعني من مواصلة العمل فلن أقصر في الجهد
ما استطعت.

هذه كلماتي إليكم أيها الوافدون المؤمنون فأنتم الرجال الذين كان
الشيخ يتمنى ويقول عسى أن يكون القرآن منهم رجالا كرجال سلفهم
وسماهم قرآنيين لأنهم متمسكون بالقرآن حفظا وتلاوة وإدراكا لمعانيه
واستخراجا لعبره وعملا بما فيه. كذلك كنا نرجو من طلبتنا حين
ربيناهم على القرآن والعربية والإسلام أن يكونوا قرآنيين أو كما سماهم
الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم ربانيين. قال: «كونوا ربانيين بما كنتم
تعملون الكتاب وبما كنتم تدرسون».

وقال الأستاذ مولود قاسم:

(أود أن أذكركم ولكن الأستاذ الإمام سبقني إلى ذلك وكان ذلك
متوقعا كنت أود التذكير وشبه مقارنة عابرة بيوم بهيج في تاريخ هذه
الأمة، الأمة المصغرة والأمة الجزائرية جمعا يختم تفسير القرآن في
الجامع الأخضر سنة 1938 الذي لم نسعد مع الأسف لصغر سننا آنذاك
بحضوره ولكننا قرأنا عنه في "الشهاب" وقد سعد آخرون من
الموجودين هنا في هذه القاعة. ذلك الحفل الذي شدت إليه الركاب من
جميع أنحاء هذه البلاد، وبهذه المناسبة أود أن أرحب وأعبر عن
فرحنا بمشاركة إخوان لنا من خارج الجزائر هم طلبة في معهد الحياة
إخوان من زنجبار ومن جربة في تونس ومن الجبل الأخضر ومن عمان
وإخوان من العالم الإسلامي الذين يدرسون هنا يشاركون اليوم في هذا
الحفل البهيج. إذن أشكر مرة أخرى وهذه المرة بصفتي شخصا لأن

الدعوة موجهة إليّ وأهنتكم ونهنت أنفسنا جميعا ونرجو أن يكون هذا الاختتام كما قلت آنفا بداية لافتتاح جديد، وأن يرزق الله أستاذنا الإمام الشيخ إبراهيم بيوض بن عمر الصحة وإطالة العمر ليستأنف الجزء الذي لم يسجل ليخرج هذا التفسير كاملا إن شاء الله وإذ أعذر عن عدم مشاركتكم هذه الفرحة إلى آخر هذا المهرجان الكبير لأستاذنا لانشغالي في عمل مستعجل في الإطار المذكور آنفا. أتمنى لكم النجاح وأتمنى لأستاذنا الإمام مديد العمر إن شاء الله وصحة متجددة وأشكركم مرة أخرى والسلام عليكم).

وقال الشيخ أحمد حماني:

(للمرة الثانية في هذا العصر يختم القرآن دراسة ويحتفل الشعب الجزائري المسلم بختم القرآن ويقيم لهذه المناسبة عرسا دينيا وقوميا ووطنيا. وربما ختم القرآن في مواطن كثيرة وأوطان كبيرة من بلاد الإسلام في هذا القرن وفي هذه المدة ولكن ختم القرآن في الجزائر فذ في ذلك. إن الذين ختموا القرآن في غير الجزائر قد ختموه تفسيرا مسجلا وقد ختمه بعضهم دراسة للخواص، وأما في الجزائر فإن القرآن ختم للمرة الأولى كما ختم في الثانية أمام جميع الأمة من الطلبة والأساتذة والعامة. ودراسة القرآن وهداية القرآن لم تكن خاصة بل إنها عامة. فلعلماء الجزائر من الراسخين يفهمون ولا ييخلون على العامة بما يعلمونه الخاصة. فهذا عالم الجزائر الأول عبد الحميد بن باديس ختم القرآن دراسة لجميع الأمة في الجامع الأخضر. وهذا عالم الجزائر الثاني من الراسخين يختم القرآن دراسة لهداية الأمة في جامع القرارة فهذه نكتة وملاحظة يجب أن يلاحظها كل من يتكلم على هذه الأمة

ويدرس عظمة شعبها. شعب الجزائر، فإن الهداية إذا أردنا أن نطلبها ونظفر بها حقا فإنما نجدها في هداية القرآن. وقد سمعتم كيف أوصى عالمنا من الراسخين الأول عبد الحميد بن باديس تلاميذه والتزم أن يتربوا على القرآن من أول يوم وما أعظم تنويه العظيم بالعظيم. والعالم من الراسخين بالعالم من الراسخين أن ينوه بهذه اللفتة من عبد الحميد بن باديس وأن ينبهنا الى ذلك وأن يشعرنا أنه التزم هذا الطريق وربى طلبته وأمته على أن يكون القرآن رائدها في التربية. لماذا يحرص العالم الأول والعالم الثاني على أن ينصحا لطلابهما بالقرآن وأن يعتمدا في تربيتهم على القرآن، لأن القرآن يخرجنا من الظلمات إلى النور«كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم» من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، ومن ظلمات الشرك إلى نور التوحيد، ومن ظلمات الجهل إلى نور العلم من ظلمات الضلال إلى نور الهداية. فمن كان إمامه القرآن فلا يضل أبدا كما أخبر الصادق المصدوق فإن من كان على نهج القرآن ونهج سنة الرسول عليه الصلاة والسلام التي جاءت بيانا للقرآن تبيانا للقرآن لا يمكن أن يضل من كان في النور ينظر بنور العينين وأمامه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله نور القرآن. فكيف يضل من يسير في النور وفي عينيه نور. لهذا أيها الإخوان يوصينا هذا العالم الأمين مثلما أوصى من قبله من كل عالم أمين أن نلتزم القرآن وأن نربي أبناءنا بالقرآن إذا شئنا أن نرى النور وأن نعيش في النور وألاّ نضل أبدا⁽¹⁾.

(1) يلاحظ القارئ اللبيب في بعض هذه النصوص تفككا في بعض العبارات أو ضعفا أو تكرارا، والأمانة العلمية تقتضانا إيراد النص على حاله ووضع، لا سيما والمعاني واضحة.

وقال السيد محمد بوطبة:

(ما دام الله قد أخذ على نفسه العهد أنه حافظ هذا القرآن بقوله:-
«وإننا له لحافظون»- فستبقى معه هذه اللغة العربية محفوظة إلى يوم
الدين. وليس لي أن أردد في آخر كلمتي هذه الأبيات التي كانت تصاحبنا
خلال عهد الضغط والحرمان والتسلط:

شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتسب... إلخ

وقال الدكتور عبد الرزاق قسوم:

(أيها الإخوة في الله. ماذا أستطيع أن أقول لكم وأنتم في هاته الواحة
الآمنة المطمئنة التي تجتمع وتحفل اليوم بحدث إسلامي عزّ مثيله. ماذا
يمكنني أن أقول وقد سبقني إلى هذه المنصة كل الأساتذة. أساتذتي
الذين قالوا ما يجب أن يقال. وإذا كان لابد من أن أقول شيئا فإن أحسن
ما يمكن أن يقال في يوم القرآن في مأدبة الله هو قوله تعالى: «لو أنفقت
ما في الأرض جميعا ما ألّفت بين قلوبهم ولكن الله ألّف بينهم إنه عزيز
حكيم». فمن وحي هذه الآية ومن وحي هذا المشهد الإسلامي الخالد
أستطيع أن أنقل إليكم نيابة عن زملائي وإخواني أساتذة الجامعة سواء
من وجد منهم هنا وهم أحق بالكلام مني أو الذين حالت دون حضورهم
إلى هذا الملتقى الخالد مهام وصعوبات. إذا كان لي ما أقوله باسمهم
ونياية عن هؤلاء الزملاء، فهو أن أنقل إليكم تهانيهم بهذا العيد السعيد
الذي يجدد للأمة الإسلامية في شخص إمامنا الخالد -مدّ الله في
حياته- الإمام بيوض يجدد لهاته الأمة الإسلامية مجدها وعهدها
وصلتها الوثيقة بكتاب الله وبلغتها الوطنية. إنني أنقل إليكم تهانيهم بهاته
المناسبة وآمل باسمهم جميعا أن تتمكن الجامعة التي هي في قانون

الإسلام امتداد لمهمة المسجد وامتداد لرسالة الجامع آمل أن تكون هاته الجامعة قلعة، منها ستوحي كل معاني القيم ومنها ستوحي كل معاني الإصلاح ومنها ستوحي كل معاني تكوين المواطن الفاضل المتشبع بعقيدته وبلغته وبوطنه، وإذا كانت الجامعة كما قلت هي امتداد للجامع، وإذا كان الجامع قد حفظه الله من أن يكون في يوم من الأيام محل فساد أو إفساد فإن الجامعة إذا لم يقيض الله لها جامعيين صادقين مخلصين مؤمنين قد تتحول لا شاء الله إلى قلعة فساد أو قلعة إفساد ولهذا فإن العهد الذي نأخذه على أنفسنا أمام الله وأمام هذا المشهد الإسلامي العظيم هو أن نعمل صحبة زملائنا المؤمنين وإخوتنا المؤمنين أن نعمل ما في وسعنا لكي تصبح الجامعة بإذن الله القلعة الإسلامية القلعة الوطنية التي تكون الإنسان المؤمن والتي تكافح وتدمغ الباطل وتزهق الباطل فإذا هو زاهق).

وقال الأستاذ عبد القادر قدي:

(إخواني الأعزاء هذه كلمتي باختصار لأنني لست في مقام النصيح فأوجه إليكم النصيحة، ولست في مقام الإرشاد فأرشدكم، ولكني في مقام التلمذة جئت لأتلمذ عليكم وها أنا أتتلمذ فعلا لأنني أرى هذه الحشود الجامعة ستعيد الثقة إلى نفوسنا بهذا الدين وتعيد إلى أنفسنا جميعا الثقة بهذا القرآن الكريم. وما نُزعت الثقة من نفوسنا يوما من الأيام ولكن لنزداد إيماننا والحمد لله على ما سبق. وأشكركم وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يجزي أهل هذا البلد على مضيقتهم لنا وأن يجعلها بلدة آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان، وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا جميعا متحدين ومتآلفين بالقلوب كما تآلفنا بالأجسام.

فلتكن القلوب متحدة كما اتحدت الأبدان ولنجتمع على كلمة الإسلام فيها وحدثنا وبها عزتنا وإنه سميع قريب مجيب الدعاء والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وقال الشيخ عبد اللطيف سلطاني:

(لماذا - يا إخواني- أهل الباطل متحدون وأهل الشر متضامنون متعاونون، أما أهل الحق وأنصار الحق مشتتون مغرقون؟ إن المسؤولية كبيرة وعظيمة على أكتافنا تحملناها وهي أمانة والإسلام كله أمانة تركه لنا آباؤنا وأجدادنا -«إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها». «يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون»- لماذا لا تكون لنا عقيدة متينة مثل من سبقنا -فاقرأوا تاريخ الصحابة بل تدبروا القرآن- هذا أبونا إبراهيم خليل الرحمن عليه الصلاة والسلام من أجل عقيدته ألقى في النار -ولكن هل أحرقته النار؟ حماه الله تعالى «قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين» لم تأكل منه النار إلا الوثاق- وهذا بلال رضي الله عنه العبد الحبشي الضعيف الذي ليس له ناصر إلا الله سبحانه وتعالى آمن بالرسول عليه الصلاة والسلام وكان من المستضعفين في قومه وكان عبدا مملوكا لامرأة وأعتقه أبو بكر الصديق رضي الله عنه وقد وكل بها أمية بن خلف عدو الله وعدو الرسول والإسلام والحق فعذبه بما لا تستطيع أن تتحملة نفس بشرية ضعيفة وما يتحملة إلا أقوياء الإيمان كانوا يأتون به في الظهير في اشتداد الحرارة إلى بطحاء مكة ويلبسونه درع الحديد الذي يلبسه أهل الحرب -والحديد إذا مسته النار فإنكم تعلمون قوة حرارته وقوة ألمه في الجسد فيبطح على ظهره وتوضع

الصخرة العظيمة على صدره ويعذبونه ويحاولون أن يردوه عن عقيدته ويقولون له: تكفر بمحمد وبالله وتؤمن باللات والعزى- فيقول: أحد أحد ويردها وهو في العذاب.

إن أول شهيد في الإسلام امرأة وهي سمية زوجة ياسر وأم عامر بن ياسر قتلها عدو الله أبو جهل بحربة طعنها في فرجها فقضى عليها وثبتت على عقيدتها ولم تتزحزح ولم تتبدل -أسرة كاملة تتعذب ويمر عليها الرسول عليه الصلاة والسلام فيقول لهم: صبرا آل ياسر موعدكم الجنة.

ثم أصحاب الأخدود الذين ذكرهم الله تعالى في سورة البروج -شق لهم الأرض وحفر خندقا وملاء حطبا وأوقدت فيه النار ويعرض عليه المؤمنون بعد أن يسأل كل واحد منهم: هل أنت كافر؟ أتؤمن باللات والعزى؟ أتؤمن بالمعبود- في ذلك الزمن-؟ فإن قال: أنا أومن بالله ألقى في النار. «والسماء ذات البروج واليوم الموعود وشاهد ومشهود قتل أصحاب الأخدود النار ذات الوقود إذ هم عليها قعود وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد» هذه النعمة وهذا الغضب كله لأنهم آمنوا بالله ولكن هل صدّهم ذلك كله عن ترك الإيمان كما نفعل نحن ضعفاء الإيمان⁽¹⁾.

وقال الأستاذ الشاذلي المكي:

(إن كل جمال الغابات إنما هو في أسودها وأشبالها وملثف أشجارها ولإن كان جمال الجنات إنما هو رياحينها وزهورها وخرير مياهها ولإن كان جمال الصحاري إنما هو في قطعان غزلانها وفي كثرانها وواسع

(1) في بعض الآيات الواردة في النصوص أخطاء قد تكون مطبعية، وعلى كل فقد صححناها لأن خطرنا عظيم إذا أخها القارئ على خطئها.

أرجائها فإن جمال الأمة الجزائرية المحمدية والقرآنية في شبابها وفي شبابها المثقف الذي يقيم دينه أحسن قيام إيماناً بالله واحتساباً به ووعظاً وتبشيراً. إذن أيها الشباب الذي يملأ هذه البطحاء من هذا المكان الفسيح في بيت من بيوت الله التي أمر الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه سلام الله عليكم مرة أخرى⁽¹⁾.

وقال الشاعر محمد الأخضر السائحي:

(رجعت وعادت بي الذكرى لسالف عهدي فيك يا جنة الصحراء
فهل أنا حقاً فيك أم أنا حالم وهل أنت حقاً أنت أم جنة أخرى
تركك معقود التمايم ناشئاً وشخت ومازلت المحببة الكبرى
وجئتك مأخوذاً بسحرك إنني أرى كل شيء فيك يأخذني قسراً
أكاد من الشوق المؤجج في دمي أقبل حتى العشب والتراب والصخر
وأستعجل الساعات تمضي سريعة كطالب سكر راح يستعجل السكر
لأنظر حسن الليل فيك إذا دجى وأنظر حسن الصباح فيك إذا أفترى
فقد كان يوماً ذلك الحسن ملهمي وكنت به ألقى السعادة والبشرى
حباني سرور لا يبيد ومدني بفيض من اللذات يغمرني غمراً
وفجر في صدري العواطف ثرة وعلمني أن أكثر الحمد والشكر
فكيف حبست الحسن عندك هكذا وكيف جمعت السكر والطهر والسحر
وكيف صبحت الدهر في كل رحلة ولم تفقدي كالروض عطراً ولا زهراً
لي الله مجنوناً بحبك دائماً وإن كنت حتى الآن لم أفهم السر)

(1) أكثر الخطب الملقاة في هذا الحفل طويلة جداً، ومتكررة معانيها ومقاصدها، ولذا وجب الاختصار والاقتضاب.

وقال الدكتور عمار طالبي:

(أيها السادة إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم وإنه هو الذي ينير سبيلنا في هذه الدنيا وهو الذي يجعل لنا مقياسا في هذا التاريخ، ولذلك فإن القرآن يشتمل على مجالات ثلاثة نبه المسلمين إليها وهي مجالات عامة: أولا نبهنا إلى مجال الطبيعة وما فيها من قوانين ومنافع للناس في آيات كثيرة تشير إلى جميع مظاهر الكون. ثم وجهنا ثانيا إلى مجال التاريخ مجال تجارب الإنسانية القديمة والأمم الماضية وما هي القوانين التي لو تساوت عليها لاستقام عليها أمرها، وما هي المخلفات التي قامت ضد هذه القوانين فاندرس أمرها، ثم المجال الثالث وهو مجال النفس البشرية «سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق» هذه المجالات الثلاثة مجال الطبيعة وما فيها من قوانين تحكمها سنن الله ومجال الإنسان (المجتمع البشري) وما تحكمه من قوانين أخلاقية إن استقام بها واستقام أمره وإن انحرف عنها ذهبت ريحه، ثم بعد ذلك كله مجال النفس البشرية الداخلية التي هي عالم آخر يمكن للإنسان أن يتأمله وأن يصل إلى ما يصلح نفسه وما أن يضمن به الاستمرار.

ونحن أيها الإخوان إن لم نغير ما بحالنا اليوم من الضعف فإن غيرنا سيغيرنا ولذلك فإن قانون تاريخ. غير نفسك يغيرك التاريخ. وآن الأوان لأن ننهض بحياتنا الدنيوية وأن نجعل من هذا القرآن سبيل حياتنا في جميع مظاهرها. المظاهر السياسية والاجتماعية والاقتصادية وكل ما يتعلق بحياتنا في هذه الدنيا التي هي مطية إلى الآخرة. فإن الله سبحانه وتعالى أرسل الرسل والأنبياء لهداية الناس وإقامة العدل. «لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط» «وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس» فهذا الميزان وهذا

الكتاب وهذه البيانات تحتاج إلى سلطة سياسية إسلامية تقيم هذا العدل بين الناس، وتحافظ على هذا الميزان. وفسر فخر الدين الرازي. الحديد. هنا بأنه القوة السياسية التي تحفظ للمسلمين كتابهم وتحفظ للمسلمين الميزان فيما بينهم وفيما بينهم وبين الناس. «وإذا حكمتكم بين الناس أن تحكموا بالعدل» فالعدل في الإسلام لا يفرق بين جنس وجنس ولا بين لون ولون. والأمة الإسلامية أمة تقوم على المنهاج لا على عرق ولا على جنس ولا على لون ولا على لغة وإنما منهاج رباني يحكم الحياة الإنسانية ويهديها إلى الطريق المستقيم).

وقال الدكتور محمد ناصر:

(الله أكبر في رحاب الله كم

يسمو الشعور، وتصغر الأشياء

كم في رحاب الله تلتحم

الهداة قلوبهم كثيابهم بيضاء

تحنو على حب كمحراب حنا

لله فيه تضرع ودعاء

ويضمهم شبر وشبر عند بيت

الله من نور الصفاء، فضاء

الله أكبر في رحاب الله قفر

في الصحاري، جنة خضراء

كم تجميل الأشياء عند رحابه

فالخلق من حب سني وسناء

الله أكبر في رحاب الله كم
يفنى القوى ويصغر الكبراء
وتزول بهرجة المراتب والمكا
تب، تهمل الألقاب والأسماء
تتقارب الأبعاد في أفيائه
فإذا التراب مع النجوم سواء
لا شيء غير محبة في الله
مخلصة لها السراء والضراء
تفنى المحبة غير حب في سبيل
الله حانية به الأحناء
يا روعة الحفل الجليل يصيبني
عي فلا وحي ولا إحياء
قد جف بحر الشعر من رهب
وخان قصيدتي الإبحار والإرساء
أنا من جلالك يا رحاب الله في
أفق سماوي عليه رواء
فإذا هذيت عذرت إني إخوتي
في نشوة روحية هذاء
يا خاتم القرآن، أية رحلة
ختمت تود لو أنها إبداء

لك خاتم القرآن أجر مجاهد
أنفاسه تضحية وفداء
خمسون عاما في رحاب الذكر
والآيات صادعة بها غراء
خمسون عاما لم يهن لك في سبيل
الله صوت أو يبح نداء
يا رحلة علوية إلا نفاس يعجز
عن مداها الشعر والشعراء
في نشوة التوحيد طار بك البيا
ن، جناحك الفصحاء والبلغاء
أسرى بك القرآن في العليا وبالقر
آن كم يعلو بنا الأسراء
سالت من السحر الحلال لهاته
فكأن هاروتا له نباء
الذكر وصفة ربه فيها لمن
فتكت به علل الزمان دواء
كالسيل عند السد يهدر أفقا
فإذا سرى في النفس فهو الماء
تتشرب الأبواب حلو بيانه
وبيانه القرآن فيه شفاء

لما غلت كلماته حفظت أما
نة ناشريها الآلة الخرساء
وإذا أراد الله نشر فضيلة
نشرت محاسن فضلها صماء
وقال الأستاذ صالح بن ابراهيم باجو:
(أيها الوافدون أهلا وسهلا
طاب ممشاكمو وطبتم مقاما
أنزلوا بيننا على الرحب تلقوا
بسمات تحية وسلاما
وقلوبا تكاد تقفز من بي
ن الحنايا شوقا لكم وهياما
قد نشرنا لكم على الأرض أكبا
دا طؤوها معززين كراما
ولحاظا تود لو غفل الده
ر فطال اللقا بكم أعواما
وقال :
هذه بلدة العلوم فداها
كل حريقدر الحر فانا
قد بنت معهد الحياة لتحيا
في القلوب الأخلاق والإيمان

بدروس التفسير والفقه والسند

ة يعلى لديننا بنيانا

بعلوم الحياة طعم أفكا

ر بنيه فزادهم تبياننا

فغدوا للإيمان هديا ونورا

وعلى الكفر نقمة نيرانا

وقال :

مند خمسين حجة بني المع

هد حصنا للدين والقرآن

معهد الحياة شيد على تق

وى من اللّة ثابت الأركان

كم تصدت لهدمه دولة الكف

ر فباعت بالويل والخسران

عرقلت سيره مرارا ول

كن إله السما على الطغيان

فاكتسحنا - بفضله - دولة الشر

ك إلى البحر في فم الحيتان

وقال :

فيه بيوض قد تصدى لتفسي

ر كتاب المهيمن الجبار

خائضا أبحرا غزيرا من الحك
مة ملأى بروعة الأسرار
غائضا للأعماق مستخرجا من
ها جمانا يشع كالأقمار
خصه الله بالذكا وبعلم
من لدنه وحكمة واقتدار
فجزاك الإله عنا كما جلي
ت عنا غشاوة الأبصار
وقال الشاعر صالح خباشة:
أي عيد إلى القرارة آبا
أدعت ربها الرضى فاستجابا
أم رحيق من مجدتنا هرت باق
عتقته يد الزمان فطابا
أم مزاب تشرب الوحي نورا
سرمديا فأسرج الألبابا
مورد الذكر - والقلوب ظماء -
نرتويه ، فلا نمل الشرابا
إيه يا شيخنا الجليل هل استو
فيت من كوثر البيان النصابا

كلما أمطر السحاب رعاء
شكروا الوبل واستزادوا السحابا
وربيع الإخاء يورقه الإخ
لاص لله طاعة واحتسابا
أمة الوحي نيرات خطاها
أو ما قادت الورى أحقابا
نغزل السلم للأنام، وإننا
نتلظى على المغير التهابا
يا فتى الوحي سرولا تلتفت حو
لك يوما إذا سمعت كلابا
تلك عاداتها إذا خب ركب
أو أزاح الهلال عنه النقابا
وتخط السدود لورمت بالجد
أن تنال الشهاب نلت الشهابا
سئم القوم أن يقيموا بأرض
فتوا لوا على السما أسرابا
وبقينا ندور نحن فلا نف
تح بابا إلا لنغلق بابا
وجه القوم للسما صواري
سخ يودون أن تحير جوابا

واخترعنا قنابلا منكرات
تتلظى شتائما وسبابا
عجبا يا بني العروبة، كنا
قد أعدنا إلى الحياة الشبابا
فنهبنا قشورها وانزويننا
وتركنا إلى الأنام اللبابا
قد أضأنا لهم طريقا فساروا
ورجعنا إلى الورا أحقابا
خير دستورنا كتاب رأى فيه
له عدانا إلى الحضارة بابا
أفلقه نحن في مهملات
ثم نرجو من الدخيل كتابا؟
أفنهوى بمجدنا في سحيق
ثم نغدو لكتلة أذنا بابا
وقصور ندكها في حمانا
ثم نمسي لغيرنا حجابا
وكنوز تكدست لسوانا
ثم نغدو نماسح الأعتاب
كلما لاح في العروبة نجم
أطفأوه نظنه نحن غابا

كلما موهوا علينا انطلقنا
فاكتشفنا - بعد الأوان - السرابا
هم تولوا زمامنا ، لست أدري
أغبياء نهيم أم نتغابي؟
يا شباب العروبة اليوم لا تمـ
لك إلا طموحك الوثابا
بل ملكت النضار في كل شبر
أسال الدخيل منه اللعاب
صارع الدهر مؤمنا تجد الد
ه ضياء، وملجأ، وحرابا
أنت لن تخصب الأراضى إن لم
تتخير من النفوس خصابا
كم شعوب على الضفاف كسالى
تتلوى مجاعة وعذابا
وشعوب على الصخور ولكن
فجرت تحتها العيون العذابا
صارع الدهر مؤمنا تقلب الده
ر حميما يذود عنك الصعابا
وتخط الحدود، كل دخيل
رام أن يفصل الأشقاء خابا

كل شبر من (كابل) و (أغادي
— (بلادي فلا أحس اغترابا
فلسطين روضة في رياض
قل لصهيون أن يعيدوا الحسابا
قد ربضنا على الحدود إلا أن
لنا في الغد القريب مآبا
فكفى الثورة العظيمة في (أو
راس) والمشرق الأبي جوابا
قل لمن يزعم الذي ليس فيه
قس على قدك النحيف الثيابا
ولمن يدعى العروبة : مهلا
ليس ترضى من الدّعى انتسابا
أمتي لا ترى العروبة آيا
ت من الذكر والبيان عذابا
فهي أقوى من الوجود رسوخا
وهي أبقى من الخلود حسابا
أمتي لا ترى لوحدتها أل
ف معان مصنفات كتابا
إنها وحدة ترص صفوفها
ووائام يهدئ الأعصابا

لو صهرنا تلك العروش لصغنا
أمة العرب ماردا غلابا
صرخة الوحدة العظيمة لا تهـ
دأ إلا إذا الجميع استجابا
كم قلوب من المحبة ملأى
وثقت أن من يفرق آبا
كم عروق إلى التلاحم ظمأى
صادف الوحي حرها فانسابا
وقال الأستاذ أطفيش الحاج محمد:
هنا القرارة أم هنا عرفات
تمت هنا وهناك الآيات
ثم النزول هناك دينا قيما
وهنا يتم الشرح والحلقات
وهناك تكمل نعمة مسبوغة
فيها السعادة للقلوب حياة
واليوم تكمل حلقة معمورة
خفت بها البركات والرحمات
كملت وكانت نعمة وسعادة
للعالمين محجة وزكاة

شرح لوهي الله درس نير
هدى ونور حكمة وعظات
للعلم للدين الصحيح وللتقى
بنيت هنا الجدران واللبنات
للخير للخلق الكريم وللعلی
والصالحات تتابع البعثات
عرفات ضاهتك القرارة رتبة
حجوا القرارة إنها عرفات
اليوم يذهب نصف قرن كامل
يا ليتها لم تسرع السنوات
واليوم يختم شرح وحي شامل
يا ليتها لم تنته الكلمات
واليوم تفصم حلقة معمورة
في مسجد غصت به العرصات
من جوفه القرآن شمشع نوره
فإذا به المصباح والمشكاة
وبجوفه حفت هناك ملائك
بالحاضرين وتنزل الرحمات
في صدره بيوض يجلس شارحا
تبيانہ وتسجل الآلات

درس به الأرواح تحيا بروحه

فكأنما هو للحياة حياة

وكأنه السحر الحلال بعينه

تعنو له الألباب والملكات

فهم صحيح للمعاني وكنهها

شرح سليم ما به غلطات

نطق بليغ في النفوس مؤثر

كم زائغون به اهتدوا وعصاة

درس مبين ممتع ومعلم

قصص عظات عبرة ونكات

لم يشهد القطر الجزائري مثله

إلا بسر تمت الحفلات

يهتم بالإصلاح يصلح أمة

أودت بها الأوهام والعادات

الفوز بالقرآن ليس بغيره

والعود للقرآن فيه نجاة

وانتهى الحفل التاريخي البهيج بكلمة الإمام الشيخ بيوض التي لبي بها

الرغبة في تقديم كلمة توجيهية إلى الشباب بصفة خاصة فكان مما جاء

فيها قوله:

● خطاب المحتفل به:

(نحن نريد أن يكون شبابنا قرآنيين ظاهرا وباطنا حسا ومعنى يعتنون به ويتلونه ليلا ونهارا ويتخذون وردا - لا يمكن أن تمرّ على المسلم أربع وعشرون ساعة وليس له ورد من القرآن يتلوه إما في الليل أو في النهار - زيادة على ما يقرؤه في صلواته الخمس - كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون - كونوا ربانيين قرآنيين كما قال الله تبارك وتعالى في سورة آل عمران - أي اعبد ربك كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك وهذا حديث جبريل مع النبي صلى الله عليه وسلم: ما الإحسان؟ - وقد رأينا صباحا طلب الإمام الشيخ باديس قال بعد أن قطع العهد على نفسه بقضاء بياضه كما قضى سواده على الإسلام والقرآن قال: أرجوكم أن تموتوا على الإسلام - كنت أردت أن أقول كلمة: ما معنى موتوا على الإسلام؟ وهل الموت بيدنا حتى نموت على الإسلام؟ وهل نعلم أجلا؟ ولكن يبدو لي أن تفسير هذه الكلمة للأستاذ الإمام: عاهدوني على أن تموتوا على الإسلام يفسرها حديث النبي صلى الله عليه وسلم وقد صح عنه في كتب السنة: «اتق الله حيث ما كنت واتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالف الناس بخلق حسن» - فمن اتقى الله حيث ما كان لا توافيه المنية إلا على الإسلام، ومن كان يذكر سيئاته فيتوب منها يأتي بالحسنات ليمحو بها السيئات - والدين هو المعاملة، الدين هو الخلق - هذه وصيتي وهذا ما أشرحه طوال خمسين عاما مضت - وهذا ما رأينا آثاره بادية ولله الحمد - على الوجوه المنيرة اليوم وهذا ما جعل إخواننا من جميع الجهات يزوروننا لهذا المهرجان العظيم بارك الله فيهم - جعل الله منكم أمة قرآنية أمة ربانية - اللهم أهدنا فيمن هديت - وتولنا فيمن توليت - وبارك لنا فيما أعطيت، واكف عنا شر ما قضيت إنك تقضي بالحق ولا

يقضى عليك، يا أرحم الراحمين - ربنا آتتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشداً، يا حيّ يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام، أصلح لنا شؤوننا كلها ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين - أصلح لنا قلوبنا وأصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا وتقبلنا بعضوك ورضاك يوم لقاءك، يا أرحم الراحمين اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد خاتم النبيين وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين).

● لمحات من حياته:

هذه لمحات من حياة الإمام ننقلها عن (جمعية الحياة) كما جاءت في الدعوة الموجهة إلينا للمشاركة في الملتقى الأول لفكر الإمام الذي أزمعت على تنظيمه يومي 8 و 9 محرم عام 1420هـ، 13 و 14 أبريل سنة 2000م في القرارة ولاية غرداية:

● حياة الإمام:

هو بيوض إبراهيم بن عمر بن بابا، ولد يوم 11 ذي الحجة 1316هـ / 22 أبريل 1899 بالقرارة ولاية غرداية، جنوب الجزائر، وكان والده من أعيان الإصلاح في البلد.

عرف بالنبوغ والذكاء وحسن الحافظة وذلاقة اللسان منذ صباه، درس القرآن الكريم واستظهره وعمره 12 سنة فالتحق بحلقة "إيروان" أي حفاظ القرآن.

أخذ مبادئ الفقه والعربية عن مشايخه: الحاج إبراهيم الأبريكي، عبد الله بن إبراهيم بو العلا، والشيخ الحاج عمر بن يحيى ويرو.

لازم شيخه الحاج عمر بن يحيى وتأثر بتربيته وتعليمه فخلفه في رفع راية الإصلاح بعد وفاته سنة 1339هـ / 1921م.

في سنة 1340 هـ / 1922م التحق عضوا بحلقة "العزابة" الهيئة الدينية العليا بالمسجد المشرفة على الشؤون الدينية والاجتماعية في البلد وعين رئيسا لها سنة 1358 هـ / 1940م إلى وفاته.

في سنة 1343 هـ / 1924م تولى الوعظ والتدريس بالمسجد الكبير بالقرارة. في سنة 1343 هـ / 1425م أسس معهد الحياة للتعليم الثانوي مركزا على الثقافة الإسلامية والعربية والعلوم المعاصرة، وسماه "معهد الشباب" شعاره: «الدين والخلق قبل الثقافة»، و«مصلحة الجماعة قبل مصلحة الفرد».

شارك سنة 1349 هـ / 1931م في وضع القانون الأساسي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين وكان عضوا في إدارتها الأولى، نائبا لأمين المال. في سنة 1349 هـ / 1931م افتتح بالمسجد الكبير بالقرارة درس الحديث من "فتح الباري شرح صحيح البخاري" واختتمه في حفل بهيج سنة 1336 هـ / 1945م.

في غرة محرم 1335 هـ / ماي 1935 افتتح درس تفسير القرآن من فاتحته بعد أن أتم تفسير جزء "عم" واستمر فيه زهاء خمسين عاما، واختتمه يوم 25 ربيع الثاني 1400 هـ / 12 فيفري 1980م، فأقيم له بالمناسبة مهرجان عظيم.

في سنة 1355 هـ / 1937م أسس جمعية الحياة بالقرارة التي دعمت النهضة العلمية والإصلاحية في وادي ميزاب، ولا تزال تؤدي رسالتها في التربية والتعليم.

كانت له مشاركة فعالة في الصحافة الوطنية بمقالات قيّمة تدعو إلى الوحدة الوطنية والتمسك بالمقومات الإسلامية وباللغة العربية.

بسبب نشاطه الإصلاحى والوطنى فرض عليه الاستعمار الفرنسى الإقامة الجبرية فى مسقط رأسه خلال الحرب العالمية الثانية من سنة 1940 إلى 1944م.

فى 3 جانفى 1944م بعد رفع الإقامة الجبرية عنه قدم مطالب الأمة أمام لجنة الإصلاحات الإسلامية.

كانت حياته كلها جهادا ضدَّ الحكم العسكرى الفرنسى والموالين له، وضدَّ الأمية والجهل والبدع والخرافات والجمود الفكرى.

وافاه أجله يوم 8 ربيع الأول سنة 1401هـ/ 14 جانفى 1981م عن عمر يناهز 83 عاما، فشيخ جثمانه فى موكب مهيب حضره نخبة من العلماء والأساتذة والوزراء ومسؤولى الدولة وجمع غفير من مختلف أرجاء الوطن. دعائم نهضته الإصلاحية: القرآن والسنة وسيرة الخلفاء الراشدين والسلف الصالح.

● من تراثه:

- تفسير مسجل لنصف القرآن 1127 درس، وهو مخطوط فى أربعين مجلداً، طبع منها 7 أجزاء.
- فتاوى مطبوعة فى جزأين.
- أجوبة ومراسلات مخطوطة.
- مئات من الدروس والخطب المسجلة فى المناسبات المختلفة.
- مقالات فى مختلف الجرائد الوطنية.

● من ثمار جهاده الإصلاحى:

أجيال من الرجال، مشايخ وأساتذة ودكاترة ومسؤولون من مختلف المستويات فى التعليم الرسمى والحر والإدارة والجيش والهيئات الاجتماعية.

عشرات من المدارس للتعليم القرآني الديني في مختلف مدن القطر. في سنة 1366هـ / 1948م كان عضوا في لجنة إعانة فلسطين، وكان من بين الأربعة الممضين على برقيات ورسائل التأييد باسم اللجنة وهم: الشيخ البشير الإبراهيمي، الشيخ إبراهيم بيوض، الشيخ الطيب العقبي، فرحات عباس.

في سنة 1366هـ / 1948م انتخب ممثلا لوادي ميزاب في المجلس الجزائري، وأعيد انتخابه سنة 1369هـ / 1951م.

منذ سنة 1955م إلى سنة 1962م كان محور النشاط الثوري بميزاب عامة والقرارة خاصة، إذ كَوَّنَ أوَّلَ خلية ثورية بالقرارة في أواخر سنة 1955م.

كان عضوا في اللجنة الإدارية المؤقتة لعمالة الواحات ممثلا لدائرة الأغواط سنة 1958م وأدى دوراً رئيسياً في إحباط مؤامرة فصل الصحراء عن شمال الجزائر.

في سنة 1383هـ / 1962م بعث مجلس عمي سعيد (الهيئة العليا لعزابة مساجد وادي ميزاب ووارجلان) فانتخب رئيسا له إلى وفاته.

في السبعينات اعتمدت وزارة الشؤون الدينية الجزائرية فتواه بالجمع بين الرؤية وبالحساب الفلكي في إثبات المواسم الدينية وفي اعتبار ميقات الحج بالطارئة باعتبار المطار الذي ينزلون فيه بالحجاز.

● من وحي تكريم الإمام بيوض:

إن قراءة تأملية فيما قيل في هذا الحفل ا... مي من الخطب والقصائد جعلنا نصدر هذا الحكم في وضوح الرؤية، وطمأنينة اليقين، وراحة الضمير، وهو صدق العاطفة الذي يتجلى في كل تركيب وفي كل كلمة، إنها عاطفة إعجاب واعتزاز، وتقدير، وهي صادرة عن إيمان عميق بمكانة الإمام المفسر، وجهاده الفكري المستميت طوال الخمسين سنة وأكثر، وأحيانا تتجلى في بعض النصوص عاطفة الأسى والحزن لتخلف المسلمين عن الركب الزاحف إلى الغد الوضيء المشرق، وهم أولو دين هو أفضل الأديان على الإطلاق، وأصحاب كتاب يفتح أمام الحضارة آفاق العلم، ويحرضها دائما أن تأخذ بأسباب الرفعة والكمال، ويستحثها على المزيد من العلم، والزيادة من المعرفة، ويطلب رضى الله تعالى عن طريق سعادة البشر، والإيمان به عن طريق التأمل في الكون والانتفاع بما فيه! ومعظم الصور التعبيرية -لا سيما في القصائد الشعرية- قوية الإيحاء تشع معاني مثيرة، ومصدر كل هذا مكانة الإمام بين العلماء المصلحين، وسمعته العطرة الذائعة، وجهاده العلمي المتواصل، وتراثه الفكري، وإسهامه في تحرير الجزائر، ومواقفه المشرفة، ومشاركته الفعالة في الصحافة الوطنية، ومحاربة الاستعمار الفرنسي له، وتكوينه أجيالا من الرجال الذين نهلوا من منبعه العلمي!

والجدير بالذكر أن الإمامين: ابن باديس وبيوض أدركا أهمية التعليم، وأدركا أن تأليف الرجال قبل تأليف الكتب، وأن انتشار التعليم يفتح للإنسان مجالا واسعا للتقدم في طرق معيشته، والدفاع عن حقوقه، والجهاد في سبيل حريته!

ومن المسلّمات بداهةً أن المدرسة هي أول أركان الارتقاء الصحيح فحيثما تزدهر المدرسة هناك تزدهر الحياة، وترتقي المدنية، وتنتشر الحرية.

ومن ثمّ انقطع الإمامان لتعليم الأجيال، وترقية عقولهم وتهذيب سلوكهم، وغرس الفضائل والكمالات في نفوسهم فما لبثت الجزائر أن رأت من صنائع هذا وذاك أجيالا أقوياء الإيمان والعقيدة، أقوياء النظر والفكر والترجيح، أفرغوا في قالب واحد، يحملون روحا واحدة، ويتجهون اتجاهها واحدا، لأنهم تلقوا تربية واحدة، وتخرجوا جميعا من مدرسة هذا الكتاب المعجز (الذي لا تنقضي عجائبه).

وهنا قد تسألني -قارئ الكريم- عن سر نجاح الإمامين: ابن باديس، وبيوض في رسالتهما التعليمية والإصلاحية، هذا النجاح الذي كلل بالتكريم، وظل تردده الألسنة في مختلف الأمكنة والأزمنة.

فالجواب عن هذا السؤال المفترض، أو الذي يدعو إليه السياق التاريخي في عرض الأحداث عبر حياة الرجلين قد لا يسعه إلا كتاب ضخّم، ولكننا سنوجز ذلك ونقتضبه في الأمور التالية:

أولها: حب الرجلين لمهنتهما التعليمية والإصلاحية إلى حد الغرام والهيام، فالذي يمارس مهنة لا يحبها أولا يقدر عليها، أو لم يتبين المصلحة من ورائها فإنه لا ينجح فيها!

ثانيها: خلو حياتهما من العقد النفسية والآفات الخلقية المختلفة، بل كانا يتمتعان بإرادة قوية، وعزيمة ماضية، وأخلاق كريمة نبيلة، فاستطاعا بكل ذلك أن يحملوا رسالة الإصلاح، وينشروا مبادئه، ويفتحا أعين الجماهير لأشعته المشرقة.

ثالثها: الإخلاص لله تعالى في تعليمهما وإصلاحهما، وكل عمل قوامه الإخلاص لله تعالى أثمر طيبا، وحقق نجاحا، وأعقب ذكرا حسنا.

رابعها: تلاقي فكري الإمامين وأفكار طلبتهما على هوى واحد، وغاية واحدة، حتى كادت نبضات قلوبهم جميعا تتحد في نبضها، هذا التلاقي وهذا الاتجاه والنزوع جعل الرؤية واضحة، والسير متواصلا منتظما، والنجاح محققا مضمونا.

خامسها: حب الطلبة لهما كان من ثماره الطاعة والانقياد والاقتداء، فكان كل طالب منهم يرى في أستاذه المثل الكامل، ويحاول جهده أن يمثله خير تمثيل.

سادسها: أداء النصيحة بالرفق واللين، لأن الغلظة والقسوة والفظاظة تنفر القلوب، وتبعد عن الخير، وهذا ما عرف عن الإمامين في صلتهم مع طلبة العلم وهواة المعرفة وعامة الناس، وليس أحد في الدنيا إلا وهو معرض للخطأ والغفلة، والزلل والانحراف، فتقويم ذلك لا يتأتى إلا لمن أوتي عقلا بصيرا، وحكمة في المعالجة والمناصحة!

سابعها: شعورهما بخطر المسؤولية أمام الله تعالى وتجاه الأمة، وتجاه أجيال الغد، وقد كان الإمام ابن باديس يقول لجلسائه في مناسبات مختلفة: «إن علينا أن نشق الطريق ونعبد منها ما استطعنا لجيل الغد، حتى لا يرمينا بالتقصير في القيام بواجبها نحوه، إذ لو استمر أوائلنا في سيرهم على النهج السوي لما حدث لهم من الانحراف ما عطل سيرهم، وعجل بانحطاطهم، وصير الأواخر عاجزين عن تدارك الأمر بما يربط بين حلقات التاريخ المتقاطعة، ويجعلهم قادرين على استئناف المسير.. ولو قام الجيل الذي سبقنا مثلا بما أنجزناه اليوم من أعمال أو ما نحن

بصدد إنجازهِ، لقمنا نحن بشيء آخر، مما يدفع عجلة التاريخ من الأعمال إلى الأمام»⁽¹⁾.

وبذكر الإمام إبراهيم بيوض -وهو يصور خطر المسؤولية- أنه لما توفي شيخه المصلح. وشيخ عامة الطلبة بالمنطقة الأستاذ الحاج عمر بن يحيى المليكي في شهر جويلية سنة 1921م عم المنطقة حزن عظيم، وشعر المتعلمون بالخصوص بزلزال عنيف شلّ عقولهم، وبلبل أفكارهم، وعقد ألسنتهم، ولكن الشيخ بيوض لم يكد المشيعون لجثمان الشيخ يعودون من المقبرة حتى قام فيهم خطيبا وقال: «إن الموت مكتوب على كل أحد وأن الشيخ له أجل محدود وهذا أجله، وقد اختاره الله لجواره ولكن اعلّموا أيها الطلبة كبارا وصغارا من مختلف الطبقات أنكم لم تفقدوا من الشيخ إلا شخصه⁽²⁾ ومنذ ذلك الحين أخذ على عاتقه المسؤولية فنهض بالتعليم خير نهوض، وبدأ التفسير مستعينا بالله، مقدر للرسالة المقدسة التي على عاتقه مؤمنا بنجاحه فيها، لأنه انقطع إليها يؤديها بكل محبة وإخلاص ورغبة في النفع والإفادة، وكان إلى ذلك يصلي بالناس ويفصل قضاياهم، ويحكم بينهم بالعدل!

ثامنهما: كلاهما -ابن باديس وبيوض- يتمتع بالروح الوطنية العالية ويرى في جزم ويقين أن الشعب الذي يجعل من عقيدته وإيمانه، ومن حرصه على سلامته وكرامته جيوشا وقلاعا حصينة ترد كيد الكائدين، وتقمع أطماع المتربصين، هو شعب بطل على الدوام قادر على تغيير الحياة تغييرا أساسيا في اتجاه آماله الفسيحة العريضة.

(1) عن أوراق للمرحوم الشيخ باعزیز بن عمر سجلها عن شيخه الإمام عبد الحمید.

(2) في رحاب القرآن، نشر جمعية التراث ص 72.

تاسعها: هناك صفة تجمع بين هذين الإمامين وتكاد تكون الصفة المميزة للزعماء والمصلحين في المشرق والمغرب -بالخصوص- الذين قاوموا أساليب الاستعمار ومكائده، وحاولوا تحرير العقول والعقائد من نزعات الجمود والركود، والانطلاق نحو آفاق الحرية والعلم واليقظة والرقى، هذه الصفة هي الجاذبية وقد عبر عنها الأستاذ العقاد فيما كتبه عن المصلح جمال الدين الأفغاني (بالمغناطيسية) وقال فيها بالخصوص: «ولولا المغناطيسية الشخصية ما كان الملوك والأمراء يقبلون من جمال الدين أن يخاطبهم، في قصورهم مخاطبة الند للند، والزميل للزميل... ولولا المغناطيسية الشخصية ما كان جمال الدين مستطيعا أن يجوب الآفاق بغير مال... هذه المغناطيسية الشخصية كانت قوة جمال الدين الكبرى، وكان قوامها الأكبر ثقة بالنفس لا تحد وإيماننا بالحق لا يتزعزع»⁽¹⁾.

فلولا هذه الجاذبية أو المغناطيسية لما وقف الإمام عبد الحميد تلك المواقف الشجاعة التاريخية تجاه فرنسا وضد المستعمرين، ولما كانت منه تلك الكلمات التي تتلظى نارا ولم يكن وراءه جيش ولا قوة إلا إيمانه بربه، وثقته في نفسه، وعدالة قضيته. فهاك -قارئ الكريم- مثلا من تلك المواقف وكلمة من تلك الكلمات:

«اسمعوا، إننا لن نرضيكم أبدا، وأننا لن نعمل على إرضائكم، إننا لن نخشاكم أبدا، ولن نعمل عملا يوقعنا تحت طائلة أيديكم، نحن سائرون على منهاجنا، وفي طريقنا، لا يضرنا صراخكم، ولا ينفعنا سكوتكم، فقولوا ما شئتم، فلن تتألوا منا منالا، ولن نتزعزع عن عقيدتنا، إنما

(1) منبر الإسلام ع3 س3 ربيع الأول 1393 هـ.

ننصحكم نصيحة خالصة أن لا تعودوا لمثل هذا العمل الممقوت، فسياسة وخز الدبابيس تنتهي غالبا بفقد الشعب لصبره، وإخراج الحليم عن حلمه، وإننا لنسد في أوجهكم هذا الباب إلا إن كسرتموه، والأمر بعدئذ لله»⁽¹⁾.

وهذه هي مواقف ابن باديس ومواجهته الصريحة الشجاعة سواء أكان ذلك ضد فرنسا المستعمرة أم ضد أذنانها وعملائها.

والإمام بيوض على هذا الدرب الصاعد الذي لا يسير فيه إلا ذوو العقيدة الراسخة، والإيمان القوي، والهمم العالية، الذين لا يرون العز إلا في نصرة الحق، ولا يرون الموت في الجهاد بالكلمة إلا حياة كريمة ومجدا شامخا، فمن عاد إلى حياته الإصلاحية والجهادية وقف في ذلك على صفحات وضیئة مشرقة يزهو بها تاريخ الجنوب بل تاريخ الجزائر كلها.

ومن عرف شخصية الإمام في ضوء الوثائق السرية الفرنسية التي هي وراء البحار أدرك خطورته على الاستعمار الفرنسي وعلى سياسته التخريبية والتدميرية في الجزائر، وأدرك بالتالي سر قدرته على المواجهة والتحدي وعرف أيضا أن المغناطيسية هي قدر مشترك بين جميع رجال الدعوة والحركات الإصلاحية في العالم العربي والإسلامي.

(1) الشهاب ج 12 م 11 غرة ذي الحجة 1354هـ، مارس 1926م.

■ تكريم العلامة الشيخ محمد المكي الناصري:

● تمهيد:

من أبرز صور التكريم العلمي في المغرب الشقيق، وأصدقها دلالة على مكانة المكرم بين العلماء، وتعبيرا عن مشاعر المحبة والتقدير نحو من تنكر لذاته وآثر خدمة وطنه ودينه ولغته على نفسه وأسرته، تكريم الأديب الظريف الشاعر الملهم العالم المفسر لكتاب الله تعالى الأستاذ الشيخ محمد المكي الناصري!

لقد أدرك ذوو الفضل فضله، ورأوا أن المعنى الذي يبدر إلى ذهن من تكريمه، ماضيه المشرق بجلال الأعمال، وتاريخه الحافل بالجهاد العلمي المتواصل، وشخصيته القوية التي تقوم على رزانة الحكيم، ووقار الحليم، واستقامة المنطق، وخصوبة ذهن، وسعة الاطلاع، وحدة النشاط، وغزارة العلم!

فارتأوا أن يذكروا بهذا الفضل ويلفوا إليه الأنظار، ويجمعوا عليه القلوب والمشاعر، حتى لا ينسى الناس هذا الفضل وحتى يكون لهم حافزا ودافعا إلى الأمام في طريق العلم والمعرفة، في طريق الجهاد الوطني والديني، ومن أجل التغيير إلى أفضل وأحسن في مختلف مجالات الحياة!

ولاشك أن من سعادة أمة ما، أن يكون فيها رجال عظماء، يفجرون الحياة، ويضيئون الطريق، ويقودون برشد وحكمة، ويوجهون بنزاهة، ويرسمون عن هدى وبصيرة، وهؤلاء هم عناوين أممهم البارزة العريضة، والشواهد الدالة على أن أممهم قابلة للتقدم والتطور، شريطة الاقتناع ثم الاقتداء والاهتداء! ولتحقيق هذا الغرض النبيل، وهذه الرغبة الكريمة (نظمت جمعية العلماء خريجي دار الحديث الحسنية بتعاون مع وزارة الأوقاف والشؤون

الإسلامية في نطاق موسمها الثقافي عام 1408هـ، 1988م الحلقة الأولى من سلسلة التكريم التي قررت تنظيمها لمن حملوا بأمانة وجدارة مشعل العلم والمعرفة من الشيوخ الرواد الذين اضطلعوا بمهمة التأطير العلمي بدار الحديث الحسنية التي أقامها أمير المؤمنين الحسن الثاني لبعث الدراسات الحديثية وإحياء السنة النبوية والعلوم الدينية التي كان الغرب الإسلامي موطنها لها ودارا⁽¹⁾.

والحلقة التكرمية الأولى للجمعية خاصة بالعلامة الشيخ المكي الناصري، وقد دارت أشغالها بدار الحديث الحسنية على مدى يومين، وحضرها جمع غفير من العلماء والأدباء وطلبة العلم، والشخصيات الرسمية.

وتضمنت الجلسة الافتتاحية كلمة وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية الدكتور عبد الكريم العلوي المدغري الذي افتتح أشغال التكريم، وكلمة مدير دار الحديث الحسنية الدكتور محمد فاروق النبھاني، وكلمة الكاتب العام لجمعية العلماء خريجي دار الحديث الحسنية الدكتور محمد يسف، وكلمة مؤرخ المملكة الأستاذ عبد الوهاب بن منصور⁽²⁾، وكلمة مدير التعليم الأصيل والكاتب العام للمجلس الأعلى للمجالس العلمية الأستاذ محمد الحجوي الثعالبي، وكلمة رئيس جامعة العرويين الدكتور مولاي إدريس العلوي العبدلاوي. وكلهم نوهوا بهذه السنة الكريمة ومن ابتدعها أو دعا إليها وشجع عليها، وجسموا ما ينجر من ورائها من ثمار طيبة، ونتائج حسنة لا سبيل إليها إلا هذا التكريم من الوفاء للمكرم، والحفز للهمم، وتحري النسيان.

(1) منشورات جمعية العلماء، خريجي دار الحديث الحسنية.

(2) هذا جزائري هاجر إلى المغرب في الخمسينيات.

● لقطات مما قيل في الحفل:

وهذه فقرات من كلمة الافتتاح التي ألقاها وزير الأوقاف والشؤون الدينية الدكتور عبد الكريم العلوي المدغري وكلمات الخطباء الآخرين:

«إنه ليوم مبارك سعيد هذا الذي وفقنا الله فيه لتكريم رجل من عظماء الرجال، شيخنا وأستاذنا سيدي محمد المكي الناصري، إن هذا التكريم في الواقع ليس تكريما لشخص، وإنما هو تكريم لمدرسة وفكر ومنهج وسلوك، إنه تكريم للمدرسة الإسلامية برسوخها في الماضي ونجاحها في القرن العشرين، وصلاحياتها للمستقبل. تكريم لفكر ومنهج وسلوك، قائم على مبادئ الإسلام وقيمه ومكونات الشخصية المغربية الفذة وعلى ذاتية متشعبة بروح إنسانية نادرة، فأستاذنا الشيخ سيدي محمد المكي الناصري، رجل الوطنية التي وقفت في وجه الاستعمار وقوف المجاهد الصبور، نبع عمله من الحماس والحكمة، ومن التضحية والبصيرة المتقدمة مع الإخلاص والصدق والروح العالية التي تسمو على النظرة الحزبية الضيقة، وبعد الاستقلال ضرب الشيخ سيدي محمد المكي الناصري مثلا عاليا في ترجمة وطنيته إلى تجند دائم للعمل في سبيل بناء المغرب ونمائه ورحابه وازدهاره».

وبعد أن تحدث الوزير عن الجانب العلمي في شخصية المحتفل به، وعن نشاطاته العلمية الدائبة داخل المغرب وخارجه. وعن أعماله الفكرية البناءة في مختلف المجالات، قال:

«لا أستطيع أن أتحدث عن أعماله العلمية، ولكن أريد أن أسجل أن فضيلته خدم الدراسات الإسلامية خدمة جلية، إذ حببها إلى الناس بأسلوبه المشرف، وعباراته العذبة، ومنهجيته العلمية الأنيقة، وكانت

هذه الطريقة لا تتوفر عند كثير من العلماء، فهذه إضافة تذكر لفضيلة الشيخ سيدي محمد المكي الناصري الذي جمعت طريقته بين القديم والحديث، وكانت دراساته ومحاضراته تعرض الشريعة الإسلامية في أسلوب شيق رائق، يعجب الجميع، ويحبُّ إليه الجميع، ويدفع الجميع للمزيد من الأخذ من هذا العطاء الفياض⁽¹⁾.

ثم توالى الخطباء وتعاقبوا على المنصة في مختلف الجلسات المفتوحة وتبارى الشعر والنثر في إبراز معالم شخصية الأستاذ المحتفل به، وكل من اعتلاها قد تهيأ نفسياً، واستعد فكرياً ليقول، لأن الرجل الذي يقول فيه ما يقول، جدير بكل قول جميل، وجدير بأن تضافى عليه أوصاف التقدير، ونعوت الاحترام والتبجيل، وإنما يُربك الكاتب أو الخطيب تكلف القول حينما يعز القول، ومحاولة التحليق عندما يهيض الجناح!

وإذا كان عرض فقرات وقطع شعرية من كل ما قيل يوسع المجال، ويمدد الحبل، فلا أقل من عرض بعض ما يضيء جوانب شخصية المحتفل به أو يفتح الأعين على أهمية التكريم ومشروعيته ومصادقته حتى يكون صادق الدلالة، واسماً على مسماه!

قال الدكتور محمد يسف الكاتب العام لجمعية العلماء خريجي دار الحديث الحسنية:

سنفرد لكل علم من أعلامنا حفلة تكريمية خاصة تكون مناسبة لإبراز معالم فكره، وعرض منهجه وطرائقه، وإظهار مزاياه وخصوصياته، وصلاً لحاضر الأمة الطارف المتجدد، بماضيها المجيد التليد، وتأكيداً

(1) منشورات جمعية العلماء، خريجي دار الحديث الحسنية، سيرة الشيخ محمد المكي الناصري، ص 11 و 14.

على أن عطاءها ظل على امتداد الزمن عطاء غير مجذوذ، متميز بالأصالة والشموخ، وجمالية العرض، وعمق الرؤية، ودقة الاستنساخ مع روعة الابتكار، وجدية الإضافة⁽¹⁾.

ثم تحدث الخطيب عن معنى التكريم ومناطه ومقاصده ومذاهبه.

وقال الدكتور محمد فاروق النبهان مدير دار الحديث الحسنية:

«.. وحفلات تكريم الرجال هي اعتراف بدورهم في خدمة أمتهم، والأمة التي تكرم علماً من أعلامها فإنما تكرم في نفس الوقت تاريخها المجيد، وتعاهد نفسها من خلال حفلات التكريم أن تكون وفية لتاريخها وتراثها وأرضها وقيمها.

ثم تحدث الأستاذ فاروق عن ملامح شخصية المحتفل به وحددها في هذه المعالم:

1- وضوح الاعتزاز بالعقيدة الإسلامية.

2- الاعتزاز بشخصية العالم، والأستا الجليل...

3- الالتزام بالسلوكية الإسلامية سواء في مجال الفكر، أو في مجال العمل السياسي...⁽²⁾

وقال الأستاذ عبد الوهاب بن منصور مؤرخ المملكة:

من علامات رشد الشعوب وكرم طباعها اعترافها بالجميل لمن قدم لها خيراً، أو أسدى إليها معروفاً، فليس من المروءة ولا من حميد السجايا أن يقضي امرؤ حياته في جلب المصالح لشعبه، ودرء المفسد عنه وخدمته

(1) المصدر السابق ص 24 - 25.

(2) نفس المصدر ص 31 - 34.

بعلمه أو ماله أو جاهه وبدنه، ثم يخرج من الدنيا دون أن يكافأ ولو بعبارة إشادة وكلمة تتويجه منحسرا يتمثل لسان حاله بقول الشاعر:

لقد عهدتك بعد الموت تندبني وفي حياتي ما زودتني زادا
ثم استعرض الأستاذ عبد الوهاب صورة عن معرفته الأولى بالأستاذ المكي الناصري، وهي معرفة غيبية روحية مضى عليها أكثر من نصف قرن، وذلك عن طريق كتاب (الأدب العربي في المغرب الأقصى) لمؤلفه المرحوم محمد بن العباس القباج حيث أنه قرأ في جزئه الثاني الخاص بتراجم شعراء المغرب ترجمة الأستاذ المحتفل به وقصائد من شعره وهي كما ذكر ثلاث:

أولاها قصيدة في تعظيم كتاب الله وتمجيده مطلعها:
الله لا يرضى لأمة أحمد إلا طرائق للعلا والسؤدد
هذا كتاب الله يدعونا إلى سبل الرشاد ونصح كل موحد
وثانيهما حماسية يستنهض بها أبناء وطنه ويحثهم على بناء ما تهدم من أمجاد، وعلاج ما أصابهم من علل وأدواء مطلعها:
حق البلاد على بنيتها حق يقدرسه الإله
حتى متى وبنو البلاء د على قداستها جناه
مجد تهدم، هل له من بينكم قوم بناه
وثالثها وطنية عبر فيها وهو في مصر عن حنينه إلى وطنه، واعتزازه به، وإيثاره على ما عداه من أوطان وفيها يقول:

أنا في مصر وقلبي أبدا ثم مقيم
إن يهمل بالنيل قوم فبوديانني أهيم⁽¹⁾

(1) المصدر السابق، ص 38.

وقال الأستاذ محمد الحجوي الثعالبي مدير التعليم الأصيل:

«إن سماحة العلامة الكبير الشيخ محمد المكي الناصري لقمين بكل تكريم وتبجيل، وجدير بكل إجلال وتقدير لما تمتاز به شخصيته المتعددة الجوانب من رسوخ في المعرفة، واطلاع واسع، وقدرة فائقة على التبليغ بمنهجيته المعروفة، وفصاحته المعهودة، فهو الأستاذ الجامعي المثالي، وهو الباحث القدير، وهو المحدث المبدع، وهو الخطيب المصقع، وهو الوطني الغيور، والزعيم المشهور، وهو المفسر لكتاب الله على أمواج الإذاعة الوطنية، وهو رئيس المجلس العلمي للعدوتين، وهو عضو مجلس الوصاية، وهو عضو أكاديمية المملكة المغربية.. إلى غير ذلك من الجوانب العديدة التي سيتحدث عنها السادة المشاركون في هذا التكريم ببحوثهم المستفيضة⁽¹⁾.

وقال الدكتور مولاي إدريس العلوي العبدلاوي:

إن اسم أستاذنا الشيخ الجليل يرتبط بكثير من الأحداث الخاصة والعامة التي أسهمت في تعميق فكرة الوحدة العربية والإسلامية في بناء المغرب، وأثرت أبلغ التأثير في تنسيق الصلات الروحية والفكرية بين أقطار الإسلام⁽²⁾.

وقال الأستاذ محمد العربي الخطابي، سفير ووزير سابق:

إن تعاليم الإسلام هي الدعامة التي ما فتئ الشيخ المكي يستند إليها منذ شبابه في سعيه وجهاده، ولقد كان دائما مثال الزعيم المؤمن بحيوية الإسلام وقابلية أبنائه للتجديد، وهو بذلك من أفذاذ هذه الأمة الذين

(1) المصدر السابق ص 44.

(2) نفس المصدر ص 43.

توافرت لهم شروط الريادة كالعلم والعمل، ونفاذ البصيرة، ورحابة الفكر، مع النزاهة والاستقامة، والثبات على الحق، وهو المربي الصالح الذي أفاد أجيالا من بني أمته، لا بما فتحه أمامهم من آفاق التعليم والتثقيف والتثقيف فحسب، بل بالقدوة الصالحة أيضا، ذلك أننا عرفناه في تطوان -كما عرفه غيرنا في كل مكان- سليم العقيدة، متميز الخلق نزيه السعي، عزوفا عن الصغائر، كثير الصبر، وفيا لتلاميذه وأصحابه وصحبته⁽¹⁾!

وقال الأستاذ محمد العثماني الأديب المفكر:

قد كنت قبل الاستقلال من الذين تمنوا أن توظف كفاءته وحركته في ترشيد الوعي الشعبي بكيفية أفضل، ولكنه بذل أقصى جهد لأعلى واجهتين: واجهة التوعية الوطنية، وأخرى لنشر الوعي الفكري مجلة وجريدة، كتابا وخطابا، ناديا ومعهدا، فهو العالم الذي أدى واجبه العلمي، والمناضل بالكلمة الرشيدة يوم كانت الكلمات تساوي القنابل والصواريخ، والوطني الرزين الذي يعرف كيف يواجه الأزمات ثم يخرج منها بأقل الخسارات⁽²⁾.
وختم خطابه بقوله:

كان لأستاذنا محمد المكي الناصري أعمال كثيرة منشورة لا يتسع الوقت لذكرها والتعليق عليها ويكفي أن نذكر العمل العظيم الذي توج به إنتاجه العلمي والفكري وهو تفسير كتاب الله بمنهجيته الخاصة، وتسجيله بصونه المؤثر... فهنئنا لأستاذنا بهذا التوفيق، وهنيئا له مرة أخرى بهذا التكريم⁽³⁾.

(1) المصدر السابق ص 70.

(2) نفس المصدر ص 70.

(3) نفس المصدر ص 28 - 89.

وقال الدكتور عباس الجراري أستاذ التعليم العالي بكلية الآداب بالرباط:

من هذه التجربة الغنية تقلبه في بيئة ثقافية، المحيط الأسري العلمي والديني الذي نشأ فيه، تشبعه بثقافة متميزة- تشكلت في ذهن الطالب الناصري صورة النموذج الذي يتوق إلى اقتفائه ويكاد إنتاجه في هذه المرحلة المبكرة أن يكون دالا على الهم الذي كان يشغله، والطموح الذي كان يسعى إلى تحقيقه، ويكفيني في هذا العرض الوجيز أن أشير منه إلى قصيدة قالها سنة 1923 يستنهض بها أبناء وطنه، هذه بعض أبياتها:

إلى المعالي هلموا يا بني وطني
واستيقظوا عاجلا من غفلة الوسن
قوموا انشروا العلم ولتهدوا نفائسكم
في نشره بالقرى فضلا عن المدن
لا تبخلوا أبدا في نشره ودعوا
تقليد أهل الهوى والجهل والإحـ
هذي بلادكم قامت تصيح فهل
من وثبة أم فقدتم نعمة الأذن
تصبح من كمد كادت تصير به
حبيسة القبر بين اللحد والكفن
إلى متى وهي تدعوكم ولا أحد
يُجيب دعوتها بالروح والبدن

وختم خطابه الاستعراضي التحليلي بقوله:

وبعد فهذه -أيها الأصدقاء- جوانب من جهاد فضيلة الأستاذ الناصري حاولت عرضها باختصار في خطوطها العريضة اعتمادا على مواقفه وإنتاجه، وانطلاقا مما يكشفه تاريخ المرحلة وفي ضوء اتصالي ومعرفتي الشخصية به صديقا ورفيقا لوالدي -رحمه الله- وزميلا لي في أكاديمية المملكة المغربية والمجلس العلمي للعدوتين، ثم أخا كبيرا أعتزّ به وأفتخر⁽¹⁾.

وقال الأستاذ أبو طاهر آل عزيز، نائب برلماني سابق:

وجه صبيح، وعقل صحيح، ولسان فصيح، وصدر فسيح، ونسب صريح، كان في سبيل الوطنية الإسلامية منافحا، وعن قضية بلاده مكافحا، يمتطي بقلمه والقرطاس ما حقق كثيرا من الآمال، وأكرم القصد وعجل المراد.

وبعد أن تحدث بإسهاب عن رحلاته العلمية والأدبية في مختلف المجالات والجرائد وقاعات المحاضرات، ورحاب المساجد، وجهاده المتواصل في سبيل الإسلام والعروبة والمغرب العربي، قال:

تطول القائمة، ويطول الحديث، وتتنوع أمام المستقصى عبقرية الرجل لأنه خلق عالما جديدا في تطوان، وآخر في طنجة حتى إذا أشرقت شمس الحرية والاستقلال اختار مسقط رأسه الذي أبعد عنه سنين طويلة مقرا وسكنا، ولعل الرجل بعد ذلك لا يحتاج إلى من يحصي أعماله في الرباط لأن العهد قريب والتاريخ حديث⁽²⁾!

(1) المصدر السابق ص 93 - 103.

(2) المصدر السابق ص 114.

وقال الأستاذ عبد اللطيف أحمد خالص الشاعر الأديب:

بعد أن تحدث بإسهاب عن منابع ثقافة المحتفل به، وعن جوانب متعددة من شخصيته، كالجانب النظري، والجانب العلمي:

«ومن أطف الأمور التي يقف عليها الدارس وهو يتتبع شخصية المحتفل به، استمرار في فكره المتوثب، وتواصل في عمله الدؤوب، دون تتكر أو نشاز في الخلية الفكرية التي يتمتع بها، والعقلية التي يسير على نهجها منذ أوائل القرن العشرين إلى آخره لم ينل منها كرامة الغداة ولا مر العيش رغم كبر سنه، ورغم ما عايش من أحداث جسام، وما لقي في طريقه من عقبات كأداء، كان خصومه السياسيون ومن لا يشاركونه في الرأي والاتجاه يتفننون في وضعها أمامه لرده عن النهج الذي اختار السير فيه⁽¹⁾.

وتواصل فيض الخطب في التنويه بشخصية الأستاذ المكي الناصري، والتذكير بمجالات جهاده الفكري والقلمي طوال أكثر من ستين سنة، ولا يتسع المقام لعرض فقرة أو فقرات من كل خطاب من تلك الخطب، وحسبنا ما قدمنا في هذا الجانب.

وفيما يلي قطع شعرية من بعض القصائد التي ألقيت في هذه المناسبة حتى نكون قد وفينا ببعض ما يجب أيضا نحو بعض الشعراء ومن أراد الاستقصاء والتوسع فعليه بالسفر القيم الذي أصدرته (جمعية العلماء خريجي دار الحديث الحسنية: سيرة الشيخ محمد المكي الناصري شهادات ووثائق عن حياته وجهاده في خدمة العلم والدين والوطن).

(1) المصدر السابق ص 128.

قال الشاعر الأستاذ محمد العربي الشاوش:
أمجد فيه العلم والفكر والنبلا
أمجد فيه الروح والعقل والفضلا
أمجد في شيخ الشيوخ نضاله
وقد خاض فيه الهول والوعر والسهلا
فناضل من أجل السيادة تارة
وطالب في الأخرى التحرر والعدلا
ومن أجل نشر العلم سَهَّد جفنه
فعَلَّم أجيالا، وكان لهم خلا
وعَلَّمهم أن العلوم وسيلة
إلى المجد والتحرير والنهضة المثلى
فلا خير في عيش بدون سيادة
ولا خير في شعب إذا رضي الجهلا
* * *
سَلُّوا كتلة قومية وطنية
عن "المكي" المقدام كيف انتضى النُّصلا
فكان إلى حقل النضال مبادرا
مع النخبة الأولى، وكان لهم عدلا
وأصبح للشعب المكافح قدوة
وما انفك بالتوجيه يصقله صقلا

ولقَّنه أن الكفاح ذريعة
إلى العزة القعساء والرتبة الفضلى
فكون أفواجاً تفيض حماسة
قد استوعبت مضمون رأيه والشكلا
وكان خطيباً في المحافل مصقعا
ويهتز بالتصفيق من سمع القولا
وكان سراجاً في الصحافة لامعا
يحرر في السياسة البحث والفصلا
فأملى بإسهاب خلاصة مهجة
بدقة تحرير، ووثق ما أملى
وأيقظ أفكاراً بوحى يراعاه
وقاد إلى الأمجاد من أنف الذلا
ثم يقول:
وعاد إلى العلم الشريف مكرماً
إماماً وأستاذاً، ومن ذا بهذا أولى؟
هو السيد الغطريف ذو المجد والحجى
هو إلا لمعي اللوذعي، وما استعلى
«هو البحر في أحشائه الدرُّ كامن»
فلله ما أعطاه من درر نفلا

فقيه نبيه، عالم متبحر
ووارث هدي الرسل فضلا من المولى
سما في سماء العلم حتى كأنه
ذُكاء أشعت تُنعش النفس والعقلا
فكرس للتدريس والبحث وقته
ولم يسترح جسما وفكرا، وما مالا
وخرج من "دار الحديث" وغيرها
أساتذة، والفرع قد يشبه الأصل
فلله در "الناصري" فما رأى
لييب له في وقته أبدا مثلا
فإن ذكر اسم "الناصري" قفوا له
وكرموا فيه العلم والفكر والنبلا
ومجدوا فيه رائدا ومناضلا
رصينا، فريدا في مواهبه الجللى
إلى أن يقول:
مدحتك يا شيخي بكل تواضع
وما أنا مداح ولا مطنب، كلا!
بأي بيان يمدح المرء شيخه
وقد أسبغ المولى عليه به النحلا

فنال به حظا من العلم وافرا
ونال من الفكر الحصيف به كفا
فلو كنت مداحا نظمت مدائحا
من اللؤلؤ اللألاء في مدحه تتلى
ولو صغت مدحي من نضار ولؤلؤ
لكان زهيدا، إذ مناقبه أغلى
ولكنني شخص نزيه ومنصف
أسجل "للمكي" ما قل أو جلا
مدحته تكريما وحباً لأنني
وفي لأستاذ عرفت له فضلا
وذو الفضل لا يبخل بحسن ثنائه
على من له فضل عليه وإن قلا
ولا خيل عندي أو سبائك عسجد
فأهدي له تلك السبائك والخيلا
ولكن، بديل التبر، عندي عواطف
وفيض بيان كالغمام إذا انهلا
فحسبه مني أن أشدت بفضله
وأهديت تقديري وشكري له قولا
أدام له المولى حياة سعيدة
وعافية موصولة أبداً وصلاً

وأبقاه للعلم الشريف منارة
تضيء بنور الله في أرضه السَّبَّلا
ودام له العز المنيف ملازما
ودامت له الأيام كالروض مُخَضَّلا

وقال الشاعر الأستاذ عبد الغني سكيرج:
شائقٌ، راقه المسير، فسارا
وتمني، لو يستطيع ادِّكارا !
سائر، يسأل المفاوز والقفر،
إذا القفر أفقر الأفكارا !
شارد اللب، حائرا، ليس يدري
أيوافي، أو أن يَرُدَّ اعتذارا ...
يطلب الشيق الجميل من القو،
ل يُرضي الإجلال والإكبارا
يسأل الماضي البعيد عن الجهد،
إذا الجهد حالف الأقدارا

وقال:

أُتْراه يصيب منه القوافي
أم يلاقي الأهوال والأخطارا
ولقد تشتفي النفوس من القو،
ل وقد لا تُجيد إلا اعتذارا !

والذي يبعث المسرة لاعد

ر، لمن فيه يخلق الأعذارا

وقال:

صاح، خل الونى، وخل الهوينى

ما أبى طيعا، يجئك اقتسارا !

وامض للفاره المريح من الشعر،

يزين الأسماع والأبصارا

وازو للسامعين كل عجيب

واسق للوافدين منه عقارا !

أو لسننا هنا نكرم ضيفا،

أو لسننا هنا نشرّف دارا؟

فخليق أن ينتشي كل صب

وجدير بأن يزيح العذارا !

أو ما نحن أمة العرب نقري

-كرما- ضيفنا، ونحمي الجارا؟

أو ما قد سمعت طالب مجد

يعتلي شامخا ويوقد نارا؟

يجتدي الوافدين من كل صقع

علّ في الوافدين شهما زارا

لَمْ لَا نَقْتَدِي بِكُلِّ كَرِيمٍ

عَزَّ فِيهِمْ، أَوْ نَصْطَفِيهِ شَعَارًا؟

وقال:

والذي جاوز المعالي جدير

أَنْ يُفَدَّى وَأَنْ يَنْالَ اعْتِبَارًا !

ما رأينا "كالناصرى" مثالا

أَوْ لَنَا مِثْلُهُ يَشِعُّ مَنَارًا !

وطنِيَّ، جَهْدًا، وَكِدًا، وَوَدًا،

وَنُضَالًا، وَحَنَكَةً وَاقْتِدَارًا !

كافح الضيم، قاوم الظلم، نادى

بالذي أيقظ الغُفَاةَ الحيارى...

لَقَّنَ الدرسَ عالمًا، رَوَّضَ الفِكَرَ

—ر، وخاض النضال، رَدَّ فَخَارًا !

عالم، جائل، مشِع، غيور

نَوَّرَ الفِكرَ، دَرَّسَ الآثَارَا

شاعر بالخفيِّ، إِنْ حَمَلَ الطَّر

س، لِيَرْقَى، أَوْ زَحْزَحَ الأشْعَارَا

جوهريُّ اللسان، إِنْ فَاهَ يَوْمَا

لَوْلَوْيَّ، إِنْ فَسَّرَ الْأَسْفَارَا !

لوذعيّ، مجدّد، عبقرى
كاتب، ناثر، يبرز حوارا
قائد همه الوحيد من (الحزب)
اتحاد، لا يمنة أو يسارا...
بعث النخبة الزكية للشر
ق، فعادت تُبدد الأنوارا
من بقايا الرموز، والشُّم، يبدو
شامخا جلّ، يحمل الأسرارا
إلى أن يقول:
لا تخالوا أني جريت مع الشع
ر أو أنّ الخيال فيه استطارا،
لم أقل فيه بالذي ليس فيه
أو أزد ما أقوله استكثارا،
إنما قلت ما علمت وحسبي
إن أُطل، زدت فيه اختصارا...!
ليس بدعا أن يجمع الله في المر
ء شتاتا، أو يقتضي استنكارا!
والذي يمتطي المحجة للمجد،
يلاقى التمجيد والإكبارا!

أَوْ مَا قَدْ سَمِعْتَ قَدِّمًا مَقَالًا

فِيهِ ذِكْرِي لِمَنْ يُوَدُّ اذِّكَارًا ؟

«يَحْمَدُ الْقَوْمُ فِي الصَّبَاحِ سُرَاهِمَ»

وَهَنِيئًا لِمَنْ عَلَى الدَّرْبِ سَارًا !!

أَيُّهَا الْمَاجِدُ الْمُحَنَّنُ، مَرَحَى

ثُمَّ مَرَحَى، تَعَادَ فِيكَ مَرَارًا

لِيَكُنْ شَخْصُكَ الرَّفِيعَ مَثَالًا

وَلِيَدُمَّ ظِلُّكَ الْمَشْعَ مَنَارًا

إِنْ نَكَّرِمَ عِلَّاكَ فِينَا نَكَّرِمَ

نَفْسَنَا كِي نَنَالَ مِنْكَ فَخَارًا !

وَقَالَ الشَّاعِرُ الْأُسْتَاذُ عَبْدُ اللَّطِيفِ أَحْمَدُ خَالصٌ:

هَنِيئًا لِحَفْلٍ بِالْمَكَّارِمِ زَاهِرٍ

وَجَمْعٍ غَنِيٍّ بِالنَّجُومِ الزَّوَاهِرِ

فَأَنعِمْ بِهِ حَفْلًا لِتَكْرِيمِ سَيِّدِ

كَرِيمِ السَّجَايَا فِي سَمَوِ الْعُنَاصِرِ

وَأَكْرِمْ بِحُشْدٍ بِالْوَفَاءِ مُصَبِّحًا

مَشِيدٍ بِفَضْلِ النَّاصِرِي مُفَاخِرِ

فَفِي الْمَغْرِبِ الْأَقْصَى جَهَابُذَةُ دَعَا

إِلَى الْحَقِّ وَالْعُرْفَانِ دُونَ تَفَاخِرِ

وكم في رباط الفتح من علم علا
منابر هدي للشرعية ناصر
وكم في رباط الفتح من علم ثوى
له في فنون القول غر الجواهر
فلا غرو أن تغشى المحافل فتية
تهز بهذا الحفل حر الضمائر
وتقدر أرباب النهى وتجلّهم
وتفخر بالأعلام ركب المفاخر
وما شيخنا (المكي) إلا مواهب
يمنُّ بها الرحمن مبدي السرائر
وقال:

ولا عجب أن قام في الشعب فتية
وشدوا عليه دائما بالخصاير
وما شيخنا المكي إلا نموذج
تفجر علما كالبحار الزواخر
فقد دأب المكي في كل مجمع
يذود عن الإسلام كل مكابر
ويُلقي على الدين الحنيف أشعة
تصدُّ كلام الملحدين الأواخر

وتعطي عن الإسلام أجمل صورة

تفتق أذهان الشباب المعاصر

حضارتنا الغراء جدد أمرها

بفضل حكيم للرقى مسائر

نفضت غبارا كاد يطمس نورها

وأظهرتها كاللؤلؤ المتناثر

محوت طلاء كاد يغشي بريقها

فتاهت سرورا كألحان الغرائر

وقدمتها في زيّ شاب مرونق

«أشاقته أخلاق الرسوم الدوائر»

وقال:

كسبت علوم الأولين بحكمة

ونلت علوم العصر دون تنافر

وقد كنت في هذا التلاحم زاهيا

بما شئت من علم عهد وحاضر

فليس اجتاراً أن تصان شريعة

وليس من التكرار نبذ المناكر

وليس من التقليد حفظ عقيدة

وليس من التجديد نكر المآثر

مواهبه شتى ومسعاها واحد
ومقصوده في الدين درء المخاطر
فإن له في الدرس دور مفكر
وإن له في العلم دور محاضر
وإن له في الشعر وشيا منمنما
وإن له في النشر أسلوب شاعر
وبالمجلس العلمي أدى رسالة
تلقفها أهل النهي بالبشائر
وفي حضرة السلطان تحظى دروسه
بعطف ملك للعلوم ومناصر
ومن يقدّر الأعلام مثل إمامنا
وينزلهم أعلى الذرى والدساكر؟
ويرفع بين العالمين مقامهم
ويدعمهم دعم العليم المؤازر؟
فلا غرو أن تنهال منه فضائل
وتشملهم خير اللها والذخائر
أدام علاه الله بين رعيّة
وأبقاه ذخرا للورى والمعاشر

وقال:

فيا شيخنا المكي واصلُ مساعيا
وحرر من الأوهام عقلا وبادر
فقد عم بين المسلمين تناحر
وليس بخاف عنك داء التناحر
ففي كل قطر مذهب وشريعة
وفي كل مصر دعوة للتآمر
وهذا كتاب الله حُرِّفَ رسمه
وأوّل تأويل البغي المهاتر
وصار حديث المصطفى وكلامه
يعبث به الفساق فوق المنابر
تبوّأت في (دار الحديث) مكانة
وأملت درسا في أصول المآثر
حديث رسول الله أوضحت نهجه
صحيحا وما يروى لنا بالتواتر
وأسندت هذا العلم في كل مرسل
وأضعفت موضوعا أتى بتوافر
وعاد حديث المصطفى متألّقا
وسيم ثنايا الوجه غضّ المكاسر

ومادت أصول الدين تختال نخوة

وتمرح في وشي بهي المسافر

وخلدت بـ "التيسير" أروع صفحة

فوائده عمّت جميع الحواضر

تناقلت "الأمواج" درّ بيانه

ففتق بالتفسير كل البصائر

إلى أن يقول في ختام القصيدة:

فيا أيها الشيخ الرئيس تحيتي

أقدمها في حلة المتناثر

فليس مرادي أن أقول قصيدة

فما أنا في فن القريض بشاعر

ولكنها مني تحية "خالص"

يزينها ودي وأوفى مشاعري

وفيهما من التكريم أجمل حلة

أثارت شعوري واستحثت خواطري

وفيهما من الإخلاص عقد مرصع

ينير من الإيمان قلبي وخاطري

وقال الشاعر الأستاذ محمد بن محمد العلمي:

حدث عن البحر الخضم الزاخر،

واذكر لنا الشيخ الهمام (الناصر)

"فمحمد" أهل الكرامة، والثناء،
والحمد، في البلد الأمين الزاهر
ومكانة "المكي" في هام العلا،
فوق الثريا، من أعز مفاخر!
موسوعة طفحت بأنوار الحجي،
وتألفت آياتها للناظر
ومنارة تهدي لأقوم خطوة،
وتكون عوناً للشريد الحائر:
ما شئت من فقه، وتفسير، وما
يُغني القريحة بالحديث السائر
تلك الأصالة في الأصول تبلورت،
وترصعت بآلئ وجواهر
ونفائس الألفاظ عزّ نظيرها
من صارم، غضب، صقيل، باتر!
وقال:
يا كوثر العلم الرفيع وشهده،
تهنيك في العرفان خير كواثر!
إن العروبة كلها ممنونة
... لك حبذا من شاعر... من ناثر!

والضاد أنت بقطرة قاموسها،
تحمي حماها من دخي القاصر
«فإذا خطبت فللمنابر هزة!»
وإذا تحاضر كنت خير محاضر
في قوة الإقناع، عندك حجة،
ليس تضاهي، باجتلاء سرائر
آثارك الغراء شاهدة بما
قد كان برهاناً لخير مآثر
وفرائد القرآن تسبر غورها
سبراً، بوجدان البصير الساهر
يا حبذا تلك الكنوز! وحبذا
من بات يرعاها بقلب عامر!
جعل الحوار مع العلوم سبيله،
بقريحة تذكى فؤاد محاور
في (المجلس العلمي) شعّ سناؤه،
والشعب يطفح باللسان الشاكر،
فإذا (رباط الفتوح) تزهو نخوة
بالشيخ، في الوعي الزلال الفائر
و(سلا) تنافس غيرها بوجوده،
وتراه ينبوعاً لخير وافر

ومن (الوصاية) صار يشغل مجلسا،

يرعى الأمانة من أعز مصادر⁽¹⁾
(دار الحديث) به تفتّح قلبها،

وتبوّأت عنوان عهد زاهر
ووزارة الأوقاف خلد عندها

بنضاله الراقي أجلاً بوادر
سلها تنبئك اليقين، فإنه

أدى أمانته بحزم نادر
قد كان مرموقاً بأرفع صفوة

منها إليها في النبوغ الظاهر
إذ صار في الأقطاب نجما ساطعا،

فهو المتوج بالذكاء الباكر⁽²⁾
ماذا عساني أن أقول لعالم

فحل، عصامي، قدير ماهر؟!
إني أتيت وفي يميني باقعة

من كل بستان، أزهى أزاهري
مالي سوى شعري إليك هدية،

ورسول وجداني، عواطف شاعر

(1) إشارة إلى كونه عضواً في أكاديمية المملكة المغربية.

(2) يشير الشاعر إلى أنه عضو في مجلس الوصاية.

وختم القصيدة بقوله:

فاسلم لأمتك الكريمة، ولتدم،

نورا بعمق ضمائر وبصائر!

إنا نكرم فيك عهدا مشرقا

للعلم، فالحسنى جزاء (الناصري)!

● خطاب المحتفي به الأستاذ محمد المكي الناصري:

سيادة والي صاحب الجلالة المحترم

أصحاب السعادة والفضيلة

حضرات الأساتذة الأعزاء، والإخوة الأبرار الأوفياء

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

لقد كانت ندوة التكريم التي دشنتموها بدار الحديث الحسنية منذ صبيحة أمس، تحت رعاية معالي وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري، والتي أبيتُم إلا أن يكون مسك ختامها في مساء هذا اليوم، بقاعة الحفلات الكبرى لولاية الرباط وسلا، تحت رئاسة سيادة والي صاحب الجلالة الأستاذ عمر بنشمسي، ندوة حافلة رائعة، وجامعة مانعة، بشكل متميز جعلها فوق ما كان يُتوقع لها لدى منظميها والمشاركين فيها، فقد تفضلتم فسلطتم الأضواء خلالها على الشخصية التي هي موضوع التكريم، أحيانا بشكل عام لمس جوانبها المتعددة، وأحيانا بشكل خاص لمس بعض زواياها دون بعض، واستعرضتم أحيانا أخرى بعض الذكريات الممتعة، التي لم يُبْلِها مرور الأيام، وشارك الشعر إلى جانب النثر في هذه الندوة بشكل مشرف للعلم والأدب معاً، فبارك الله فيكم، وأحيا بكم وعلى يدكم تقاليد الإخاء والوفاء في هذا البلد الأمين.

حضرات السادة

لقد انطبعت ندوتكم المباركة بطابع خاص، من جميل العواطف، ونبيل المشاعر، وتحلت بشيء كثير من الصدق والموضوعية والإنصاف، ولا أخفي عنكم أنني -وأنا أستمع إلى عروض هذه الندوة طيلة يومين كاملين- ظلت أتساءل فيما بيني وبين نفسي مَنْ هم أصحاب الحق في هذا التكريم، وإلى مَنْ هو موجهٌ في نهاية المطاف؟ وانتهيت بعد إمعان وتأمل إلى أن هذا التكريم موجهٌ في الحقيقة إلى عدة جهات:

أولاً: هو موجهٌ إلى سيد البلاد، مؤسس دار الحديث الحسنية وراعيها الأعلى أمير المؤمنين الحسن الثاني، الذي نادى بالبعث الإسلامي بمجرد جلوسه على العرش، والذي أتبع القول بالعمل، فأنشأ دار الحديث الحسنية للحفاظ على الصبابة الباقية من معالم الثقافة الإسلامية، وتداركها قبل أن تدخل في غيبوبة الاحتضار، ويكفي أن نتذكر وضع الجامعة المغربية قبل إنشاء دار الحديث الحسنية ثم وضعها بعد ذلك، حيث أصبح للثقافة الإسلامية فيها منبر ولسان، ونفوذ وسلطان، وأصبحت معاقلها مؤطرة بخريجي هذه الدار في أغلب الأحيان، وتعزز ذلك كله بمجموع الدراسات الإسلامية القيمة التي أنجزت على يد أولئك الخريجين، والواقع أن دار الحديث الحسنية هي التي هيأت المناخ الصالح لإحياء الثقافة الإسلامية، ونشر الوعي الإسلامي، وتجديد التقاليد العلمية المغربية، وتكريم حملة العلم الشريف.

ثانياً: هو موجهٌ إلى الفكرة السليمة التي أوحى لجمعية العلماء خريجي دار الحديث الحسنية، بأن ينطلقوا في إعداد هذه الندوة من مفهوم إنساني وحضاري عام، لا يطبعه طابع عصبية ولا حزبية، حيث فكروا في الوفاء لمجموعة من الأساتذة أجمعت على خدمة رسالة دار

البعث، رغمًا عن اختلاف اتجاهاتها ونزعاتها، ونظروا إلى الجوانب الإيجابية التي ساهم بها أولئك الأساتذة في خدمة هذا الجيل وأداء تلك الرسالة، دون أن يُسقطوا من القائمة فريقًا على حساب فريق، وهنا أحيي ذكرى كافة الزملاء أساتذة الدار الراحلين: الأستاذ علال الفاسي، والأستاذ الرحالي الفاروق، والأستاذ حسن الزهراوي، والأستاذ العباس الأمراني، والأستاذ جواد الصقلي، والأستاذ العابد الفاسي، والأستاذ عبد الواحد العلوي، والأستاذ عبد الرحمن الغريسي، والأستاذ الناصر الكتاني، والقاضي العبادي، والأستاذ عمر المعداني، والأستاذ التهامي الوزاني، والأستاذ محمد بن تاويت الطنجي، والمدير الأول لدار الحديث الحسنية الأستاذ خليل الورزازي، تغمدهم الله جميعًا برحمته الواسعة وأسكنهم فسيح جناته.

ثالثًا: هو موجهٌ إلى نخبة العلماء والشعراء والأساتذة الجامعيين والأكاديميين ورجال الفكر والتاريخ الذين استجابوا لدعوة الخريجين، فتباروا في هذه الندوة المباركة، وساهموا فيها مساهمة رائعة، بتلقائية وكرم نفس، وكرسوا من ثمين وقتهم، وعصارة فكرهم، وجميل عواطفهم، قسطًا غير قليل، للتأمل في حياة مواطن من مواطنيهم لم يبخل على وطنه بتضحية، ولا على دينه بجهد، فتحدثوا عن حياته، موضحين كثيرًا من معالمها، وجملة من مراحلها، بكامل النزاهة الفكرية، والأمانة التاريخية، دون أن يبخسوا حقه بجانب حقوق الآخرين، بل اعتبروا حياته وحياة جميع نظرائه عبارة عن "بستان" فيه من الزهور أصناف وألوان، لكل زهرة شذاها الطيب ولونها الجذاب، الذي تستحق به حظها من الإعجاب، وبذلك ضربوا المثل لغيرهم في التزام النزاهة والإنصاف، عملاً بالمثل القائل: «الإنصاف من شيم الأشراف».

رابعاً: هو موجه من الناحية الثقافية والتربوية إلى البيئة الأولى التي احتضنتنا، والميراث الأدبي والتاريخي الذي ورثناه، ثم إلى شيوخنا الذين سبقونا بالإيمان، والذين لسنا إلا فرعاً من شجرتهم الطيبة الوارفة الظلال، وحبّة من سنبلهم المعطاء، أولئك الشيوخ الذين تلقينا عنهم ما أفاء الله به من العلم، وتربينا بين أيديهم وفي حلقات مجالسهم على التأدب بآداب العلماء، وتعلمنا منهم كيف يجب أن يكون العالم في نعته وسمته، ومظهره ومخبره، ولولا ما بذلوه لنا من علم، عن كرم وسخاء وأريحية، وما أوحى به إلينا حياتهم اليومية من سلوك قويم وقدوة حسنة، وما فتحوا في وجوهنا من عوالم المعرفة والتربية والأخلاق، لما كان في الإمكان أن يوجد أحد منا على الصفة التي عرفه الناس عليها، وقدّروه من أجلها، ولما أصبحنا مؤهلين لخوض المعركة التي خاضتها بلادنا دينيا وعلميا ووطنياً، ولما كان لهذا التكريم أيّ داع ولا مبرر.

خامساً: هو موجه من الناحية الوطنية إلى جميع رفاقنا الأعزاء، الذين اشتركوا معنا في وضع الأسس الثابتة للحركة الوطنية، والذين عملوا معنا جنباً إلى جنب، وفي حالتَي البعد والقرب، عندما كنا كتلة واحدة في الجنوب والشمال قبل نشأة الأحزاب، ثم خضنا معهم حلبة السباق في خدمة الشعب والعرش، عندما أصبح كل منا يعمل في عرينه المستقل، طبقاً لاجتهاده الخاص، إلى أن اجتمعنا وإياهم في صعيد واحد وتحت لواء واحد، عندما دقت ساعة الخطر بالشمال، في نطاق (الجبهة القومية للحركة الوطنية) التي انطلقت من تطوان، وعندما دقت ساعة الخطر بالجنوب، في نطاق (الجبهة الوطنية لأحزاب المغرب الأربعة) التي انطلقت من طنجة، وأخص بالذكر رفاقنا الذين انتقلوا إلى رحمة الله،

وفي طليعتهم الأستاذ عبد الخالق الطريس، والأستاذ محمد بن الحسن الوزاني، بالإضافة إلى الأستاذ علال الفاسي الذي عمل معنا بصفته زعيماً وطنياً، وأستاذاً جامعياً.

سادساً: هو مُوجَّه من الناحية العملية إلى تلك الشخصيات الكريمة، التي لقيت ربها، بعد أن قدمت العون الأدبي والمادي المستمر للحركة الوطنية والثقافية، بوحي من ضميرها الحي، وشعورها الوطني العميق، فساهمت بحظ وافر في تمويل مشاريعنا، وإمداد حركتنا في البوادي والحوضر، أمثال عائلة بلكورة بالرباط (الحاج بوبكر والحاج محمد والحاج أحمد) وعائلة البحراري بنفس المدينة: (الحاج محمد وسيدي ادريس) وعائلات الرزيني والمريبطو وابن عبود من أعيان تطوان، وعائلات ابن كيران والقباچ والصنهاجي من أعيان تجار مليلية الذين انتقلوا منها إلى تطوان، ولا بد من كشف النقاب في هذا المقام عن مساعدات رجال القصر والمشور الخليفي، (أمثال السيد أحمد بن البشير الهسكوري، والسادة محمد ابن موسى ومحمد أفيلال ومحمد بن المكي بن ريسون من وزراء سمو الخليفة، الذين اتخذوه قدوة لهم في هذا الميدان رحمهم الله جميعاً).

سابعاً: هو مُوجَّه من ناحية النضال والكفاح إلى أولئك الوطنيين الأحرار، الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، والذين لولا مساندتهم لنا ووقوفهم بجانبنا في الشدائد والأزمات للتغلب على العقبات، ولولا تحملهم معنا لجميع التضحيات مادياً وإدارياً، وسياسياً، لَمَا أمكن لحركتنا نجاح ولا صمود، وفي طليعتهم عميد الحركة الوطنية بطنجة السيد الحاج المختار أحرسان، الذي كان مضرب الأمثال في الشهامة

والإباء، والإخلاص للدين والوطن، والتمسك بالمبدأ، والثبات على العهد، والتضحية بالنفس والنفيس، إلى أن لقي ربه راضياً مرضياً، فشيئته طنجة إلى مثواه الأخير في موكب رهيب ومهيب، وزميله السيد محمد العربي الزكاري الذي تعرض معه للنفي من طنجة واستقر مثله بتطوان، فعمل في صحافة الوحدة المغربية منذ نشأتها كاتباً ومحرراً، وكانت مقالاته تلهب بسياطها دهاقنة الاستعمار، وتثير مضايقاتهم له في كل حين، وعمل في معهد مولاي المهدي بتطوان وطنجة مديراً، وعمل في المركز العام للوحدة المغربية وكيلاً ورئيساً، وكان طيلة قيامه بهذه المهام مثال التفاني والصدق والإخلاص والتضحية، ومثلهما إخوانهما الطنجيون السادة: المختار الحاج ناصر، والتهامي الفلوس، ومحمد الزيدي، حيث كان الأول رئيس تحرير جريدة "صوت المغرب" التي أصدرتها الوحدة المغربية في طنجة باللغة الفرنسية، تعزيزاً لأختها "الوحدة المغربية" التي كانت تصدر بتطوان، فكان "لصوت المغرب" فضل كبير في تعريف الأجانب بحقيقة الحركة الوطنية والدفاع عنها ضد هجمات الاستعمار، وفي التعريف بجوهر القضية المغربية لمختلف الأوساط الأجنبية والمحافل الدولية، وقد تعرض هذا الكاتب الوطني الشجاع للنفي من مسقط رأسه بطنجة من أجل ذلك عدة مرات، لما كانت تحدثه حملاته القوية، ومقالاته البليغة لساناً وبياناً، وحجة وبرهاناً، من أثر بالغ في الأوساط الفرنسية والإسبانية، وكان له ولشقيقه الوطني الغيور السيد عبد الله الحاج ناصر مساهمة مالية مهمة من أجل اقتناء مطبعة خاصة تطبع بها جريدة "صوت المغرب" بعد أن امتنعت المطابع الأجنبية بطنجة عن طبعتها، وذلك على غرار المساهمات المالية

الأخرى التي قدمها مدير "صوت المغرب" المرحوم الحاج المختار أحرسان، وعدد آخر من الإخوان، أما الثاني والثالث فقد تحمل كلُّ منهما في نطاق الوحدة المغربية مسؤوليات متعددة بكل كفاءة وشجاعة وذكاء: مسؤولية ثقافية وتربوية في معهد مولاي المهدي بتطوان وفرعه بطنجة، ومسؤوليات أدبية وصحافية بالخصوص في جريدة "منبر الشعب" وجريدة "الشعب" اليوميتين اللتين أصدرتهما الوحدة المغربية باللغة العربية في طنجة، وكانتا لسان حال الناطق باسمها، ومسؤوليات سياسية وإدارية في مركزها العام، حيث قاما إلى جانب رئيس المركز المرحوم الحاج المختار أحرسان، في أدق الظروف وأحرجها، بدور مهم وخطير، في التعبير عن مواقف الوحدة المغربية بكل شجاعة وصراحة، ضد الخطة الاستعمارية التي كشفت القناع عن وجهها، واستهدفت القضاء على المغرب عرشاً وشعباً، وفي القيام بتزويد مراسلي الإذاعات ووكالات الأخبار الأجنبية، بحقيقة المواقف الوطنية في أحداث الساعة، طبقاً لمبادئ الوحدة المغربية العامة، ووفقاً للتوجيهات والتعليمات التي يتلقونها من رئاسة الحزب، بعدما أصبح رئيسه منفياً من جميع المناطق المغربية، ومقيماً في الخارج، يتنقل في مختلف الأقطار للدفاع عن كرامة العرش ورفع العدوان الأثيم الذي تعرض له، والمطالبة بعودة الوحدة المغربية وحرية الشعب المغربي إلى سابق عهدها، وذلك منذ سنة 1952 إلى أن عاد محرر الوطن المغفور له محمد الخامس إلى عرشه وشعبه ظافراً منتصراً، فلهؤلاء المناضلين وبقية رفاقه الأوفياء من أعضاء المركز العام وأعضاء الفروع بمختلف مناطق المغرب، الأحياء منهم والأموات، حظ وافر مما يتضمنه هذا التكريم من تنويه وثناء.

ثامناً: هو مُوجَّهٌ في نفس الوقت إلى أولئك الشبان الأبرار الذين التحقوا في مستهل حياتهم بالحركة الوطنية عاملين مخلصين، وجنوداً مكافحين، فكانوا لها أكبر مدد، ولوطنهم أعظم سند، والذين لولا حماسهم واندفاعهم، ولولا مظاهراتهم ومهرجاناتهم، ولولا نداءاتهم وهتافاتهم، لما أزعجنا المستعمر، ولما شقت حركتنا طريقها إلى الأمام، لتسير من وراء مولانا الإمام، وهنا أحيي تحية خاصة أولئك الشبان الأبرار وممثليهم الأوفياء في هذه الندوة المباركة، وسيكون لهم ولجميع العاملين المخلصين لسانٌ صدق في الآخرين، عندما يصدر تاريخ الحركة الوطنية التي تربوا في أحضانها، وكانوا من أعمدتها وأركانها.

حضرات السادة:

إن هذا التكريم مُوجَّهٌ بصفة دائمة ومستمرة إلى جملة من القيم الروحية والفكرية شاءت الأقدار أن تبرز على يد أحيكم كما برزت على يد غيره، وأن تتبلور في عدد من المنجزات والمشاريع التي عمل على تأسيسها، وكان له شرف تسييرها، وأن تكون الرائد الأسمى والموجه الأول والأخير لتصرفاته وتصرفات رفاقه في الحياة الخاصة والعامة، وقد ألهمنا الحق سبحانه وتعالى أن نكون أحد الألسنة الناطقة بها والمدافعة عنها، وأن نتحمل التضحية في سبيلها بالنفس والنفيس، حتى تمكنت ورسخت في النفوس، وأصبحت ميراثاً قومياً لجميع المواطنين.

ومجمل القول أن هذا التكريم في البداية والنهاية، إنما هو تكريم للقيم المقدسة، التي استطاع المغرب بفضلها أن يصمد في وجه الزوابع، وأن يتحدى جميع الخصوم، وأن يحافظ على وحدته وانسجامه ووئام أبنائه: قيمَ التعلق بالوطن، والتمسك بالعروبة، والاعتزاز بالإسلام، والولاء الدائم

للعرش الخالد، الرائد والقائد، فالتكريم إذن ليس لشخص بعينه، بل هو تكريم معنوي أدبي روحي لمفاهيم خالدة، ومبادئ ثابتة، يلزم أن تستمر حية في القلوب يتناولها الخلف عن السلف جيلاً بعد جيل، حتى تبقى هذه الأمة معصومة من الضلال، موحدة العقيدة، موحدة الكلمة، مجموعة الشمل، تحت راية العرش العلوي الشريف، حصناً حصيناً للعروبة والإسلام إلى يوم الدين، أما هذا الشخص الماثل أمامكم وكل الأشخاص، فَهُوَ وَهُمْ إلى فناء وزوال، والدوام والبقاء لله (كل من عليها فان ويبقى وجه ربّه ذو الجلال والإكرام).

أصحاب الفضيلة العلماء خريجي دار الحديث الحسنية.

إن دار الحديث الحسنية أمانة في أعناقكم، ووديعة بين أيديكم، ائتمنكم عليها أمير المؤمنين، فكونوا أوفياء له ولها، وكونوا حريصين على توسيع دائرة إشعاعها، عاملين على تأطير الحركة الإسلامية داخل الجامعات المغربية وخارجها، ناشرين طرائف الثقافة الإسلامية، وكاشفين الستار عن كنوزها، لا تناموا على ما وصلتكم إليه من العلم، فازدادوا كل يوم علماً، لا تقتصروا على تخصصكم، فوسعوا دائرة معارفكم في كل الميادين.

إن مهمة عالم اليوم أصعب من مهمة عالم الأمس، وإن مهمة عالم الغد أصعب من مهمة عالم اليوم.

فعليكم بمواصلة البحث والدرس، والمشاركة في مختلف مجالات الفكر، حتى تستطيعوا أن تتحدثوا إلى كل فئة بلسانها، ومن منطلق تخصصها، وافتحوا جميع النوافذ، وأزيلوا كافة الحُجُب التي تحول دون وصول المدِّ الإسلامي إلى كل مكان، ولا تقتصروا على جمع المعلومات

وهضمها، واعملوا على أن تكونوا "مبتكرين" تضيفون إلى علم السابقين علماً جديداً، وتسלטون على جوانب الثقافة الإسلامية أضواء جديدة كاشفة، بلغة الوقت وأسلوب العصر.

حضرات العلماء خريجي دار الحديث الحسنية،

لا تنسوا أن الأمة تنتظر من علمائها أن يكونوا قدوة لها في كل خير، فحافظوا على سَمَت العلماء، وتمسكوا بتقاليدهم الخيرة، وكونوا مصابيح لها في الدُّجَى، وطلّاع في موكب النهضة، ولا تساوموا بمقدسات الإسلام، بل اثبتوا عليها، وكافحوا من أجلها، وتطلعوا بكامل الوعي والانتباه إلى ما يدور حولكم من تيارات معادية: تيارات المادية والإلحاد والصهيونية والصليبية، واعملوا على محاصرة تلك التيارات حتى لا تتجذر في هذه البلاد، فالمغرب بلد "الحرية"، وحرية المغرب يسيل لها لُعبُ كافة الخصوم والأعداء، فكونوا لهم بالمرصاد، وتعاونوا مع جميع العناصر الخيرة في مختلف كليات الجامعات المغربية، ومع جميع المواطنين الأخيار الملتزمين بالإسلام، ولا تعزلوا أنفسكم عن الفئات الأخرى، فإن كثيراً من سوء التفاهم وسوء الظن يزول بجلسة أو جلستين يتبادل فيها المتحدثون أطراف الحديث بصفاء سريرة، ونقاء ضمير، ونزاهة فكر، واعملوا على رفع كل حاجز يحول بين التعرف على الثقافة الإسلامية والثقافة الحديثة، حببوا الثقافة الإسلامية إلى ناشئة البلاد، وقربوهم منها وإليها، وشجعوهم على الارتواء من معينها، وكونوا بهم رفقاء، ولهم نصحاء، واذكروا دائماً وصية مجد الدين الفيروزبادي للعلماء والطلاب في مقدمة كتابه "بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز"، عندما قال: «إن للعلم عَرَفًا يَنُمُّ على صاحبه، ونوراً يُرشد إليه،

وضياء يُشرق عليه، فحامل المسك لا تخفى روائحه: مُعْظَمٌ عند النفوس الخيرة، محببٌ إلى العقلاء، وجيهٌ عند ذوي الوجوه، تتلقى القلوب أقواله وأفعاله بالقبول، ومن لم تظهر عليه أمارات علمه فهو ذو بطالة لا صاحب إخلاص»⁽¹⁾ قال تعالى: «ولو لا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً، ولكن الله يزكى من يشاء»⁽²⁾، وقال تعالى: «ولول فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا»⁽³⁾، وقال تعالى: «قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا، هو خير مما يجمعون»⁽⁴⁾.

هذه وصيتي إليكم أوصيكم بها ابتغاء وجه الله، عسى أن نلقى بها الله، فكونوا أوفياء لها، متمسكين بها، بارك الله فيكم، ونفع الأمة بجهودكم، وشكراً لجمعيتكم، وللسادة المشاركين في ندوتكم، وشكراً لسعادة مدير دار الحديث الحسنية، ولمعالي وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية، وسيادة والي ولاية الرباط وسلا، وأخيراً أستودعكم الله، والسلام عليكم ورحمة الله.

● لمحات من حياته:

اسمه: محمد المكي الناصري، ونسب عائلته (بنو ناصر) وهم مشهورون في تاريخ المغرب بالعلم والمعرفة وخدمة الصالح العام. ولد في الرباط عاصمة المملكة المغربية يوم 24 شوال عام 1324هـ الموافق لـ 11 سنة 1906، أنهى دراسته الابتدائية سنة 1918، وأنهى دراسته المتوسطة والثانوية سنة 1926، وأنهى دراسته الجامعية سنة 1932.

(1) الجزء الأول، الصفحة 54.

(2) (النور / 21).

(3) (النساء / 83).

(4) (يونس / 58).

إلى جانب دراسته الواسعة للثقافة الإسلامية العربية وتخصصه فيها
درس فروع الفلسفة والاجتماع بكلية الآداب بجامعة القاهرة، وعلوم
التربية بكلية الآداب جامعة باريس، ومادة القانون الدستوري، والقانون
الدولي العام، بكلية الحقوق جامعة جنيف.

من أشهر أساتذته بالمغرب: أبو شعيب الدكالي، والمدني ابن
الحسني، والحاج محمد الناصري، ومحمد السانح.

ومن أشهر أساتذته بالمشرق العربي: مصطفى عبد الرازق ومنصور
فهمي، وطه حسين، وأحمد أمين، وعبد الحميد العبادي وعبد الوهاب
عزام، ويوسف كرم.

ومن أشهر أساتذته الغربيين: المستشرقان الإيطاليان فلينو،
وجوندي، والمستشرقان الألمانيان: ليتهان وبرجستراسر، والفيلسوف
الفرنسي: أندري لالاند.

أما وجوه نشاطه، والمجالس والهيئات التي عمل فيها فأكثر من أن
تستقصى، وأوسع من أن يتسع لها هذا المقام!

وأما مؤلفاته فتشهد المكتبات بوفرتها وإقبال هواة العلم وعشاق
المعرفة عليها، نذكر منها:

- التيسير في أحاديث التفسير (طبع بلبنان في ستة مجلدات).
- مبادئ القانون الإداري في الإسلام.
- نظام الحقوق في الإسلام.
- منهاج الحكم في الإسلام.
- الحضارة الإسلامية.
- كيف نجدد رسالة الإسلام.
- تاريخ التشريع الإسلامي.

وكانت لي علاقة طيبة عميقة بالعلامة محمد المكي الناصري أعترّ بها على الدوام، وأذكرها بالثناء والتمجيد، ذلك أنني كنت مسؤولاً عن الإعلام لثورتنا التحريرية بليبيا سنوات 1958 – 1962، وعندما جاء إلى ليبيا سفيراً للمغرب الشقيق في شهر يناير سنة 1961 أقام مأدبة عشاء للتعارف حضرها سفراء البلدان العربية والإسلامية ودعاني، ودعا رئيس البعثة الجزائرية آنذاك المرحوم أحمد بودا، وكانت المكالمات الهاتفية الداعية بيني وبينه استمرت طويلاً فكأنه كان يتحدث إلى صديق توثقت بينه وبينه عرى المودة والإخاء وانمحت بينهما التكاليف، وأذكر أنه كشف لي عن إعجابه بتعليق سياسي كنت قدمته قبل ذلك اليوم على أمواج الأثير عما تشيعه أبواق الاستعمار الفرنسي من أن هناك تصدعا في صفوف جبهة التحرير الوطني!

وكانت المأدبة فاخرة كان الشيخ واسطة العقد فيها يدير الحديث في أدب ولطف ويسرع في مهارة إلى اقتناص مناسبات تليق بالمقام، ويتفنن في طرح قضايا الساعة التي تشغل الأذهان، وكان كلما توغل الدبلوماسيون في قضية ما، وتشعبت فيها آراؤهم حول الحديث بلباقة إلى قضية الجزائر، وقال أنها قضية العرب والمسلمين، ففيها يجدر الكلام، وفيها يطيب، ويلذ!

وإذا كنت قد عرفت مكانة المكي الناصري العلمية قبل ذلك اليوم من خلال ما كنت أقرأه، فإنني عرفت في هذا اللقاء الدبلوماسي، سمو ذوقه، ودقة شعوره، وعلو حديثه، ولباقته في إدارة الكلام ولم أطرافه عند تشعبه! وعند انتشار العقد ولم يبق سوانا ننتظر سيارة البعثة، أفضى إلينا بحديث قلبه، وفيض وجدانه، وقال يسعدني أن نتعاون في هذا البلد

التاريخي على صالح البلدين الشقيقين: الجزائر والمغرب، واعتبروني واحدا منكم، ولا تترددوا في شيء تريدون أن أساعد به الثورة، فإن خدمتها واجب مقدس، يفرضه الإسلام والتاريخ والجوار، وهو في نفس الوقت شرف لا يضاهيه شرف.

ومع أن المعروف عن مختلف السفارات العربية والإسلامية في مختلف أنحاء العالم، خدمة ثورتنا التحريرية بلا حدود مع التفاوت - طبعا - بينها، نتيجة الظروف والإمكانات والقرب من الجزائر والبعد عنها، فإن العالم الدبلوماسي الشيخ المكي الناصري كان يشفع هذه الخدمة بزيارته إلى إدارة البعثة، ويهتف إلينا من حين لآخر للاطمئنان على مسيرة الثورة.

وتوطدت عروة المودة والإخاء بيني وبين العلامة المكي، وتبادلنا إهداء المنتج الفكري، وكان إذا أهديته كتابا عن ثورتنا التحريرية، تقبله في ابتهاج وقال: هذا جهاد آخر ستتضاعف أهميته بعد الثورة في عهد الجهاد الأكبر!

وانقطعت صلتني بالشيخ معايشة ولكنها لم تنقطع روحيا، فقد كنت أتابع نشاطه العلمي والفكري كعرضه لموقف الإسلام في المؤتمر العالمي لزراعة الأعضاء الذي انعقد بمديرية سنة 1969، وعرضه لموقف الإسلام في الرياضة في المؤتمر العالمي للرياضة المنعقد بمدينة ميونيخ 1972، وعرضه لبحث أكاديمي هام عن السيرة النبوية في المؤتمر الدولي الذي دعت إليه جامعة الأزهر بالقاهرة في شهر نوفمبر 1984 بعنوان (رسالة القرآن في عصر العلم) وعروض أخرى كثيرة تتم كلها عن جهاده المتواصل، وبعد نظره، وعمق فكره في الأعمال الفكرية التي يعالجها!

وفي شهر رجب 1410 هـ الموافق فبراير سنة 1990 عقدت أيام دراسية بطنجة عن شخصية وفكر العلامة الشيخ عبد الله كنون حضرتها موفدا من قبل وزارة الشؤون الدينية، وكانت فرصة ثمينة التقيت فيها رجال الفكر والأدب بالمغرب، وفي مقدمتهم الأستاذ المكي الناصري، وقد استعدنا ذكريات جميلة عن ماضينا بليبيا، وكنا خلال ثلاثة أيام لا نفتأ نتذاكر في قضايا تاريخية وأدبية، وكان -كما ألفناه وعهدناه- معينا لا ينضب ومحدثا يتخير اللفظ، والمعنى، ولا أنسى كلماته الرقيقة اللطيفة وهو يعبر لي عن أسفه لعدم تمكنه من الاستماع إلى محاضرتي، وأثنى عليها الثناء الجم، وذكر لي بعض محتوياتها كما حدثه عنها بعض من حضرها.

ولا أنسى بالخصوص مجلسنا في فناء منزل الشيخ عبد الله كنون في اليوم الأخير من أيام الندوة بعد تناول الغداء، وقد ضم نخبة من رجال الفكر والأدب في مقدمتهم الشيخ المكي، وقد جرت في هذا المجلس أحاديث شيقة ممتعة في الأدب والتاريخ والفكر الإسلامي، وأذكر من تلك الموضوعات التي شغلت أفكارنا وألسنتنا قرابة ساعتين هذه:

أولا: "الشجاعة الأدبية" التي هي شدة القلب، وقوة النفس عند البأس، وهي ضرب من الصبر، ويشترط فيها أن تستعمل معها الرؤية وصدق النظر، وقياس الأسباب والنتائج، ليلا يقدم صاحبها على عمل ثم يرى خطأه، فيفشل، وقد استعرضنا طائفة ممن اشتهروا بهذا النوع من الشجاعة في المغرب الكبير قديما وحديثا!

ثانيا: "الأمير شكيب أرسلان" اشتهر بالنثر، وقلمه فيه بليغ يثمر أشهى الثمر حتى لقب برسول البيان، ولم يعرف أنه شاعر، وذكر الأستاذ المكي أنه شاعر، وأنه إذا تصدّى له بلغ القمة فيه، ومما ذكره عنه أنه نظم قصيدا

في احتفال الهلال الأحمر بالقاهرة سنة 1912م اهتزت له أرجاء القاعة وكان من الشعراء الذين ساهموا في هذا الحفل أمير الشعراء شوقي و خليل مطران. وعرض من هذا القصيد أبياتا منها هذا البيت:

ولو أنصف الأقوام في حقهم رأوا مواساتهم فرضا على كل آدمي
ثالثا: "قيمة الكلام" للقول في حياة العرب مكانة فة ووزن عظيم، لأن القول والتفكير والعمل أمور متلازمة في الحياة العربية، ولذا اعتبر زهير القول أحد شطري الإنسان:

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق إلا صورة اللحم والدم
واعتبر مالك بن سلمة العبسي الصمت سترا للعي.
وتطرقنا في حوارنا -في ظل هذه الفكرة- إلى قوله تعالى: «الرحمن علّم القرآن، خلق الإنسان، علّمه البيان».

رابعا: "التيسير في أحاديث التفسير"، وهذا عنوان تفسير الأستاذ المكي الناصري، سألته عنه أحد الحاضرين فذكر له أنه أصدره بلبنان في ستة مجلدات، وتحدث عن طريقته فيه، وعن المدة التي استغرقها في إنجازها، وهنا سألته أستاذ مغربي عما أنجز له من هذا الجهد الكبير، من الفوائد المادية، وكانت الكيفية التي قدم بها السؤال توحى باعتقاد السائل أن المؤلف قد خسر في طبعه، وربما تحمل الديون من أجله، فقال الأستاذ المكي في لهجة الواثق: إن للقرآن الكريم - يا بني - بركة لا يستطيع تصورها إلا من تعامل معه، مهما فكرت فإنك لا تقدر أن تتصور ما أنجز لي وراءه من الربح المادي، أمّا الربح المعنوي فأمره عند الله.. نرجو أن يكون كاملا غير منقوص، قال هذا أو ما هذا مؤداه: ثم سألتني عن رأيي في الموضوع، فقلت له: لقد أصدرت عدة كتب، ولم أكن أنتظر

الأرباح المادية من ورائها بقدر ما كنت أنتظر الربح المعنوي منها . ولكني مع ذلك أعترف أن ما ربحت منها مادياً نصيب محترم، حسبكم أنني أنشأت به أسرة، وعلمت أولادا، وبنيت دارا، واقتنيت سيارة، وكوّنت مكتبة، وعشت عيشا رغدا، ولله الحمد والمنة⁽¹⁾!!

صحيح أن مردود التأليف بالنسبة إلى البلدان الأوروبية وبعض البلدان الشرقية قليل، ولكنه مع التدبير وحسن التصرف كثير..

وهنا تدخل أحد الأساتذة وقال: ومع هذا أعتقد جازما أنكم في قرارة أنفسكم غير راضين بوضع المؤلفين عندنا، فإن ما أخذتموه أنتم عن كل كتبكم لا يبلغ ما تأخذه المغنية عن حفلة واحدة، أو ملاكم، أو لاعب كرة عن مقابلة!!!

هذه الجلسة الممتعة هي آخر عهدي بالأستاذ المكي الناصري ثم كانت خاتمة حياته الحافلة بجلال الأعمال العلمية والأدبية في سنة 1996م -رحمه الله-.

● من وحي تكريم الشيخ الناصري:

يشير انتباهنا -ونحن نقرأ ما قيل في الشيخ الناصري من النثر والشعر- ذلك الوفاء الذي تنبض به كل كلمة وكل جملة وكل تركيب، فكأننا بالخطباء والشعراء يشعرون من أعماقهم أن كل كلام يقال في المحتفى به هو دون الغرض المطلوب، ومن ثم فهم يتمنون لو أن القلوب تنكشف لتُرى على ما هي عليه من المحبة والإخلاص، والوفاء والتقدير نحو هذا الرجل المحتفى به!

(1) أعني بهذا ما انجر لي من الحقوق المادية بالفكر والقلم في مختلف المجالات: الكتب، الإاعة، التلفزة، الصحف والمجلات.

والذي جعل الخطباء والشعراء، في هذا الوضع وارتفع بهم إلى هذا المستوى هو تاريخ هذا الرجل الحافل بجلائل الأعمال، التي كانت من ثمار الإيمان والعقيدة، والصدق والوفاء، والإيمان، والصدق والوفاء، قوة من الله، فيها الحب والإيثار، وفيها التفاني والتضحية، وفيها الشجاعة التي لا تبالي العدد، ولا ترهب السلاح، ولا تبالي بالمخاطر والمهالك!

ومن هنا كان جهاد المكي الناصري المتواصل في مختلف المجالات، وكان وفاء الخطباء والشعراء له، كما كان وفاؤه لدينه ووطنه ولغته!

وهكذا فليكن التكريم حتى لا يكون صورةً جوفاء باهتة توحى أن الإنسان بمظهره لا بجوهره، بجهله لا بعلمه! بغيره لا بذاته، كما دلّت على ذلك صورٌ من التكريم في هذا العصر!

الجوائز الأدبية

- تمهيد
- عودة إلى الجوائز الأدبية
- جائزة نوبل
- قائمة بأسماء بعض الذين حصلوا على جائزة نوبل
- بين الأدب والسياسة

الجوائز الأدبية

تمهيد:

هناك نوع من التكريم يتمثل في الجوائز التي يعلن عنها، وترصد للنجاح في علم، أو أدب، أو اختراع أو اكتشاف، وسواء أكانت هذه الجوائز مادية أو أدبية، فهي أيضا -كأنواع التكريم الأخرى- خير مشحذ لأذهان الكتاب والشعراء، والعلماء-، وأهمُّ مثير لقرائحهم، ومقوِّ لعزائمهم، ومفجر لطاقتهم المعنوية!

ومنحُ الجائزة للجدير بها تُشعره بمكانته في المجتمع ومن خلال ذلك وضمنه تلفت الأنظار إلى أنه ذو إرادة قوية، وعزيمة صادقة، وأنه يعيش لغيره بما ينجزه من أعمال فكرية، وبرغبته في الإفادة والنفع، وأنه بكل هذه المعاني والقيم ليس شخصا عاديا، بل هو إنسان جدير بأن يكون قدوة يحتذى، ومنارة يستضاء بها في الحياة.

والتكريم بالجوائز معروف في مختلف البلدان الأروبية والعربية والإسلامية، فمن حين لآخر تقرأ في صحيفة أو مجلة، أو تسمع من إذاعة إعلانا عن مسابقة علمية أو أدبية فيتبارى الراغبون فيها ويتنافسون بمحصولهم الفكري والقلمي، كل يحرص على أن يكون الفارس المجلّي، الذي ينتزع الجائزة.

وجاء في افتتاحية مقال عن الجوائز الأدبية نشرته مجلة (الهلال) في أبريل سنة 1922 ما يلي:

«ما أشقى حياة الأديب في الشرق، وما أقل المكافأة التي ينالها مقابل كده وتعبه، وإذا كان الغربيون قد أدركوا فائدة الجوائز الأدبية من حيث

تشجيعها للأدباء، فإن حاجتنا إليها أشد وأعظم من حاجتهم، فحبذا يوم يدرك فيه أغنياؤنا هذه الحقيقة، ويهبون مما وهبهم الله ما يخلد اسمهم ويقوم لأبناء لغتهم بخدمة من أجل الخدم».

ولولا أنني أخشى أن أتهم بالمبالغة وإلقاء الكلام على عواهنه، لقلت إن أهون الناس على الناس، حتى في هذا العصر العلمي المتميز، في مختلف البلدان العربية والإسلامية - وخاصة في الجزائر - هم هؤلاء: الأديب، الشاعر، العالم!

قد يُذكر هؤلاء في المجالس بالحفاوة والتقدير، وتصاغ لهم في حضورهم عبارات فخمة جذابة تُسيل لعاب الغمر، وتهز أعطاف الجاهل، ولكن أن يتحول هذا التقدير النظري إلى التقدير العملي، والكلام إلى الفعل بأن يقف ذوو الثروات إلى جانبهم، ويشجعوهم ويكافئوهم، فهذا ما لا يفكر فيه هؤلاء ولا يخطر على بالهم، ولا يحبون أو لا يستطيعون أن يضعوا أنفسهم في طريقه لأنه طريق إلى الحياة وهم أموات، وطريق إلى الأفق الأعلى وهم هواة الأرض، وعبيد الدينار.

شَتَان بين الدار تبسط ظلمة والدار فيها تسطع الأنوار

وإذا كان هناك من يخرق هذا الوضع مرةً في عمر نوح فيقف بجانب الأديب أو العالم بماله، فإنه لا يبلغ أن يكون دليلاً على أن أهل الثروات يدركون قيمة أهل العلم والأدب، ويشعرون بالانتماء إليهم، والسير على طريقهم، والوقوف بجانبهم، بشيء من العظمة، أو السمو والشرف لأنهم خدموا أغلى ما في الإنسان هو الفكر والوجدان، وشاركوا صناع البيان، وبناء المجد الصحيح، اهتمامهم وجهادهم وتضحيتهم!

إن الكتابة صناعة قد تكون مصدراً للرزق، وقد تكون مصدراً للغنى، ولكن ضحاياها أكثر من ضحايا المهن والصناعات المختلفة، وإذا كنت - قارئ الكريم- تسمع أسماء خمسة أو عشرة من الكتاب والشعراء يكسبون مالا وافرا بأفكارهم وأقلامهم، فلتعلم أن بجانبهم مئات وآلاف لا ينالون عيشهم إلا بعناء وتعب ومن مصدر آخر غير الكتابة!

إن الأديب أو العالم المؤلف في بلدنا -الجزائر- مثلاً يجمعُ إلى أدبه وعلمه، وضع المؤلفات، ومراقبة طبعها، وتصحيح مسوداتها، وربما يتولى الإنفاق عليها من جيبه، وبيعها في المكتبات العامة، والسعي للإعلان عنها، ثم قلماً يسترد مصاريف هذه المطبوعات إلا إذا عرف كيف يُرضي الجمهور، أو نال شهرة في عالم التأليف والنشر!

ويلاحظ بجانب هذا أن أصدقاء الكاتب أو المؤلف وزملاءه في العمل أو في المهنة، عوض أن يشجعوه ويقفوا بجانبه بشراء إنتاجه على الأقل، يطلبون منه الإهداء، أو ينتظرون منه ذلك فإن هو لم يهد لهم امتعضوا ورأوا ذلك تفريطاً في جنبهم، وأذكر في هذا السياق أن مدير ثانوية قد بعث إليّ يرغب أن أبعث إليه 42 كتاباً من كتبي ليعمر مكتبة الثانوية ولم يفكر في شراء كتاب أو كتب منها مساعدة للمؤلف، كما أذكر أيضاً في هذا المضممار أن الكاتب الإسلامي المرحوم مصطفى صادق الرافعي ذكر أنه لم يكد يصدر كتاباً من كتبه حتى تهافت عليه رسائل ومكالمات يطلب أصحابها من المؤلف أن يرسل إليهم كتابه هدية، أو بنصف القيمة، فأجابهم بأن أغنياء العرب، لو كانوا كأغنياء الغرب لحققوا رغبات الطالبين كلها، ولكنهم منصرفون عن هذه الوجهة وغير مدركين لما ينجر وراءها لهم من الشرف والسؤدد والذكر الجميل في هذه الحياة الدنيا، والثواب والأجر في الآخرة!

إن الكاتب، أو العالم أعلى درجة وأسمى مكانة في المجتمع الإنساني نظرياً وإن كان عملياً في المؤخرة في أكثر البلدان العربية، إن لم نقل في جميعها، فهو أجدر الناس بالاحترام، والتقدير، والتشجيع، والمكافأة لا لشيء سوى أن المؤلف الواعي، والكاتب الملتزم بمثابة المصباح في الأمة، يبدد ظلامها، وينير جوانب حياتها، ويضيء أمامها طريق الرقي والازدهار، فالأمة تستطيع أن تشق الطرق الواسعة، وتشيّد المصانع الكبيرة، وتبني العمارات الشاهقة، وتمد الجسور العريضة الطويلة، ولكن إذا لم يكن لها علماء، ورجال الثقافة، وأرباب الفكر والعلم، يصنعون المعرفة ويبنّون الإنسان الواعي، الذي يعرف كيف يخطط، وكيف يبني وكيف ينحز، فليست في الحقيقة إلا جسماً بلا روح وهيكلًا مظلماً بلا مصباح، يظن أهلها أنهم قد أقاموا صرحاً موطد الأركان، يدوم ما دام الزمان فيقبعون فيه -آمنين مطمئنين- ولكنهم لا يلبثون أن يتهاوى البناء على رؤوسهم ويمسي ركاباً يباباً لأنهم لم يحصنوه من التصدع بالعلم والمعرفة والثقافة.

ومن السخرية المؤلمة أن نرى بعض البلدان في هذا العصر تقيم الوزن الكبير للعب الرياضة، وصاحب الزرناطة، ومحركات البطون والأرداف، وتطرح من حسابها وذهنيتها قيمة أهل الفكر والعلم والمعرفة، وترى أن المؤخرة هي مكانتهم الطبيعية لهم!

وهل هناك أجدر بالتقدير والاحترام والمكافأة والتشجيع من هذا الذي يعكف في مكتبه أو (جُحره) الساعات الطوال وهو يتصيد الكلمة اللائقة، والمعنى المناسب، والعبارة الدالة ويظل أياماً وليالي مسمراً على

الكرسي في حركة ذهنية لا تتوقف، ومعركة فكرية لا هوادة فيها ولا تني، من أجل أن يقذف إلى الوجود بهذه العصارة النيرة التي تحرك في النفس الإحساس العميق بالحياة، وتثير في الكيان ذلك الدم الزكي النادر الذي لا يثور إلا في عبادة خالصة، أو في فرح مقدس، أو ألم حافز مهماز، أو هكذا ينبغي أن تكون تلك العصارة؟

من هو أجدر بالتقدير من هذا الأديب، أو العالم أو الكاتب الذي يُشعرك أدبه أو علمه أو كتابته بأنك أعظم من جسدك الحيواني، وأنتك أوسع من تلك الكتلة اللحمية المحدودة التي تتحول يوما إلى تراب، ويتقاتل عليها الدود في أطباق الثرى، وأنتك باستمرار محوط بأسرار وقوى تخاطبك وتجادبك وتناغيك، ولكنك لا تسمع ولا تحس إلا إذا سمعت كلمة منبهة، أو كهريك معنى حي سام من قلم نظيف شريف حساس؟

وإذا كان الكتاب والمؤلفون يشتركون في المعاناة والاجتهاد من أجل الكلمة -على التفاوت بينهم في ذلك ومن هنا يستحقون التقدير والمكافأة- فإن الكتاب الجزائريين يستحقون التقدير أضعاف ذلك لأنهم مع معاناتهم المضنية لا يجدون لبنات أفكارهم من يخطبها!

وهنا أجدني مضطرا ومدفوعا إلى أن أعترف بفضل الله عليّ، الذي لا أستطيع أن أفي بشكره ولو تحولت جوارحي كلها إلى قلوب تتبض بهذا الشكر، وإلى السنة تعبر عنه، فكل كتبي تجري في مجرى طبيعي ميسر لا التواء فيه، ولا تنازل ولا استخذاء، ولا توسط ولا تزلف، وإنما الوضع العام الذي يعيشه الكاتب في بعض البلدان العربية وخاصة في بلدنا هو الذي لاحظناه!

● عودة الجوائز الأدبية:

ولنتحدث الآن بعد هذا التمهيد الطويل عن الجوائز الأدبية الذي هو، صلب موضوعنا لنلاحظ قبل ذلك أن الأديب الناشئ في البلدان العربية لا يختلف كثيرا عن الأديب في العالم الغربي، وإن كان الأديب هناك إذا قبل كتابه لا يراقب طبعه، ولا ينفق عليه، ولا يوزعه، ولا يعلن عنه، بل يتولى ذلك الناشر ومروج الكتاب، وقلّ من الكتاب الصغار والأدباء الناشئين من يسلم بجلده من هؤلاء التجار والوسطاء!

عرف هذا الوضع الذي يعاني منه الأديب، كثير من ذوي الثروة، وأعضاء الجمعيات الأدبية وكبار الكتاب الذين ذاقوا مرارة الفقر ولوعة الحاجة صغارا فوضعوا الجوائز المختلفة لتشجيع الأدباء من مؤلفين ومترجمين وكتاب وشعراء!

وبما أن فرنسا في البلدان الغربية خير مثال يبين عناية الغربيين بالأدب والعلم نسوق هذه الكلمة عن الجوائز الفرنسية في أوائل القرن الماضي، معتمدين في ذلك على مقال نشرته مجلة (الهلال) في الجزء السابع بتاريخ أبريل سنة 1922، ولا شك أن هذا الوضع للجوائز الأدبية قد تطور في العهد الأخير تبعاً للتطور في مختلف مجالات الحياة:

لجمعيات العلم والأدب في فرنسا القدر المعلى في هذا الباب، ناهيك بالجوائز الوقتية التي تعينها المكاتب المشهورة والمحلات الكبرى، وهذا بيان بأسماء المعاهد صاحبة الجوائز الدورية المشهورة:

- الأكاديمية الفرنسية

- أكاديمي النقوش والآداب الرفيعة

- العلوم الأدبية والسياسية

- جمعية رجال الأدب

- أكاديمي جونكور (الكاتب الروائي المعروف)

- اتحاد الأدباء المستقلين

- الجمعية الأهلية لتشجيع الأدب

- جمعية الشعراء الفرنسيين

- مبرات سولي برودوم، فولوب، لاسير

- جمعية آداب العلوم النفسية

مجلات: الشعراء، الحياة السعيدة، ليزانال... إلخ.

ولكل من هذه الهيئات طريقة في منح الجوائز، سواء في فحص المؤلفات التي يقدمها إليها أصحابها مطبوعة أو مخطوطة أم بالنظر في المطبوعات الحاضرة وانتخاب من يستحق منها الجائزة، أم بطلب مؤلفات في فنون معينة وإعطاء الجائزة للمستحق من المتقدمين، وتشترط أغلب الجمعيات أن يقدم إليها من الكتاب المطبوع خمس نسخ، وهي لا ترد سواء أحرز الطالب الجائزة أم لم يحرزها.

والأكاديمية الفرنسية هي محور آمال الكتاب على اختلاف درجاتهم لعظيم مكانة هذه الجمعية والشهرة التي ينالها من أحرز ثقتها ونال شيئاً من جوائزها المتعددة وأهمها:

جائزة مونتيون بمبلغ 18 ألف فرنك، وهي سنوية مخصصة للمؤلفين الفرنسيين الذين يشتهرون بعلو آدابهم وفائدة مؤلفاتهم!

جائزة جوبير بمبلغ 10 آلاف فرنك، خصّصها البارون جوبير سنوياً لأبلغ كتاب في تاريخ فرنسا.

جائزة توران سنوية بأربعة آلاف فرنك للمؤلفات التاريخية العامة.

جائزة جان رينو بعشرة آلاف فرنك، وتمنح لأحسن كتاب صدر في الخمس السنوات الماضية، بشرط أن يكون مبتكر الطريقة.

جائزة بمبلغ (3500) فرنك لكتاب يشتمل على رأي حديث.

جائزة توارك لأحسن تمثيل كوميدية نثرا أو نظما من الروايات التي يقبلها التياترو الفرنسي.

جائزة سوربيه أرنولد بمبلغ (2200) فرنك تقسم بالتساوي على مؤلفين من واضعي الكتب الأدبية لتهديب النشء بشرط أن يكونوا فرنسيين.

جائزة كورسيه بمبلغ (2400) فرنك لأحسن كتاب في موضوع تاريخ العصر الأول من تاريخ فرنسا (العصر المبرو فنجيني أو الكارلو فنجيني).

جائزة أبراد دلکرو بمبلغ (8000) فرنك وهي تمنح مرة كل خمس سنوات.

جائزة برجيه بمبلغ (15000) فرنك وهي خاصة بالمؤلفات المتعلقة بمدينة باريس.

جائزة فايان بمبلغ (3200) فرنك توزع على المؤلفين الذين يبحثون في موضوعات ترقية الأخلاق وتطهيرها من الأقدار.

وهناك جوائز أخرى كثيرة بمختلف المبالغ تعين لصغار المؤلفين والكتّاب المحتاجين الذين يُجيدون عملاً فكرياً يعالج غرضاً من الأغراض الكريمة النافعة.

ويحضرنا في هذا المضمّار أن (اللادي نور تكليف) الأنجليزية خصّصت جائزة قدرها (100) جنيه أنجليزي سمتها جائزة (فمينا والحياة السعيدة) وانتخبت لها لجنة تحكيم برئاسة (مدام سان أولير وسكرتارية الأنسة وينفريد ستيفنس)

وتألفت في باريس لجنة لسياحة الكتاب والشعراء، وهي تخصص سنويا مبلغ (3000) فرنك تمنح سنة لشاعر وسنة لكاتب لإنفاقها في سياحة علمية بعد أن يؤيد الطالب استحقاقه لذلك بمؤلف يقدمه إلى اللجنة.

وتجدر الملاحظة أن الجوائز الأدبية في فرنسا كثيرة ومتنوعة الهدف والغرض، فهناك جوائز في تاريخ الوطن وحضارته وأصالته، وهناك جوائز لتهديب النشء، وتوسيع مداركه الفكرية، وهناك جوائز لترقية الأخلاق النبيلة وتطهير السلوك من الأرزال، وهلم جرا، وبالتنافس في هذه المجالات الحيوية المختلفة ترتقي شؤون الأمة وتزدهر حياتها!

وإذا كان هذا وضع الأدب والعلم وجوائزهما في فرنسا منذ قرن من الزمن، فما بالك في هذا العصر، الذي تطور فيه كل شيء، وازدهر العلم ازدهارا باهرا يثير الدهشة، وصار ضروريا لوجود الإنسان وتنازعه للبقاء؟ وما كان مجهولاً أمام الإنسان في هذا الوجود الهائل أكثر كثيرا مما أصبح معلوما، فما أكثر ما في الحياة من مجاهيل، وأسرار، وحقائق، ودقائق، ومعميات ومعتمقات، ولكن البحث المتواصل المدعم بالتشجيع الأدبي سيكشف عن المجهول، فما على رجال الفكر والأدب والقلم إلا أن يواصلوا المسيرة، وما على الذين يدركون مكانة التشجيع وأهميتها في تشحيد القريحة، وحفز الهمة، إلا أن يدركوا -ولا شك أنهم قد أركوا- أنهم بتشجيعهم هذا ينفخون في الأمم روح التقدم والتمدن، ويساهمون في إضاءة الوجود بنور المعرفة، ويبرهنون بعملهم هذا على أنهم أصحاب الأفئدة والبصائر، يرون الجيد من الرديء، والنافع من الضار، والحسن من القبيح، ويرون أقرب الطرق وأنجع الوسائل لتحقيق الرفاهية والازدهار.

ولسنا في حاجة بعد هذا أن نتوسع في الموضوع بذكر الجوائز الأدبية التي يعلن عنها من حين لآخر في مختلف البلدان العربية والإسلامية، حسبنا فقط أن نسجل أن الجوائز التقديرية تقلد حسن شائع في البلدان العربية الإسلامية، كما هو شائع في البلدان الغربية على التفاوت بينها.

ويجدر بنا أن نلاحظ أن المسابقة الأدبية قد تكون لاستحثات قادة الفكر لاختراع أو اكتشاف أو تأليف كما فعلت أكاديمية تورينو العلمية الملوكية (Academie Royale des Sciences a Turin).

حيث نشرت إعلانا سنة 1897 إلى علماء الأرض ومخترعيها من جميع الملل والنحل واللغات والنزعات يقضي بأن تدفع جائزة مقدارها عشرة آلاف فرنك لمن يخترع أهم اختراع، أو يؤلف أحسن تأليف في علم من العلوم الطبيعية، أو التاريخ الطبيعي، أو الرياضيات، أو الكيمياء، أو الفسيولوجيا، أو الباثولوجيا، أو الجيولوجيا، أو التاريخ، أو الجغرافيا، أو الإحصاء⁽¹⁾

وكما وقع سنة 1895 حيث أعلنت الأكاديمية العلمية في بولونيا أنها تدفع جائزة مقدارها أربعون ليرة أنجليزية لمن يصف لها طريقة أو اختراعا أو آلة لمنع الحريق أو لإطفاء النار بوسائط كيميائية أو طبيعية أو ميكانيكية، وباب المسابقة مفتوح لأرباب العقول من سائر الأمم واللغات والأجناس⁽²⁾

وعلى كل فالمسابقة الفكرية، لأي غرض أو هدف كانت نتيجتها حسنة هي حفزا لهم، وإثراء العلم والأدب!

(1) الهلال ج 11 س 5 فبراير سنة 1897.

(2) الهلال ج 19 س 3 يونيو 1895.

والجوائز الأدبية كما تخلد ذكر من أحرزها تخلد ذكر من يرصدها
ويمنحها، فهي ذات أثرين هامين يظل التاريخ يحفظ بهما لأصحابهما
مدى الحياة!

والجزائر هي الأخرى عرفت الجوائز الأدبية على قُلَّتْها، وآخر جائزة
أعلن عنها، هي جائزة المجلس العلمي للغة العربية.

والمثير للأسى أن كثيرا من الجوائز الأدبية متحيزة في قصدها
متأثرة بروح العصر في اختيارها، ولذا فكثيرا ما يُحرَم منها مستحقها،
وينالها غير الجدير بها!

● جائزة نوبل:

وإذا كانت بعض الجوائز الأدبية التي ظهرت عبر السنوات المختلفة
الماضية إن لم نقل معظمها تغلب عليها السمة التجارية، فإن هناك
جوائز ظهرت خلال القرن العشرين صادقة في اعترافها بالتفوق الأدبي
أو العلمي، أو على الأقل قبل أن تنحرف عن جادَّتْها وتلتوي بها الأغراض
المختلفة عن طبيعتها ووجهتها، ونذكر من هذه الجوائز (جائزة نوبل) في
بلاد السويد، وجائزة (جونكور) (Goncourt) والجائزة (الهوثرورية)
(Hawthorne) في إنجلترا وجائزة (بولتزر) (Pulitzer) في أمريكا.

وهناك جوائز أخرى ظهرت بعد ذلك تعبر عن اعترافها بقيمة
الأديب أو العالم، ولكن المجال لا يسمح لنا بتتبع ذلك أو بعرضه،
وحسبنا أن نتحدث بشيء من التفصيل عن جائزة نوبل لأنها أعظم
الجوائز في عالم الأدب لحد الآن -فيما نعلم- لأنها لا تُؤثر قومية على
أخرى، (ثم إِنَّهُ لا يحكم بها من أجل كتاب مفرد بل يجري الحكم بها بعد
التثبت من صلاحية شطر من مؤلفات أديب بذاته، وهي لهذا السبب

غالبا ما تُمنح في خريف حياة الكاتب الأدبية وبعد أن يستكمل نضوجه الأدبي، وتشبه جائزة نوبل في ذلك اعتراف الشهود على ميت بطيبته وحسن عمله في الحياة⁽¹⁾.

أما تاريخها، وكيفية ظهورها، وبعض الذين حصلوا عليها فهاكه فيما يلي مستقًى من أهم المصادر وأوثقها:

توفي ألفرد نوبل العالم السويدي الشهير ومخترع الديناميت في سنة 1896 وأوصى أن توقف ثروته المقدرة بنحو 1.950.000 جنيه على تحسين حال الإنسانية بحيث يصرف ريعها السنوي (وقدره نحو 8160 000 جنيه) جوائز للذين أدوا أجلّ الخدمات في أثناء السنة. أما عدد الجوائز فخمسة: (جائزة لمن يتوفق إلى أهم اكتشاف أو اختراع في الطبيعيات، وجائزة لمن يتوفق إلى أهم اكتشاف أو تحسين كيماوي، وجائزة لمن يتوفق إلى أهم اكتشاف في الفيسيولوجيا أو الطب، وجائزة لمن ينتج أفضل أثر أدبي فيه نزوع إلى الكمال المعنوي، وجائزة لمن يبذل أعظم سعي في سبيل تآخي الأمم وإلغاء التجنيد أو تخفيضه وعقد المؤتمرات السلمية).

أما تقرير المستحقين لتلك الجوائز فعلى الصورة الآتية:

جوائز الطبيعيات والكيمياء تمنحها أكاديمية العلوم السويدية وجائزة الفيسيولوجيا والطب يمنحها معهد كارولين (وهو اسم المعهد الطبي في ستوكهولم) وجائزة الأدب تمنحها الأكاديمية السويدية بـستوكهولم، وجائزة السلم تمنحها لجنة مؤلفة من خمسة أشخاص ينتخبهم مجلس الأمة النرويجي.

(1) الرسالة ع 172 القاهرة 19 أكتوبر 1936.

وهذه المعاهد الأربعة تنتخب كل سنة 15 مندوبا (3 عن كل منها ما عدا أكاديمية العلوم التي توفد 6 مندوبين) وهؤلاء المندوبون ينتخبون لجنة لإدارة العمل مؤلفة من أربعة أشخاص (كلهم سويديون) مقرها ستوكهولم. ثم أن الحكومة تضيف إلى هؤلاء الأربعة عضواً خامساً تعينه. وهذه اللجنة تتولى جميع الشؤون المتعلقة بهذا العمل الجليل. والجوائز توزع في العاشر من شهر ديسمبر وهو يوم وفاة ألفرد نوبل.

قائمة بأسماء بعض الحائزين على جائزة نوبل:

وهاك قائمة بالذين حصلوا على تلك الجوائز (من سنة 1901 إلى 1917) مع بيان جنسية كل منهم:

السنة	الطبيعيات	الكيمياء	الطب	الأدب	السلم
1901	رنتجن (ألماني)	فان هوف (هولندي)	فون بهرنج (ألماني)	سولي بردوم (فرنسي)	دونان (سويسري) وباسي (فرنسي)
1902	لورنتز وزيمن (هولنديان)	فيشر (ألماني)	رونلد روس (أنكليزي)	مومسن (ألماني)	دوكومان وغوبا (سويسريان)
1903	بكريل وكوري (فرنسيان)	أرهينيوس (سويدي)	فينسن (دانماركي)	بجورنسن (نرويجي)	كريم (أنكليزي)
1904	لورد ريلي (أنكليزي)	وليم رمسي (أنكليزي)	باولوف (روسي)	ميسنرال (فرنسي) وايشيفري (إسباني)	معهد القانون الدولي

1905	لينارد (ألماني)	فون باير (ألماني)	كوخ (ألماني)	سينكيفكز (بولوني)	بارونة فون ستتير (نمساوية)
1906	تومسن (أنكليزي)	مواسان (فرنسي)	كولجي (إيطالي) كاجال (إسباني)	كردوتشي (إيطالي)	روزفلت (أمريكي)
1907	ميكلسن (ألماني)	بوخنر (ألماني)	لافيران (فرنسي)	كيبلنغ (أنكليزي)	مونيتا (إيطالي) ورينولت (فرنسي)
1908	ليبسن (ألماني)	روثرفرد (أنكليزي)	أرليخ (ألماني) ومتشنيكوف (روسي)	أوكن (ألماني)	أرنولدسن (سويدي)
1909	ماركوني (إيطالي)	أوستوالد (ألماني)	كوخر (ألماني)	لاجرلوف (سويدية) بيرنارت (بلجيكي)	بارون دي كونستان (فرنسي)
1910	فان در والس (هولندي)	والاخ (ألماني)	كوسل (ألماني)	هيز (ألماني)	مكتب السلم الدولي (سويسرا)
1911	وين (ألماني)	مدام كوري (فرنسية)	جولستران (سويسري)	ميتزلنك (بلجيكي)	آسر (هولندي) فرايد (نمساوي)

1912	دالن (سويدي)	جرينيار وساباتيه (فرنسيان)	كارل (أمريكي)	هوبتمن (ألماني)	روت (أمريكي)
1913	أونس (هولندي)	ورتر (سويسري)	ريشه (فرنسي)	تاغور (بنغالي)	لافونتين (بلجيكي)
1914	فون لاو (ألماني)	ريتشاردس (أمريكي)	باراني (نمساوي)	لم يمنح	لم يمنح
1915	براج وبراج (أنكليزيان)	ويلستاتر (ألماني)	لم يمنح (فرنسي)	رومان رولان	لم يمنح
1916	لم يمنح	لم يمنح	لم يمنح	هيدنستام (سويدي)	لم يمنح
1917	لم يمنح	لم يمنح	لم يمنح	لم يمنح	جمعية الصليب الأحمر

بين الأدب والسياسة

والجوائز على اختلافها، مكانا ومكانة، ووزنا وأهمية، وغرضا وهدفا، غالبا ما تثير حساسيات، أو انتقادات، أو ملاحظات أو تفضي إلى غبن مؤلم أو تحزب عواطف نحو جهة ما، وحسبنا في هذا أن نذكر -كمثال على ذلك- ما نشرته مجلة (الرسالة) الزياتية في عددها 779 - بتاريخ 23 رمضان 1353 هـ، 7 ديسمبر 1936م من أن اللجنة المختصة بجامعة (استوكهولم) قررت أن تمنح جائزة نوبل للسلام عن سنة 1935م للكاتب الألماني: (كارل فون أوسيتسكي)، وعن سنة 1936 للدكتور سافدرا لاماس سفير جمهورية الأرجنتين في لندن، وذلك لما أبداه كل منهما في سبيل قضية السلام من خدمات وجهود.

وليس في قرار جامعة استوكهولم ما يثير الدهشة، لأن جائزة نوبل للسلام تمنح كل عام كباقي جوائز نوبل الأخرى عن العلوم والآداب والفنون، وقد منحت في الأعوام السابقة لكثير من الكتاب والساسة مثل مسيو بريان رئيس وزارة فرنسا السابق، والسير نورمان أنجل الكاتب الإنجليزي المعروف.

وقد منحت جائزة نوبل للهرفون أوسيتسكي (Von Ossietzky) تطبيقاً لدستور نوبل الذي يقضي بأن تمنح هذه الجائزة «لكل من قام بأكبر جهد وبأفضل جهد في سبيل توثيق روابط الأخوة بين الشعوب، أو في سبيل تخفيض السلاح، أو نشر الدعوة إلى السلام»، وقد لبث فون أوسيتسكي مدى أعوام ييث بقلمه الدعوة إلى السلام من منبر الصحافة، ولا سيما في صحيفة "القلت بينه" (Welt Buehne) (مسرح العالم) التي كان يحررها مع صديقه وزميله في الدعوة إلى السلم الكونت فون جيرلاخ الكاتب السياسي الكبير الذي توفي قبل شهر في منفاه في باريس.

ولكن حكومة برلين النازية ترى في منح جائزة السلام لهذا الكاتب الألماني إهانة لها، وتحتج على ذلك رسمياً لدى حكومة السويد، ولماذا؟ لأن كارل فون أوسيتسكي يعتبر في نظرها خائناً لوطنه، فتكريمه بهذه الصورة من هيئة عالمية يعتبر مناقضاً لواجب المعاملة الدولية، بل يعتبر استفزازاً لألمانيا.

وإليك قصة كارل فون أوسيتسكي المحزنة، ولماذا تعتبره ألمانيا الهتلرية خائناً لوطنه: كما جاء ذلك في المرجع المذكور: كان فون أوسيتسكي من دعاة السلم كما قدمنا، وكان كاتباً مستقلاً لا ينتمي لأي حزب سياسي، وإنما ييث دعوته السلمية بالكتابة الملتهبة، ويدعو إلى تفاهم الشعوب ونزع السلاح بكل قواه، ويحمل على السياسة العسكرية لأنها خطر على السلام والمدنية؛ ولم تكن هذه الدعاية مما يتفق مع مبادئ الوطنية الاشتراكية ونزعته العسكرية؛ فلما قبض الوطنيون

الاشتراكيون (النازي) على زمام الحكم في سنة 1933، كان فون أوسيتسكي ممن قبض عليهم من الكتّاب المعارضين للمبادىء الهتلرية؛ فزج به من ذلك الحين في أحد معسكرات الاعتقال المشهورة دون محاكمة أو تهمة معينة، وعانى في الاعتقال ضرباً مرهقة من الحرمان والتعذيب؛ والتمس كثير من الهيئات الأدبية والكتّاب في مختلف الأمم من الحكومة الألمانية أن تطلق سراحه فأبت حتى أشرف الكاتب المعتقل على الموت، وعندئذ فقط سمحت بأن يغادر معسكر الاعتقال إلى أحد المستشفيات، حيث بقي تحت الحجر والاعتقال.

ورأت الهيئات الأدبية المختلفة وأكابر الكتّاب في أنحاء العالم أن يلفتوا نظر جامعة السويد إلى قصة هذا الكاتب الشهيد لكي تمنحه جائزة نوبل للسلام، واشترك في تقديم هذا الطلب رومان رولان، وأبتون سنكلير، وهنريش مان، والفيلسوف ليقي بريل، وأميل لودفيج، وجيلمو فيريرو وغيرهم، تقديراً لخدماته وكتاباتة الكثيرة في سبيل قضية السلام؛ وكان أن شاطرت اللجنة المختصة تقدير الرأي العالمي ومنحت كارل فون أوسيتسكي هذا الشرف العظيم.

أما اعتبار الحكومة الألمانية مواطنها خائناً، فلأنه كان قبل تبوئها الحكم بأعوام، يكافح بالقلم في سبيل السلام.

ولا نرفع القلم عن قضية الجوائز الأدبية دون أن نسجل أن في البلدان العربية والإسلامية جوائز أدبية كثيرة مختلفة، منها السنوية الدائمة، ومنها التي تُمنح في مناسبات، والتي تمنح لاستحثاث الهمم وحفز العزائم، والتي تمنح لمن قدم خدمات فكرية جلية في مجال ما. ومنها التي يعلن عنها لتشجيع الناشئين من حين لآخر في الصحف والمجلات كمجلتي العربي، والهلال.

وللوفاء لأهل الوفاء نُسجل هنا موقف السيد الحبيب بورقيبة رئيس الجمهورية التونسية من الأدب وهواته، والشعر ورجاله، فقد كان يحفز همم الشعراء والكتّاب، ويُفجّر في أعماقهم كوامن العبقرية فكان في مختلف جولاته عبر الوطن، يكتشف المواهب الخصبية، والطاقات الحية، فينمّيها ويشجّعها، ويرصد لها الجوائز التقديرية في مختلف الأحداث التاريخية الهامة، فيتبارى الكتّاب والشعراء في منافسة شريفة راية الفوز فيها للقريحة المتوقدة، والشاعرية المتميزة!

ونذكر من تلك العكاظيات التاريخية التي تزهو بها تونس الشقيقة، عكاظية عيد الاستقلال سنة 1957 التي افتتح الرئيس سوقها يوم 5 أكتوبر بمناسبة عيد المولد النبوي الشريف، وذلك بمدينة القيروان، وتقدم إلى الميدان خمسة وثلاثون شاعراً من شعراء العربية الفصحى، أحرز منهم على الجوائز واحد وعشرون شاعراً، وفي مساء يوم 20 ديسمبر 1957 أقام الرئيس الحبيب بورقيبة بقصره في سعادة احتفالا لتوزيع المكافآت على المجيدين، وافتتح الحفل بخطاب جاء فيه بالخصوص:

«هناك لحظات كلحظتنا هذه ننسى فيها كل المشاكل الأخرى ونتفرغ للأدب والشعر، وهو جزء من الحياة لأن البشر كما يحتاجون إلى الكرامة والحرية يحتاجون أيضا إلى الغذاء الفني والأدبي، وهذا سنة من سنن البشر! وقد رأينا أن من واجب الدولة تشجيع الأدب والأدباء، وليس المقصود من هذا التشجيع خلق القرائح، ولكن الهدف هو تنميتها، وإفساح المجال لها حتى تزدهر وتزيل العقبات المادية، ولو أنه في بعض الأحيان تكون التعاسة المادية سببا من أسباب العبقرية، وهذا شيء جربناه هنا في تونس⁽¹⁾.

(1) عكاظية تونس، الحلقة الأولى ص3.

التاريخ بالأوسمة

التكريم بالأوسمة

● التكريم بالأوسمة

وهناك التكريم بالأوسمة، وهذا يكون للمدنيين والعسكريين، الذين لهم الكفاءات والخدمات الجليلة وهو تقليد كان متبعاً في العصور الوسطى، ولا يزال موجوداً معمولاً به في بريطانيا وغيرها. ومن أشهر الأوسمة الأوروبية المدنية:

وسام الجزة الذهبية، أنشئ سنة 1429 - 1430، وكانت تمنحه النمسا وإسبانيا، وكانت الدانمارك تمنح وساما (دانبروج) (1219) والفيل (1462) وإيطاليا وسام (أنانشياتا) 1362 ووسام (موريس، ولازاروس 1434 والوسام (البابوي) وهو المهماز الذهبي 1559 وبروسيا (النسر الأسود) و(النسر الأحمر) ووسام (الجدارة) وتمنح بولندا (النسر الأبيض) وفرنسا (لجيون الشرف).

أما الأوسمة العسكرية التي تُمنح لأعمال البطولة في أثناء المعارك والحروب تكريماً لشجاعتهم وبسالتهم فهي كثيرة: من أشهرها:

- صليب الحرب (فرنسا)

- الصليب الحديدي (ألمانيا)

- صليب فكتوريا والخدمة الممتازة (أنجلترا)

- ميدالية الشرف (للكونجرس) 1862.

- صليب الخدمة الممتازة (الولايات المتحدة).

النجمة الحمراء، ووسام النصر، ووسام لينين (روسيا)⁽¹⁾

وفي البلدان العربية والإسلامية أوسمة مدنية وعسكرية لا يتسع المجال لعرضها، وحسبنا أن نذكر منها أوسمة الجزائر في عهد الثورة التحريرية وعهد الاستقلال!

(1) انظر (الموسوعة العربية الميسرة) ومجلة (الهلال) فبراير 1915 ج 5 س 23.

بعد استشهاد البطالين: عميروش وسي الحواس بأيام قليلة، أي شهر مارس 1959 أصدرت الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية قرارا يقضي بتكريم الشهداء والأبطال، وبدا تطبيق هذا القرار بمنح أرفع النياشين للبطالين الشهيدين: عميروش وسي الحواس.

وبهذه المناسبة التاريخية الخالدة نشرت صحيفة (المجاهد) اللسان المركزي لجبهة التحرير الوطني هذا القرار وهذا نصه:

دخلت ثورتنا المجيدة مرحلة جديدة في الكفاح الوطني منذ إعلان قيام الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية في 19 سبتمبر 1958 حيث تجسدت إرادة الشعب الجزائري في الحرية والاستقلال تجسيما عمليا بانبعث دولته الفتية، وظهورها في الميدان الدولي كحقيقة حية تعبر عن إرادة شعبنا، وتبلور آمانيه ومشاعره الوطنية، وقد تميزت هذه المرحلة الثورية الوطنية العظيمة بمباشرة الحكومة الجزائرية أعمال السيادة الوطنية في جميع الميادين التي تخص الجزائر!

وفي قرار الحكومة الجزائرية الخاص بتكريم الشهداء والأبطال، وإنشاء الأوسمة ليرمز إلى شيء عظيم الأهمية، فإن كفاح الجزائر زاهر بالبطولات الخالدة ولا يمكن أن تمر هذه البطولات منسية مهمة!

فلكي تحتفظ الأجيال بذكرى أبطالها الخالدين، ولكي تكرم الشهداء والأبطال والمضحين بكل أنواع التضحية والمناضلين في جميع ميادين النضال، صدر هذا القرار وبدا تطبيقه العملي بمنح أرفع النياشين وأسمى أشكال التقدير الوطني، والتكريم الثوري للشهيدين العظميين الفقيد عميروش والفقيد سي الحواس رحمهما الله⁽¹⁾.

(1) العدد 40 - 9 شوال 1378 هـ - 16 مارس 1959 م.

وكان في الثورة وسامان أحدهما: هلال الجهاد، والآخر وسام المقاومة. وفي المجاهد المذكور صورتان لشكلهما!

أما في عهد الاستقلال فقد تم تكريم المجاهدين بميداليات تطبيقا لقانون صدر في جانفي سنة 1984 وهي هذه:

- ميدالية الشهيد: (شهيد حرب التحرير الوطني).
- ميدالية المعطوب - عطبا كبيرا - من جرّاء حرب التحرير أيضا.
- ميدالية جيش التحرير الوطني.
- ميدالية المقاوم.

وتمنح هذه الميدالية من طرف رئيس الجمهورية بواسطة مرسوم، وباقتراح من وزارة المجاهدين بعد إشعار منظمة المجاهدين ووزارة الدفاع الوطني!

ترتيب الاستحقاق الوطني

إن ترتيب الاستحقاق الوطني يضم ثلاثة تشريفات، وثلاث مراتب:

- الأثير
- العميد
- الصدر
- العشير
- الجدير

إن عملية التقليد لمصاف التقدير الوطني تمنح مقابل الخدمات الاستثنائية المقدمة للثورة وكذا نظير الخدمات الجليلة المقدمة ضمن نشاط مدني أو عسكري للدولة!

وهي كذلك مكافأة وتقدير للمواطنين الذين يساهمون في إظهار ورفع صورة ومكانة الجزائر بين الأمم!

الاحتفال بالذكرى بختم خليل في منطقة القبائل

الاحتفال التكريمي بختم خليل في منطقة القبائل

جرت العادة في منطقة القبائل أن يحتفلوا بختم مختصر خليل في الفقه المالكي، والغاية من الاحتفال التبرك، وجمعُ المال من المدعويين لصالح الزاوية التي تدرّس فيها العلوم ومنها الفقه بكتاب خليل، وتكريم الشيخ الذي درّس خليل وختمه.

فعندما يتم ختم خليل يُنادى في مختلف الأسواق الأسبوعية أن هناك حفلا يقام بزاوية كذا يوم كذا، فيجتمع في تلك الزاوية عشرات الآلاف من الناس رجالا ونساء، وغالبا ما تقام لهذا الغرض منصة يجلس عليها من قام بتدريس خليل وحوله أهل العلم والمعرفة وحفظة القرآن والأعيان، ليستمعوا إلى درس يختم به المحتصر، ثم يقدم للعامة مواعظ وتوجيهات تضيء لهم جوانب حياتهم الدينية والدنيوية، ثم تجمع الأموال لفائدة الزاوية كل حسب قدره واستطاعته تطوعا ولا يكلف أحد بما ليس في وسعه، ثم يقدم الطعام ويوزع حسب القرى والعروش.

ولهذا الحفل حسنات وسيئات نذكر أهمها فيما يلي:

فمن حسناته تكريم الفقه والاحتفاء به وقد قيل:

واحتفل للفقه في الدين ولا تشتغل عنه بمال وخول

واهجر النوم حصّله فمن يعرف المطلوب يحقر ما بذل

والاجتماع للتعارف والتذاكر، والاستماع إلى مواعظ وتوجيهات،

والانتفاع بها لجلال الموقف الفقهي الشرعي والناس جميعا يجلون

الشريعة، ويعظمون المشائخ، ويحترمون الزوايا، ويعرفون أن سبب هذا اللقاء هو ختم الشيخ الخليل، وفي ذلك من التقدير له والتبجيل ما لا يحصى، إذ تظل القلوب تخفق بحبه، والألسن تتوه بذكره، وهذا التكريم معنوي، لا يضاهيه تكريم، ثم إلى جانب ذلك تلك الإعانة التي تجمع لصالح الطلبة الذين يدرسون في الزاوية، وهم في أشد الحاجة إليها ليواصلوا دراستهم، ومن حسنات الحفل أيضا إطعام الطعام، فإن كثيرا من الفقراء ينتظرون ذلك بفارغ الصبر، فقد يمضي على الواحد منهم عام دون أن يشبع الطعام، ولا شك أن في كل هذا تجديدا للصلة الاجتماعية بين الناس على أقوى ما تكون حبا ووفاء وإخاء!

أما سيئاته فيمكن إيجاز أهمها في هذين الأمرين:

أولهما: ما يرتكب عادة وغالبا في هذه الزوايا من البدع والخرافات، كالتوسل بأهل القبور، والاعتقاد بأنهم يقضون الحاجات، ويشفون من الأمراض والعاهات، وأن السعيد من نال رضاهم، ومما نشأ من البدع وضع الستور على تابوت الولي الذي لا تخلو منه الزاوية، فترى الزوار يتنافسون في تقبيلها ومسح الوجوه بها للتبرك والتقرب، وكل ذلك ضلال لا يرضاه الله لعباده المؤمنين، ولا ينبغي أن يتسفلوا إليه وهم يحملون عقيدة الإسلام النقية السامية، وقد جاء الاستقلال بالعلم والمعرفة فاكتسح كل هذا الضلال، ورفع العقول إلى آفاق الوعي والإدراك والرؤية الواضحة الصحيحة!

ثانيهما: ختم الشيخ خليل مختصره بقضية إرث الخنثى المشكل وتقدير مسائله التي يستقبح التصريح بها عرفا وخاصة بين أهل القبائل

الذين اشتهروا بالحياء، فشيخ الزاوية يلقي الدرس الاختتامي أمام هذه الجماهير في مشكل الخنثى، فتسمعه يذكر، الفرج، والحيض، والمنى، والبول، كما ذكرها الشيخ خليل، والجو لا يسمح بلك والذوق يترفع عنه. حضر العلامة الشيخ أبو يعلى الزواوي إحدى هذه الحفلات فتألم مما سمع وكتب في الشهاب مقالات تحت هذا العنوان: (فقهاء الزواوة وختم مختصر خليل في الفقه) قال فيه بالخصوص:

إن الحكمة (أن يتفطن إخواني الفقهاء إلى أقل شيء وهو أن ختم الشيخ خليل بأشكال إرث الخنثى المشكل وتقرير مسأله المستقبحة عرفا كقوله: (فإن بال من واحد أو كان أكثر أو أسبق أو نبتت له لحية أو ثدي أو حصل حيض أو مني) والحال أن البربر عموما والزواوة خصوصا شديدو الحياء من ذكر المستقبح ولو في غير الجموع ففيهم قال الشاعر:

قوم لهم شرف العلى من حمير وإذا ائتموا صنهاجة فهم هموا
لما حووا إحراز كل فضيلة، غلب الحياء عليهموا فتلنموا

فبسبب هذا التفطن، وبسبب مراعاة المناسبات وبسبب أن الشيخ خليل رحمه الله غفل عن هذا وهو هو فلا بد أن يتفطنوا كما تفطن ابن رشد الحفيد، فقد ختم بالقضاء والشهادة، أو بالوصية كما فعل غير الشيخ خليل من الفقهاء⁽¹⁾

وأغلب زوايا العلم والقرآن في منطقة القبائل، تدرس الفقه المالكي في مختصر الشيخ خليل، وتختمه بإقامة حفل كبير، تبركا وترغيبا في

(1) ج 9 م 7 غرة ربيع الأول عام 1350 هـ الموافق جويلية سنة 1931 م.

العلم، وتتويها بجهد الشيخ المدرس وتكريما له، ولكن أشهر هذه الحفلات حفلان حضرتهما وسيظلان منقوشين في أعماق نفسي، أحدهما بزاوية سيدي منصور ببني جناد ولاية تيزي وزو، وكنت إذ ذاك لا أتجاوز العاشرة من عمري، رأى والدي -رحمه الله- وهو خريج هذه الزاوية أن يصحبني معه للتعرف على أهل العلم وحفظة القرآن الذين سيتلاقون في هذا الحفل، وفي ذلك حفز للهمة، وشحذ للقريحة، وتشجيع على المضي في طلب العلم على حد تعبير الوالد.

ولا أنسى -ما عشت- التفاف طائفة من أهل العلم حولي في شيء من العجب والإعجاب حين علموا أنني حفظت القرآن في التاسعة من عمري، وأني أحفظ التلخيص للخطيب القزويني، وعدة قصائد من مختلف الشعراء، وأخذوا يتنافسون في عرض أسئلتهم واستفساراتهم، وكان هذا بعد ختم الشيخ لمختصر خليل وتوجيه كلمات إلى العامة ثم إلى طلبة العلم، مما جعل المعجبين بي يدعون لي بالتوفيق في طلب العلم حتى أقوم بتدريس خليل وختمه كما فعل الشيخ في هذا اليوم!

أما الاحتفال الثاني ففي زاوية الشيخ عبد الرحمن اليلولي بجبل (إيلولن) بجرجرة.

ففي يوم الأحد 14 ربيع الثاني سنة 1352 الموافق ليوم 8 جوان 1938 أقام هذا المعهد حفلا بهيجا بمناسبة ختم العالم الأزهري الشيخ الرزقي الشرفاوي لدرس الفقه بمتن الشيخ خليل وشرح الخرشي، وقد حضر إليه آلاف من العلماء، والطلبة وعامة الناس من مختلف أنحاء القطر الجزائري، وخاصة من منطقة القبائل، وممن حضر من العلماء العلامة الفلكي الشيخ المولود الحافظي الأزهري والأستاذ أحمد بن زكري مدير

المدرسة الثعالبية، والشيخ السعيد يجري معلم أجيال ومربيها، واللغوي المعروف بتتبعه لمعميات اللغة وغموضاتها الشيخ علي الصدقاوي والظريف الخفيف الشيخ الطيب وعمارة وغيرهم.

وألقى الشيخ الرزقي في الجموع الحاشدة خطابا تاريخيا هاما، لم يجر على سنن خليل ومن يختمون مختصره من الختم بأشكال إرث الخنثى المشكل، بل تحدث عن مكانة الفرد في الأسرة ومكانة الأسرة في المجتمع، وركز في نظرة واضحة، وفكر عميق على أن العناية بعلم الأسرة والمجتمع يجب أن لا يقل عن العناية بالرزق والثروة ومختلف شؤون الحياة، ولاحظ أن الإسلام هو أرقى الأديان والشرائع عناية بتوازن القوى المختلفة في المجتمع.

وتحدث بإسهاب عن التعليم في الجزائر وفي منطقة القبائل بالخصوص ودعا العلماء إلى التكتل ليتمكنوا من خدمة الإسلام بنشر قيمه وفضائله، وندد بالبدع والانحرافات التي شاعت في المنطقة بالخصوص وذكر بمشاهير العلماء في زواوة، أمثال ابن معطي والمشدالي وأحمد الإدريسي!

ثم ارتجل الأستاذ أحمد بن زكري خطابا ركز فيه على أهمية الزوايا العلمية والقرآنية بالمنطقة وخاصة هذه الزاوية الشهيرة التي تعاقب على التدريس بها علماء أجلاء أمثال الشيخ أبي القاسم البجلي صاحب (التبصرة) والعلامة الفلكي المولود الحافظي صاحب أعمال فكرية هامة، والعلامة الأصولي الشيخ الرزقي الشرفاوي، المؤلف المربي، وقد

أشاد بهذا الأخير طويلا، ولاحظ أنه جدير بكل تكريم لعلمه الغزير،
وجهاده الفكري المستميت في سبيل نشر العلم وتربية الأجيال!
وقد تحدثت جريدة (البصائر) عن هذا الحفل التاريخي التكريمي في
مقال حرره أحد الحاضرين في الحفل وعلقت إدارة التحرير عليه بقولها:
(نحن لا نجهل قيمة الزوايا ببلاد زواوة الكريمة، فهي معاهد لنشر
الدين والقرآن العظيم، بعيدة كل البعد عما اشتهرت به الزوايا الأخرى من
الزهد في العلم ومحاربة أهله والاحتفاء بكل بدعة⁽¹⁾)

(1) ع 121 بتاريخ 10 جويلية 1938.

تكملة الأموات

تكريم الأموات

تمهيد:

يقول الله تعالى في سورة (يس) الآية 12:

«إنا نحن نُحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في إمام مبين».

أي أن الله تعالى يُحصى على الموتى ما قدموا بين أيديهم من حسن أو سيء، ويسجله في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، كما يكتب ويسجل كل ما خلفوه وراءهم من آثار صالحة أو فاسدة، فكل ما تركه الأموات بعد موتهم من آثار بين الناس يبقى يدل على مرورهم بهذه الأرض يوما، سواء أكان خيرا أم شرا، يبقى وراءهم يذكر بخيرهم أو شرهم، بوجودهم فوق هذه الأرض ينابيع خير أو ينابيع شر، هداة إلى النور أو هداة إلى الظلام!

يقول الإمام الألوسي في تفسيره لقوله تعالى: «ونكتب ما قدموا وآثارهم»، أي آثارهم التي أبقوها بعدهم من الحسنات، كعلم علموه، أو كتاب ألفوه، أو حبيس وقفوه، أو بناء في سبيل الله تعالى بنوه، وغير ذلك من وجوه الخير، ومن السيئات كتأسيس قوانين الظلم والعدوان، وترتيب مبادئ الشر والفساد فيما بين العباد، وغير ذلك من فنون الشرور التي أحدثوها وسنوها بعدهم للمفسدين».

وفي هذا المعنى يقول الرسول صلى الله عليه وسلم:

(من سنَّ في الإسلام سنة حسنة، فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سنَّ في الإسلام سنة

سيئة كان عليه وزرها، ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء⁽¹⁾

وفي رحاب الآية الكريمة: «ونكتب ما قدموا وآثارهم»، وبالاستئناس بها، نسجل أن ذكر مناقب الميت، وتعداد محاسنه، والإشادة بفضله، والتنويه بإيجابيته وفعاليتها في حياته، أمر جميل ومندوب، وتقليد حسن مفيد، وفائدته تكريم الميت بنشر فضائله، وتوجيه الأنظار إليه والدعوة إلى ترسم خطاه على طريقه القويم!

وذكر محاسن الأموات ونشرها والإشادة بها بين الناس مأمور به، ومرغوب فيه، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم (اذكروا محاسن موتاكم، وكفُّوا عن مساوئهم)⁽²⁾

وهو ما يعرف بالثناء أو التأبين:

والعاقل، والناجح أيضا من شغل الناس بفضائله ومحاسنه حيا وميتا، وعاش قبل موته حيا بعمله الصالح البناء، وعاش بعد موته بذكره الجميل، وسمعتة العطرة، قال الشاعر العربي:

دقات قلب المرء قائلة له إن الحياة دقائق وثوان

فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها فالذكر للإنسان عمر ثان

وليس بميت من يموت ويغيب في التراب ولكن وراءه آثاره الدالة عليه، الناطقة بوجوده، ومن هنا كان للآثار أهميتها القصوى في إثارة الذكريات، وتفجير المشاعر والأحاسيس، وإطلاق الألسن بروائع البيان.

(1) صحيح مسلم.

(2) رواه أبو داود، والترمذي، والحاكم، والبيهقي في السنن عن ابن عمر رضي الله عنهما.

قال الأحوص:

ضوءُ نارٍ بدا لعينك أم شبُّ
تلك بين الرياض والأثل والبأ
وكذا الزمانُ يذهب بالنأ
سُ لذي الأثل من سلامة نار
نات منّا ومن سلامة دار
س وتبقى الرسوم والآثار⁽¹⁾

وقال أبو الطيب المتنبّي:

تصفو الحياة لجاهلٍ أو غافلٍ
ولمن يُغالط في الحقائق نفسه
أين الذي الهرمان من بنيانه
تتخلف الآثار عن أربابها
عما مضى فيها وما يُتوقع
ويسومها طلب المحال فيقنع
ما قومُه ما يومُه ما المصرع
حينا ويدركها الفناء فتتبع

والآثار نوعان: مادية ومعنوية فالمادية لها وقتها المحدود ثم يدركها
الفناء أما المعنوية فدائمة دوام الحقائق التي لا تزول!

الرثاء:

من الموضوعات الهامة التي تناولها الأدب العربي في مختلف عصوره،
وأفاض فيها القول الخطباء والشعراء وتنافسوا في الإجادة فيها، الرثاء.
وهو تعداد فضائل الميت وعرض مناقبه وشمائله، في توجع وتحسر،
وحزن وتألّم، وقد سئل أحد الأعراب: ما بال أفضل أشعاركم في الرثاء
فأجاب: لأننا نقولها وقلوبنا موجعة، أي لأنها صادرة عن عاطفة حارة
صادقة، بعيدة عن التكلف:

(1) الأبيات في (الأغاني) 9 - 132.

والحقيقة الناصعة المذهلة هي أن الإنسان يرى كل يوم ويسمع فقد صديق، أو قريب، أو زميل، فتتراءى له حقيقة رهيبة تطفئ على سائر الحقائق، وتتكشف له كبيرة ضخمة تتضاءل أمامها قيم الأشياء وأقدارها. وتتحول أمام عينيه إلى سراب فيتبين أن هذه الحياة التي هام في جمالها، ويكافح صباح مساء، ليلَ نهار من أجلها، ليست في واقعها الأوهما، وما العالم كله إلا قبر واسع يبث رسل الموت، ويرسل عواصف الهلاك! وكيف يكون حال من يشيع إخوانه وأصدقائه إلى قبورهم، وينتظر ساعة يلتحق فيها بهم وهي آتية لا ريب فيها.

من كان يعلم أن الموت يُدرّكه والقبر مسكنه والبعثُ يخرجُه
وأنه بين جناتٍ مزخرفةٍ يوم القيامة أو نار ستُنضجه
فكل شيءٍ سوى التقوى به سمج ومن أقام عليه منه أسمعُه
ترى الذي اتخذ الدنيا له وطنا لم يدر أن المنايا سوف تُزعجه
والشعراء أو الخطباء إزاء الرثاء صنفان:

شعراء أو خطباء يقفون موقفا ذاتيا من المصاب الأليم، يعددون فضائل الميت ويبيكون مناقبه وشمائله، وشعراء أو خطباء ينزعون من الميت إلى الموت ومن الفرد إلى الإنسان، ومن المصير الجزئي إلى المصير الكلي، فالأولون هم شعراء الوجدانية والآخرين هم شعراء الرثاء الكلاسيكي⁽¹⁾ والرثاء على كل تكريم للميت لأنه عرض لأعماله، وتعداد لفضائله، وكشف عن وجوده الإيجابي في أمته وبين قومه، وإن كان التكريم أظهر وأجلى عند الوجدانيين!

(1) انظر (المفيد في الأدب العربي) ج 1 ص 458.

التأبين:

يقوم التأبين بالثناء على الفقيد، وعرض فضائله الكريمة، وصفاته النبيلة، وأعماله الصالحة، وتصوير الفراغ الذي خلفه الميت وراءه، وهو عادة يكون للعظماء، والأمرء، والعلماء، الذين لهم الوزن الثقيل في الأمة، وربما من الفوارق بين الرثاء والتأبين أن هذا الأخير تكون فيه الإشادة بالذكر والفضائل أكثر من الندب والتفجع والتحسر!

ولاقترب التأبين من المدح، يصعب أحيانا الفرق بينهما، أو تبين ما إذا كانت الخطبة أو القصيدة في المدح أو في التأبين، بيد أن براعة الشاعر أو مهارة الخطيب تجعل السامع في شعور دائم بأن الكلام حول ميت.

وجماع القول في الرثاء والتأبين أنهما مرأتان مجلوتان، تعكسان فضائل الميت وشمائله، وتصوران مكانته في أمته أو مجتمعه، وذلك هو التكريم! وهذا النوع من التكريم معروف في مختلف العصور العربية والإسلامية على تطور فيه، وتفاوت في مناحيه⁽¹⁾.

ومن الشعراء المشاهير بالرثاء الخنساء، والمهلهل في الجاهلية، وجريروابن الرومي والفرزدق في الإسلام، ثم عرفت ساحة الرثاء والتأبين شعراء لا يحصيهم العد في مختلف مراحل التاريخ العربي الإسلامي، ومختلف الأقطار والبلدان، ومن أشهر شعراء هذا العصر في الرثاء شاعر النيل حافظ إبراهيم - رحمه الله -.

وإذا كان تكريم الأحياء قليلاً -نسبياً- لأنه إنصاف من الأحياء للأحياء، والإنصاف في هذه الحياة قليل نادر، ولأنه يتطلب في المكرم مؤهلات وكفاءات، وهذه قلما تتوفر في شخص بسعة وعمق حتى يكون

(1) يراجع هذا في كتاب (التوجيه الأدبي) للدكتور طه حسين ورفاقه.

تكريمه من أجلها عن جدارة واستحقاق، فإن تكريم الأموات كثير، شائع، ذائع، لأن الميت قد ترك الحياة للأحياء، ولم يعد ينازعهم فيها، فلا أقل من أن يجودوا عليه بما كانوا ييخلون به عليه يوم كان ينافسهم في الحياة، ومن هنا نرى الناس ييخلون بكلمة صغيرة مقتضبة يقدرّون بها عمل مجاهد بالفكر والقلم، أو مجاهد بالسلاح، أو بان للفضيلة، أو ناصر للحق، أو حام للذمار، فإذا مات واحد من هؤلاء جمعوا له من مختلف المعاجم اللغوية أجمل النعوت والأوصاف، وصبوها عليه صبا، وقد كان في حياته أحوج ما يكون إلى القليل من ذلك!

وليس معنى هذا أننا ندعو إلى ترك هذا التقليد الحسن الجميل، وندفن عظماءنا

وأبطالنا، وعلماءنا في صمت، دون كلمة تكريمية تقديرية نودّعهم بها، أو أننا نقلل من أهمية هذا الإرشاد النبوي (اذكروا محاسن موتاكم) وإنما ندعو في شدة وإلحاح إلى الاعتراف بالفضل لأهله، وهم أحياء ليمضوا في طريقهم بعزيمة أقوى وحيوية ونشاط، وعلم بأنهم يعملون أمام ذوي العيون المبصرة!

والجدير بالملاحظة أن المؤبّن غالباً ما ينزع في تأبينه إلى التحدث عن الدنيا والآخرة، وعن الفناء والبقاء، ويثير في أعماق الناس تأملات عقلية، واعتبارات نفسية، ونظرات فلسفية، وهذه النزعة نجدها عند لبيد في تأبينه لأخيه إذ يقول:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل	وكل نعم لا محالة زائل
وما المرء إلا كالشهاب وضوئه	يحور رمادا بعد إذ هو ساطع
وما المال والأهلون إلا ودائع	ولابد يوماً أن ترد الودائع
أليس ورائي إن تراخت منيتي	لزوم العصا تحنى عليها الأصابع

وقد فشلت هذه الظاهرة بعد مجيء الإسلام وتعلق الناس بالآخرة وما ينتظرونه فيها من سعادة، ثم تعمقت في العصر العباسي باتساع آفاق العلم والفلسفة (فأصبح الشعراء يوزعون قصيدتهم بين البكاء والتأبين والتعزية والحكمة، وربما غلبت عند بعض الشعراء وفي بعض القصائد خاصة الحكمة على كل ما عداها، شأن أبي العلاء المعري في قصيدته برثاء فقيه حنفي، وقد صبغها التشاؤم من هذه الحياة:

غير مجد في ملتي واعتقادي	نوح باك ولا ترنم شاد
وشبيه صوت النعي إذا قيس	بصوت البشير في كل ناد
صاح هذى قبورنا تملأ الرحب	فأين القبور من عهد عاد
خفف الوطء ما أظن أديم	الأرض إلا من هذه الأجساد
وقبيح بنا وإن قدم العهد	هوانُ الآباء والأجداد

والتأبين قد تغلب عليه مسحة الكآبة، والتفجع والتألم، مما يدل على قوة العاطفة وصدقها، ولكن خيرا من ذلك أن تقابل الفاجعة بالعقل المدرك، والنفس الواعية، والنظر العميق، في الموت والحياة، فتستغل المناسبة في الإشادة بفضائل الميت حتى يظل بها حيا في القلوب، وهذا تكريم له.

واشتهرت عبر العصور الإسلامية -بالخصوص- مرثيات وتأبينات تجلت فيها العاطفة الصادقة، والعقلية الرزينة الحكيمة، وظهرت فيها مآثر الموتى المؤبنين جليلة واضحة تدعو إلى الإعجاب بها، وتغري بالاعتداء بها، والتضحية في سبيلها.

تأمل رثاء حسان للرسول صلى الله عليه وسلم إذ يقول من قصيدة طويلة:

تُهِيلُ عَلَيْهِ التَّرْبَ أَيْدٍ وَأَعْيُنُ^{١٤}
عَلَيْهِ - وَقَدْ غَارَتْ بِذَلِكَ - أَسْعَدُ
لَقَدْ غَيَّبُوا حِلْمًا وَرَحْمَةً
عَشِيَّةَ عَلُّوهُ الثَّرَى لَا بَوْسَدَ
وَرَا حُوا بِحُزْنٍ لَيْسَ فِيهِمْ نَبِيُهُمْ
وَقَدْ وَهَنْتَ مِنْهُمْ ظُهُورٌ وَأَعْضُدُ
وَيَبْكُونَ مِنْ تَبْكِي السَّمَوَاتِ يَوْمَهُ
وَمَنْ قَدْ بَكَتْهُ الْأَرْضُ فَالنَّاسُ أَكْمَدُ
وَهَلْ عَدَلْتُ يَوْمًا رَزِيَّةً هَالِكٍ
رَزِيَّةً يَوْمَ مَاتَ فِيهِ مُحَمَّدُ
تَقَطَّعَ فِيهِ مَنْزِلُ الْوَحْيِ عَنْهُمْ
وَقَدْ كَانَ ذَا نَوْرٍ يَغُورُ وَيُنْجِدُ
يَدُلُّ عَلَى الرَّحْمَنِ مَنْ يَقْتَدِي بِهِ
وَيُنْقِذُ مِنْ هَوْلِ الْخَزَايَا وَيُرْشِدُ
إِمَامَ لَهُمْ يَهْدِيهِمُ الْحَقَّ جَاهِدًا
مَعْلَمٌ صِدْقٍ إِنْ يُطِيعُوهُ يَسْعَدُوا
عَفَوٌ عَنِ الزَّلَّاتِ يَقْبَلُ عَذْرَهُمْ
وَإِنْ يُحْسِنُوا فَاللَّهُ بِالْخَيْرِ أَجْوَدُ
وَإِنْ نَابَ أَمْرٌ لَمْ يَقُومُوا بِحَمَلِهِ
فَمَنْ عِنْدَهُ تَيْسِيرٌ مَا يَتَشَدَّدُ

فبيناهم في نعمة الله وسطهم
دليل به نهج الطريق يقصد
عزيز عليه أن يحوروا عن الهدى
حريص على أن يستقيموا ويهتدوا
عطوف عليهم لا يثنى جناحه
إلى كنف يحنو عليهم ويمهد⁽¹⁾

والقصيدة طويلة، وهي زافرة بالشمائل النبوية، وهي قطرة من بحر،
وذرة من رمل، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم لا تعد فضائله وشمائله،
حسبنا قول الله فيه: «وإنك لعلی خلق عظیم»⁽²⁾

والقصيدة -كما نرى- تفيض بالصدق، وتتسم بالعمق، وتتموج فيها
العاطفة القوية المتأججة، وتعكس هول المصاب، ووقع الفجيعة،
وفظاعة الألم والحزن.

وتأمل أيضا هذه الأبيات من قصيدة يرثي بها أبو تمام محمد بن
حميد الطوسي:

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر
فليس لعين لم يفض مأوها عذر
توفيت الآمال بعد محمد
وأصبح في شغل عن السفر السفر

(1) السيرة النبوية للإمام أبي الفداء ابن كثير ج 2 ص 506.

(2) سورة القلم، الآية 4.

وما كان إلا مال من قلّ ماله

وذخرا لمن أمسى وليس له ذخِر

فتى كلما فاضت عيونُ قبيلةٍ

دماء ضحكت عنه الأحاديث، والذكرُ

وتأمل في الأخير هذه الأبيات:

كنت الضياءَ لناظري فعمى عنك الناظر

من شاء بعدك فليمتْ فعليك كنت أحاذر

ليت المنازلَ والديارَ رَحضائر ومقابر

حسبك من مكانة الفقيد ومآثره أنه كان ضياء، وما إن طواه الموتُ

حتى أصبح الوجود يسبح في الظلام الدّامس! وأنّ الشاعر كان يحاذر

على الفقيد، أما وقد مات فعلى كل من شاء الموت أن يموت!

كما نرى صدق العاطفة، وصدق التّأبين التكريمي في هذا القصيد

البليغ الرائع الذي ألقاه شاعر الجزائر الأستاذ مفدي زكريا، في الذكرى

الأربعين لوفاة مفخرة المغرب العربي بل مفخرة العالم العربي والإسلامي

العلامة الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور مفتي الجمهورية التونسية

وعميد الكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين في يوم الجمعة 29 من

شهر ماي سنة 1970 بالمسرح البلدي في حفل رهيب خاشع، حضره

رجال الفكر والعلم والأدب، من تونس والمغرب والجزائر وليبيا والقاهرة.

ولن نكتفي من هذه القصيدة بأبيات بل سنقدمها كلها لأنها بتمامها

وكمالها تصوّر بعمق فضائل الفقيد، ومكانته العلمية الفذة بين أعلام الفكر

العربي والإسلامي، وفي إبراز هذه الفضائل وتسجيلها تكريم للفقيد!

وهل هناك تكريم للفقيد أجمل وأحسن من هذا الشعر الوجداني
الرائع الصادق، الذي يظل عبر التاريخ تردده الألسن، وتتبض به القلوب.
إن هذا التكريم الذي تقوم به الجزائر نحو الفاضل ونحو تونس
الشقيقة على لسان ابنها الشاعر، تكريمٌ للفقيد، وتكريم للخصائص
الحضارية العربية الإسلامية التي خدمها الفقيد بفكره وقلمه ولسانه،
وتكريم لمختلف مواقفه الفكرية والدينية والسلوكية.

وفي هذا التأبين التكريمي تعبير عن وجدان الأمة وإعجابها بمن
خدمها وأخلص لها ووفى، وضحى وأعطى بسخاء، وهاهي القصيدة:

مالي وللشعر، والأكباد تنفطر؟

وللرثاء، وما يرثي لنا القدر

الجرح أعمق أن ينسى بقافية

والقرح أعرق أن يمحي له أثر

والخطب أفدح أن يبكي بملحمة

ورب خطب بكى من هوله الحجر

ما لليالي، نصافيهما، فتغنصنا؟

وللمسرات، في أعطافها الكدر؟

أ للحوادث وتر في مرابعنا؟

أم للكوارث في أوطاننا وطر؟

نعلل النفس باليسرى، فيكسفنا

هذا الزمان، وتخزيننا به العبر

وكم صبرنا، فيشكو الصبر صلتنا
ويعجب الصبر منا، كيف نصطبر
وقلت -رباه- بعد العسر مسرة
هل ينقضي الدهر والمظلوم ينتظر؟
فهل خفرنا ذماما فانتقمت له
وهل ضمائرنا في الخطب تزدر؟
هبننا أسأنا، أما طمأنت مسرفنا
من رحمة الله لا يأس ولا ضجر
ولم تزل صفة الغفران قائمة
ما دام في الأرض من يعصي، فتغفر
يا من سبتهم من الدنيا ملاوتها
وفي الثمالة من كاساتها الصبر
ومطمئين، أغراهم بمرتعتها
طيب المقام، وأيام الدنا سفر
وسادريين مع الأوهام، خدرهم
صفو الليالي، وما يصفو بها السحر
وعاشقين من الرقطاء ملمسها
وفي لعاب الأفاعي يكمن الضرر
وللزمان، وإن سرت بواكره
حينا، بوادر لا تبقي ولا تذر

فكم بلوت الدنا علما وتجربة
فهالني من دناي الخبر والخبر
وكم وثقت بما تخفي مظاهرها
(وبالعيون التي في طرفها حور)
لئن خدعت بها حيناً فلا عجب
ما كنت (أول سار غره قمر)
نطيل فيها الأمانى، وهي ساخرة
ونبسط العيش والآجال تختصر
وما علمنا بأننا في أحبتنا
نمنى، وتبعث في أفضالنا الغير
والموت يعلم - كالصراف - عملته
يختار عنصرها الأنقى ويختبر
والراحلون كثير في قوافلنا
وليس يندب إلا من له خطر

* * *

يا عارجا لسماء لا نفاق بها
ونازلا برحاب ما بها نكر
وصاعدا - شهد الأفلاك حائرة
فشاقه في السموات العلا السمر

(وفاضلا) لم تزل تسمو فضائله
فراح في إثرها يسمو ويتكر
لو أنبأتنا الليالي عن تصرفها
كنا صرفناك، لولا أننا بشر
ألفت (مؤتمر الإسلام) تحضره
هل في السموات للإسلام مؤتمر؟
ولست أدري، ودنيا الدرس تجمعنا
وفيض علمك في الآفاق ينهمر
أفاضل أنت؟، أم صورت مدرسة
تمشي على الأرض، في أعماقها الدرر؟
أم أنت في كلمات العلم معجزة
من صنع (طاهر) تسمو طوعها الفكر؟
أم من صميم أصول الدين فلسفة
يدعم النص في تأييدها النظر؟
أم حجة العبقريات التي انطلقت
من مغرب لم يزل ينمو ويزدهر؟
كم فيه وحدت للعرفان مجتمعا
أعناقه للمعالي ليس تنحصر
وفي الحضارة علم لست تجهله
ما دام بالدين والأخلاق ينصبر

والعلم حق مشاع لا حدود له
وليس في العلم مناع ومحتكر
والخالدون وإن تطوى حياتهم
لا يسوى لهم طول المدى عمر
يا راحلا لم تزل فينا مآثره
أيان خلق - لا يفنى لها أثر
مذ شاع نعيك فينا ارتج مغربنا
وارتاع بالشرق صدر كاد ينفجر
البرق يخفق، والأسلاك نابضة
والقلب يرجف، والحببات تنتشر
ووافدون على الخضراء تدفعهم
وشيجة، حولها الأكباد تستعر
ويسمع الحسن الثاني، فيفجؤه-
وقع المصاب، وما قد زور القدر
مشاعر الحسن الثاني لراحلنا
(علوية) ليس يبلى ذكرها العطر
وفي الجزائر أكباد ملووعة
خفت لتونس حيرى، هالها الخبر
وأوفدت رسلها ليبيا تشاطنا
وللفقيد بليبيا الخرد الغرر

تنازعتك الحنايا والأكف معا
لمن ترى، كتب التوفيق والظفر؟
وأودعوك ترابا عشت تغرسه
علما وفضلا، فزكى غرسك الثمر
نم مطئنا - كفى الخضراء مفخرة
أن العلا بك والخضراء، تفتخر
وأسأل إلهك في أبناء ملته
فقد أحاط بهم من وزرهم وزر
وقل لأحمد، هل ترضيك محنتنا؟
إلى م نحن إلى الأعماق ننحدر؟
وقبله الله تشكو ظلم غاصبها
والقدس يعث فيه الغادر الأشر
فأثار لحرمة بيت ديس مقدسه
واغضب لنكبة أرض حفها الخطر
كم ذا وعدت بنصر فاعجلن به
وكم نصرناك، هل ترضى فننتصر؟

الخاتمة

إذا كان العاملون الكادحون من أجل العيش، ورفاهية الحياة المادية، يستحقون كل التقدير والاحترام، لأن عجلة الحياة بسواعدهم تدور، ولولاهم لما لفظت الأرض خزائنها، وقذف البحر بنعيمه وخيراته -فإن رجال الفكر وأهل الاجتهاد والكفاءات والنبوغ، جديرون بتقدير مضاعف، واحترام زائد، واهتمام متميز، لأنهم في أممهم عقولها المفكرة، وقلوبها النابضة، وعيونها المبصرة، ومصاييحها الهادية، ومعيار رقيها وتقدمها! ومن هنا أدركت الأمم الحية مكانتهم، وعظم خطورتهم، فأسست ونظمت جوائز لتكريمهم، وأقامت حفلات ومهرجانات للتعبير عن هذا التكريم وهذا التقدير، وفي كل مناسبة من هذه المناسبات تتجند وسائل الإعلام للإشادة بذلك والتتويه به، واستقطاب الأنظار حولهم وحول هذا التقليد المثير!

وقد رأينا تحبيذاً لهذا التقليد، واستحساناً له، وتقديراً لطائفة من المكرمين، وتذكيراً بتاريخهم، وجلال أعمالهم، واستنهاضاً للهمم، وحفزاً للعزائم في هذا العصر الذي أصبحت فيه المادة معبودة الجميع، أن نضع هذا الكتاب الذي نرجو أن يفي ببعض الغرض، ويؤدي بعض المطلوب! وإزاء الجهد المضني الذي بذلناه في تأليف هذا الكتاب في ظروف جد قاسية، نتوقع أن أي قارئ يقرأه، أو متصفح يتصفح سيستاءل: أين العالم الفلاني أو الأديب الفلاني، أو المخترع الفلاني، قد أكرموا ولكن لا وجود لهم في الكتاب؟

والجواب عن هذا التساؤل المفترض أن تتبّع كل الذين كُرموا في البلدان العربية والإسلامية واستقصاءهم -دع عنك البلدان الغربية- أمر متعسر إن لم يكن متعذراً إلا على جماعة من الباحثين يتفرغون لهذا العمل على شرط الاستعداد الخاص، والوقت الواسع، ووفرة المراجع! هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإننا أردنا بهذا الكتاب عرض عينات من بعض البلدان العربية والأوروبية، وفي ذلك، تقديرٌ لهذا التقليد، ودعوة إلى مواصلته وإجرائه على الأسس العلمية الصحيحة حتى تكون شهادة بحق على النبوغ والتفوق الفكري في العلم أو الأدب، وتذكير بتاريخ هؤلاء المكرّمين، وتكريمٌ ضمني لكل العاملين الجديرين بالتكريم، فذلك هدفنا وغايتنا والله وليُّ الهداية والتوفيق.

المؤلف

المراجع

● التفاسير:

- تفسير الإمام الفخر الرازي
- تفسير الإمام الألوسي: (روح المعاني)
- تفسير الإمام الزمخشري (الكشاف)

● كتب متنوعة:

- الموسوعة العربية الميسرة
- موسوعة الموارد العربية
- بصائر ذوي التمييز، للفيروز أبادي
- الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري - لآدم متمر
- أيام العرب في الجاهلية لجماعة من المؤلفين
- البيان والتبيين للجاحظ
- جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة لأحمد زكي صفوت
- عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير لابن سيد الناس
- آمالي المرتضى
- المنازل والديار لأسامة بن مرشد
- الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني
- تاريخ الأدب العربي لأحمد حسن الزيات
- المفصل في تاريخ الأدب العربي لأحمد أمين وجماعته
- تاريخ الأدب والنصوص الأدبية لمحمد الطيب عبد النافع وإبراهيم عبد الرحيم

- المفيد في الأدب العربي لجوزيف الهاشم وجماعته
- آثار الإمام الشيخ محمد البشير الإبراهيمي
- آثار الإمام عبد الحميد بن باديس
- حياة كفاح للشيخ أحمد توفيق المدني
- وحي الرسالة لأحمد حسن الزيات

● الدواوين الشعرية:

- الشوقيات لأحمد شوقي
- ديوان حافظ إبراهيم
- ديوان خليل مطران
- ديوان البارودي
- ديوان إسماعيل صبري
- اللهب المقدس لمفدي زكريا

● الدوريات:

- الشهاب - الجزائر
- الرسالة - مصر
- الهلال - مصر
- المجلة الزيتونية - تونس
- الفيصل - المملكة العربية السعودية
- الدوحة - قطر
- المجلة العربية - المملكة العربية السعودية
- العربي - الكويت

دليل الكتاب

05	الإهداء
07	أضواء
09	المقدمة
13	التكريم: معناه ومغزاه
17	التكريم في الجاهلية
20	● أسواق للتنافس في الشعر
22	● من التكريم في الجاهلية اختيار المعلقات
25	● من التكريم في الجاهلية مسح وجه الفرس
27	التكريم في الإسلام
29	● تمهيد
29	● خير الدنيا وخير الآخرة في العمل الصالح
31	● العمل مناط الحكم وموضع التقدير
33	● الجزاء على قدر العمل
34	● صور من التكريم في الإسلام
39	التكريم في العصر الحديث
41	● تمهيد
42	● التكريم في المشرق العربي
42	■ تكريم سليمان البستاني
42	● لمحات من حياته

- تكريم شاعر النيل حافظ إبراهيم 42
- لقطات من قصيدة المحتفى به 43
- لمحات من حياته 45
- تكريم خليل مطران 45
- لمحات من حياته 45
- تكريم أحمد فتحي زغلول 46
- لمحات من حياته 47
- تكريم واصف غالي 47
- لمحات من حياته 49
- تكريم العلامة الشيخ طاهر الجزائري 50
- لمحات من حياته 53
- تكريم أحمد شوقي 54
- بعض ما قيل فيه 56
- قصيدة المحتفل به 72
- لمحات من حياته 75
- تكريم الأستاذ الفقيه الورتلاني 77
- تمهيد 77
- لجنة الاحتفال 78
- الدعوة إلى الاحتفال 79
- في ميدان الخطابة 79
- لمحات من حياته 80
- تكريم جمع من أهل العلم والأدب بمصر 83
- لمحات من حياة أحد المكرمين وهو أحمد حسن الزيات ... 84

85	التكريم في المغرب العربي
87	■ تكريم مؤرخ الجزائر الشيخ مبارك الميلي
87	● لمحات من حياته
88	■ تكريم الإمام عبد الحميد ابن باديس
90	● لقطات من الخطب والقصائد
106	● خطاب الإمام البشير الإبراهيمي
108	● خطاب المحتفي به الإمام عبد الحميد ابن باديس
113	● لمحات من حياته
114	● من وحي تكريم الإمام
123	■ تكريم العلامة الشيخ الطاهر ابن عاشور
123	● تمهيد
126	● لقطات من خطب الخطباء وقصائد الشعراء
161	● خطاب الإمام ابن عاشور
164	● لمحات من حياته
166	● من وحي تكريم الإمام
169	■ تكريم الأستاذ أحمد توفيق المدني
169	● تمهيد
171	● حفل التكريم
171	● مما قيل في حفل التكريم
188	● لمحات من حياته

■ تكريم العلامة الشيخ البشير الإبراهيمي 190

● تمهيد 190

● حفل التكريم 191

● بعض ما قيل فيه 192

■ تكريم العلامة المصلح الشيخ بيوض 201

● تمهيد 201

● حفل التكريم 202

● بعض ما قيل فيه 204

● خطاب المحتفل به 230

● لمحات من حياته 231

● من وحي تكريمه 235

■ تكريم العلامة الشيخ محمد المكي الناصري 241

● تمهيد 241

● لقطات مما قيل في الحفل 243

● خطاب المحتفى به 269

● لمحات من حياته 279

● من وحي تكريمه 287

الجوائز الأدبية 287

● تمهيد 289

● عودة إلى الجوائز الأدبية 294

299	● جائزة نوبل
301	● قائمة ببعض أسماء الذين حصلوا على جائزة نوبل
303	● بين الأدب والسياسة
307	التكريم بالأوسمة
313	الاحتفال التكريمي بختم خليل في منطقة زواوة
321	تكريم الأموات
339	الخاتمة
341	المراجع

أنجز طبعه على مطابع
كيوان المطبوعات الجامعية
الساحة المركزية - بن عكنون
الجزائر